الرسالة المحمدية

السيد سليمان الندوي

ثمان محاضرات في السيرة النبوية ورسالة الإسلام

دار الأمان
للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولي

١٤١٥هـ - ١٩٩٥م

رقم الإيداع القانونى
٩٦/٣٣٦٥

دار الأمان
للنشر والتوزيع
٤١ ش محمد فريد أبو حديد - مدينة نصر - القاهرة ت ٤٠٢٣٢٩٥

ترجمة حياة المؤلف

السيد سليمان الندوي
للاستاذ مسعود الندوي[1] رحمهما الله تعالى

لقد علم المسلمون في مشارق الارض ومغاربها أن عالم الهند وعالم باكستان الاكبر ، الاستاذ العلامة المحقق ، السيد سليمان الندوي قد استأثرت به رحمة الله وانتقل الى دار الخلود ، في الرابع عشر من شهر ربيع الآخر سنة ١٣٧٣ هـ . وقلّ من عرف منهم أي مصاب أصيب به المسلمون والعالم الاسلامي بوفاته ، والذين عرفوا ذلك منهم ، ربما لا يستطيعون أن يقدروا الخسارة العظمى التي خسرتها الدعوة الاسلامية في باكستان بارتحاله في هذه الآونة الخطيرة من حياتها التي سيكون لها ما بعدها في تاريخ هذه البلاد الى قرون وأجيال ، وذلك للصراع الشديد الذي لا يزال قائما بين أنصار الدستور الاسلامي وبين أتباع الغرب المفتتنين باللادينية الغربية . فقد كان المغفور له بطلا من أبطال هذا الكفاح وطودا من أطواد الحق وسندا يرجع اليه في المشاكل وحجة على الخصوم الجاحدين فانه مهما بلغ من جحود المعاندين وتعنت المكابرين ، لم يكن في مكنتهم أن يردوا على السيد ـ رحمه الله ونضرّ وجهه يوم القيامة ـ في شيء من أمور الشريعة ، والقوم لا يتجرأون ، على كرههم

---

(١) نقلنا هذه الترجمة عن حياة المؤلف رحمه الله تعالى عن مجلة المسلمون المجلد الخامس ص ٣٨٤ العددان الرابع والخامس ، محرم وصفر ١٣٧٦/ ١٩٥٦ وقد كتب هذه الترجمة الاستاذ مسعود الندوي رحمه الله فكانت ترجمة وافية لانها ترجمة تلميذ وفي لأستاذ عالم . تغمدهما الله بواسع رحمته وجزاهما عن المسلمين أحسن الجزاء .

الناشر

للدين وبغضائهم للشريعة أن يجحدوا بالشريعة علنا ، خوفا من الشعب المؤمن القوي ، وانما جل متاعهم المكابرة والتحريف . فكان دعاة الحق والمدافعون عن مبادىء الاسلام يلتجئون الى السيد ويحتمون بعلمه وشخصيته للرد على الجاحدين المتعالين الذين يتكلمون في كتاب الله وسنة نبيه ﷺ من غير ان يكلفوا أنفسهم ان يصرفوا ولو سويعات من أوقاتهم في دراسة اللغة الكريمة التي أنزل بها القرآن العزيز ونطق بها النبي الكريم ﷺ .

فمن حق قراء « المسلمون » واخواننا في الاقطار الاسلامية ان يعرفوا نتفا من سيرة الفقيد الراحل وأعماله ومساعيه وجهوده المتواصلة المتتابعة للنهوض بالامة الهندية المسلمة وترقية مستواها العلمي والادبي والخلقي . ومن حق استاذنا على تلميذه الحقير أن ينوه بمآثره وجلائل أعماله وخصائص حياته التي يعرف منها ما لا يعرفه الا قليل من الناس .

ان الذين نعرفهم من رجال العلم الاسلامي والذين عرفناهم واتصلنا بهم ودرسنا سيرهم وتراجمهم من رجال الهند وباكستان ، تنحصر عظمتهم ونبوغهم في ناحية دون ناحية أو عدة من نواحي الحياة وشعب العلم ، ولكننا لا نعرف من بينهم مَن أخذ من كل شيء بقسط كالاستاذ سليمان .

تخرج السيد سليمان في دار العلوم التابعة لندوة العلماء على اساتذتها ومنهم العلامة المحقق شبلي النعماني (١٢٧٣ - ١٣٣٢ هـ). وجعل من بعد ذلك يساعد الاستاذ النعماني في تحرير مجلة « الندوة » التي كان يرأس تحريرها والتي كانت أم المجلات الاردية العلمية يومئذ . ثم عين مدرسا للغة العربية في دار العلوم التي تخرج منها ، فظهر من كفاءته وملكته الادبية وتفننه في طرق التدريس ما أنطق الالسنة بالثناء عليه . فظل كذلك زهاء ست سنين (١٩٠٦ - ١٩١٢) كتب خلالها في مجلة

« الندوة » مقالات تنبأت لكاتبها الشاب بنبوغ مأمول ومستقبل زاهر واتى في حقل الادب العربي بالعجائب وخلف آثارا في القول المنظوم والمنثور مما يعجز عن مثله نوابغ أدباء الهند وشعرائها . وما ظنُّك بهندي غريب عن مهد العروبة والعواصم العربية ، تجود قريحته بمثل هذا القول المطبوع ، وهو في عنفوان شبابه :

دِنٌّ من القهوة الصهباء في الافق
والكأس تطفو به لا الشمس في الشفق
بل إنسه برقع قان له شية
والشمس وجه حبيب بالحجاب يقي
بل انما الشمس للصواغ بوتقة
قد زان عسجدها واشجٌ في طرق
بل انما الشمس من أعمارنا قتلت
يوما ، فسال دم جار من العنق
فذلك الشفق المحمر من دمه
وقبره ليله المستور بالغسق
« من قصيدة الشمس عند مغيبها »

ثم التحق بصحيفة « الهلال » الاسبوعية الزاهرة لابي الكلام - التي لم تصدر صحيفة اسبوعية مثلها باللغة الأردية الى الآن - فعارض صاحبها المبدع في اسلوبه وجعل ينشيء مقالات افتتاحية ،لم يعرف الناس من كاتبها، فتارة نسبوها الى أبي الكلام، صاحب الصحيفة ورئيس تحريرها وأخرى عزوها الى السيد سليمان ، حتى ان المقالة التاريخية (مشهد أكبر) التي ظهرت في « الهلال » بمناسبة قضية هدم بناء

الجامع في مدينة (كابور) والتي قامت لها البلاد وقعدت ما حاك وشيها ونسج بردها الا يراع السيد سليمان الندوي . وبعدما تقلّب المترجم في عدة وظائف رسمية بعد الانقطاع عن دار الهلال أسس جمعية دار المصنفين الشهيرة التي كان وصى بها أستاذه شبلي النعماني وعاجلته المنية دون ابراز أمنيته - أمنية تأسيس مجمع علمي - الى عالم الوجود . تأسس هذا المجمع العلمي - دار المصنفين - سنة ١٩١٥ م - ١٣٢٣ هـ في مدينة أعظم كره[1] مولد الشبلي النعماني ومنبت أرومته فعكف السيد سليمان يتعهد الدار ويعنى بتدريب الشبان وتثقيف أحداث الكتاب وينشر نتاج قرائحهم بعد تهذيبه الى أن تكونت جماعة صالحة من أفاضل الكتاب والمؤلفين الذين وقفوا حياتهم لخدمة الدين والعلوم الاسلامية وما زالت تنمو هذه الجماعة ويكثر عددها وتتسع دائرتها حتى يمكنني الآن أن أقول أن الذين تخرجوا على السيد وتثقفوا على يده في « دار المصنفين » في الخمس وثلاثين سنة الماضية (١٣٣٤ - ١٣٧٠ هـ - ١٩١٦ - ١٩٥٠ م) هم اكثر عددا وأوفر مادة وأخصب نتاجا من المتخرجين في سائر الدوائر الاسلامية مجتمعة في هذه البلاد ، أقول ذلك ، ولا أبالغ ، ووإنما ذكرته تحدثا بنعمة الله ، وعلى الفقيد رحمه الله ، وهذه مجلدات مجلة « معارف » الضخمة (لسان حال جمعية دار المصنفين) تكوّن مكتبة عظيمة بنفسها - وهي من أرقى مجلات الهند وأغزرها مادة بلا نزاع . ومصنفات السيد وزملائه اعضاء دار المصنفين وتلاميذه البارزين من الندويين والذين تخرجوا على أيدي تلاميذه ولا يزالون يستفيدون من دروسهم والحضور في مجالسهم العلمية ، وقد سارت سير الشمس واخترقت حدود البلاد ، وقد ترجم

---

(١) مدينة صغيرة من مدن مقاطعات الايالات المتحدة.U.P في شمال الهند .

كثير منها باللغات التركية والفارسية والانكليزية واللغات الهندية الواسعة .

ومن أبرز أعماله العلمية وأرفعها ذكرا إكماله لكتاب (سيرة النبي ﷺ) الذي كان بدأ بتأليفه أستاذه المحقق العلامة شبلي النعماني وهذا الكتاب هو دائرة معارف في السيرة النبوية ، نشرت منه سبعة مجلدات ضخمة لا يقل أحدها عن سبعمائة صفحة من القطع الكبير وهذه المعلمة من عيون ما ألّفه علماء الاسلام منذ قرون ومن غرر ما أهداه علماء الهند الى المكتبة الاسلامية العامة ، وقد اشتمل المجلدان الأولان على ترجمة حياة النبي ﷺ ، عني بتدوين معظمها المغفور له شبلي النعماني ، الذي كان يعد هذا الكتاب خاتمة أعمال حياته . وكان جد حريص على البحث والتنقيب والرد على مطاعن الافرنج . وكذلك كان يتأنق في الكتابة ، حتى ان بعض قطع المجلد الاول تعد أحسن ما كتب كاتب باللغة الاردية ، لغة مسلمي الهند وباكستان العامة . والمجلد الثالث خاص بالمعجزات ، عُني بتأليفه وتأليف المجلدات التالية السيد سليمان . وفي المجلد الثالث مقدمتان علميتان من الوجهتين الفلسفيتين : القديمة والحديثة ، أثبت فيها المؤلف بما لا مجال بعده للشك ، امكان المعجزات وعدم معارضة العلوم العقلية لها . وقد اهتدى بهما كثير من المنخدعين بعلوم الافرنج وضلالاتهم . أما المؤلف نفسه ، فيؤمن بكل ما جاء به النبي الامي ﷺ ، ايمان السلف الصالح من غير لجوء الى فلسفة أو تكلف أو برهان . والمجلد الرابع يحتوي بحثا دقيقا في منزلة النبوة والفرق بينهما وبين منازل الاصلاح والتجديد والزعامة وهذا البحث يسع نحو ٣٠٠ صفحة ، وهو من أحسن ما كتبه الاستاذ سليمان . ثم تكلم الاستاذ في العقائد ولم يكن يستند في بحوثه الى شيء غير الكتاب والسنة . والذي

أعرفه من علمه وعلم معاصريه ، أنه ما كان يضاهيه أحد في الجمع بين أسرار الكتاب العزيز ومعرفة السنة النبوية والاطلاع على كتب العلماء الاقدمين . وجدير بالذكر أنه قد فاق أستاذه النعماني في الاطلاع على أسرار الشريعة واستكناه وجوه التأويل ومعرفة السنة النبوية . والمجلدات التالية الثلاثة تبحث في العبادات والاخلاق والمعاملات . وكل واحد منها معلمة في موضوعه ، يضيق بنا نطاق المقام عن سرد تفاصيل مواضيعها مما يشهد بذلك المحققون المطلعون على أجزاء السيرة النبوية الاولى والتالية ، فهنالك يتبين الفرق بين الاستاذ وتلميذه ، ولا غرو ، فكم ترك المتقدم للمتأخر .

وله مصنفات علمية نافعة غير هذا الكتاب الضخم ، سارت سير الشمس كمحاضراته في السيرة النبوية المعروفة بـ (خطبات مدراس [1]) و(سيرة عائشة) و(أرض القرآن) و(العرب والهند) و(خيّام) وغيرها من آثار قلمه التي تفاخر بها اللغة الاردية . وقد بلغ في المواضيع المختلفة من التحقيق والاجادة ما لم يبلغه أحد من معاصريه في هذه البلاد ، وأضرب لك بمصنفه الشهير في جغرافية القرآن التاريخية المسمى (أرض القرآن) فقد تناول فيه بالبحث والتحقيق جميع البلاد والامم المذكورة في الكتاب العزيز وأحاط بتاريخهم وجغرافية أماكنهم التي كانوا يقطنونها . صنفه منذ أربعين سنة ، والموضوع بكر لم تطمثه أقلام الباحثين ، وقد نقل هذا الكتاب النافع ـ مثل بعض مؤلفاته الاخرى ـ الى اللغة الانكليزية ، وكذلك كتابه عن الشاعر الشهير الخيام ، يعد من أحسن ما ألف في هذا الباب على كثرة ما ألف في الموضوع ببلاد الغرب وقد شهد

---

(١) وهي التي تقدم للنشر باللغة العربية للمرة الثانية بعنوان الرسالة المحمدية ، النشرة الاولى في القاهرة عام ١٣٧٣ . وقد ترجمت الى الانجليزية واللغات الاخرى .

بذلك بعض كبار رجال الهند المطلعين على مصنفات الغرب في هذا الموضوع .

قلت ان « سليمان الندوي » لا تنحصر عظمته في ناحية دون ناحية فإنه كان أديبا بين الادباء وسياسيا بين السياسيين وعالما بين العلماء وقانونيا - اي عالما بالقانون والدستور - بين علماء القانون والتشريع . وناهيك بمكانته في الاوساط السياسية الاسلامية العالمية . انه الرجل الخبير الذي انتدبته الهند الاسلامية بين آونة وأخرى لمخاطبة العالم الاسلامي وبعثته على رأس وفود مؤلفة من خيرة رجال البلاد الى الحجاز ، فهو الذي رأس وفد الخلافة في المؤتمر الاسلامي العام المنعقد بمكة المكرمة سنة ١٩٢٦ م - ١٣٤٦ هـ ، وكذلك كان أحد اعضاء الوفد الاسلامي الذي سافر الى لندن وأوربة ليبلغهم كلمة الهند الاسلامية في مسالة الخلافة ، وذلك سنة ١٩٢٠ الميلادية . أما أعماله وخدماته في المؤتمر الاسلامي بمكة المكرمة فذلك يفوق الوصف والبيان . فقد كان السيد همزة الوصل بين وفود الهند ووفود البلدان الاسلامية الاخرى . واختير لنيابة رئاسة المؤتمر من بين رجالات العالم الاسلامي وعيون ساستها ، ولما أراد ملك الأفغان (نادر خان) - المعروف بنزعته الدينية السديدة - منذ عشرين سنة أن يؤسس جامعة علمية في عاصمة بلاده ، فانتدب ثلاثة من كبار رجال التعليم في الهند الاسلامية ليستشيرهم في الأمر ، ووقع اختياره - وهو من أبصر الناس بالرجال كما شهد له بذلك الدكتور محمد اقبال - على الاستاذ سليمان والدكتور محمد اقبال والسيد مسعود حفيد سيد أحمد خان الرئيس الاعلى لجامعة عليكرة وقتئذ .

وثم شيء أذكره وفاء بالموضوع وأداء لامانة الترجمة . وذلك أن استاذنا كان من أول عهده بالبحث والتحقيق محققا في الفقه لا يتقيد بمذهب

ـ كما صرح بذلك في مقدمته لكتاب (تراجم علمائي حديث هند) ـ سلفي النزعة في العقائد ، يؤ من كما آمن السلف الصالح من غير تكييف ولا تعطيل . وما زال يكتب ويحاضر متشبعا بهذا المنهاج الفكري الى أن أربى على الخمسين من عمره . ثم جعل يميل شيئا فشيئا الى التنسك والتصوف الى أن انخرط في سلك احدى الطرق الصوفية وبايع بالطريقة قبل ثلاثة عشر عاما . فمن ذلك اليوم بدأت تظهر آثار التدرج نحو الحنفية والمتصوفة في كثير من المسائل . وكذلك تغيرت وجهة نظره في كثير من المسائل المستحدثة والمشاكل الجديدة المتنوعة . فمن تلاميذه من لا يزال على طريقته الاولى ، طريقة السلف الصالح التي لا تشوبها كدرة ولا غبار . ومنهم من استأنس بسلوكه الجديد ومنهاجه الاخير ولم ير بذلك بأسا بل منهم من ازداد ميلا اليه وحبا له بعد انخراطه في سلك الطريقة الصوفية . وللناس فيما يعشقون مذاهب .

وبعد ، فقد كان السيد سليمان عملا دائبا وجهدا متواصلا وسعيا متتابعا طوال الخمسين سنة الماضية لم يعرف فيها الراحة او الكسل ، ولم يذق حلاوة الانزواء أو مرارته ، وانما كان حركة دائمة مستمرة طوال حياته فتراه مشتغلا ببحث أو تحقيق دائما ، لا يفتر عنه طرفة عين . رأيته كذلك قبل سبع وعشرين سنة ، وهو يتمتع بصحة جيدة ، ووجدته كذلك قبل سنة ، وهو شيخ بلغ السبعين ، أنهك المرض قواه الجسدية وجعلته قلة النوم والانقطاع الى العبادة في الليالي في غاية من الضعف . فكأن البحث العلمي والتحقيق والتأمل الدقيق قد أصبح له سجية . وعلاوة على كل ذلك فقد كان رجلا ذا مروءة غريبة ، كريما يجري الكرم في دمه ، لا يغضب ولا يسخط ، يصفح عن عدوه ويدعو لمن يتناوله بالسوء . اما التلاميذ والمخلصون ، فيشملهم بعطفه الابوي ويبسط على كل فرد منهم ظلال شفقته وحنانه ، كأنه قد منح في هذا الشأن لمحة من سيرة جده

الكريم ﷺ . أقول ذلك عن تجربة شخصية ومعرفة ذاتية . واكتب هذه الكلمات ، والعين ملؤ ها الدموع ، اسفا وحسرة .

فوداعا ايها الاستاذ الراحل ! نم ، في جوار الله وكنفه ، نضّر الله وجهك يوم القيامة وأعلى مقامك بين الابرار الصالحين .

مقـــــــدمـــة

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد رسول الله إلى الخلق ، برسالة الخير والحق ، وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بحمل أعباء رسالته إلى يوم الدين .

وبعد فإن الأخوة التي عقدها الإسلام بين أهله من أعظم ينابيع القوة للحق وأوليائه . والخطوات الأولى لتحقيق هذه الأخوة التعارف ثم التعاون . وقد كان كابوس الاستعمار - الذي جثم به طغيان الغرب على صدر الشرق مُدّة غفلته عن مصادر قوته - قد أقام الحدود والسدود والقيود ليحول بين المسلمين وبين أن يتعارفوا فيتعاونوا فيتمكنوا من تجديد أواصر الأخوة الإسلامية بينهم . فلما أراد الله بالمسلمين خيراً ، وكان سبيل المسلمين إلى أن يزيلوا ذلك الكابوس عن صدورهم بتجديد قواهم أطول من أن يصبروا إلى أن يبلغوا نهاياته ، فقد يسر سبحانه لهم طريقاً آخر أقصر ، وهو أن يجعل بأس المستعمرين بينهم ، فيحقق زوال ذلك الكابوس بإضعاف الطغاة الذين تحكموا في الأرض وسلبوا أهلها حريتهم وإنسانيتهم . وإن الحربين العالميتين الأولى والثانية قد شلت كل منهما من قوى الغرب ما مهد الله به السبيل إلى قيام دولتين إسلاميتين عظيمتين في الشرق الإسلامي ، وهما دولة باكستان ودولة اندونسيا ، كما أقام للعروبة في مهدها وفي أوطانها حكومات لم تكن من قبل . وإذا أحسن المسلمون شكرهم لله على هذه النعمة بحسن استعمالها ، وإذا قام فيهم العاملون على إرجاع شعوب الإسلام إلى ربها بعد أن نسيت مكانها منه ، يوشك أن يعود إلى الشرق الإسلامي ما فقده

من قوته وحيوته وعظمته وطاعته لله بإقامة الحق والنهوض من مزالق الباطل [1].

ومن أعلام الشرق الإسلامي الذي جعلهم الله في عصرنا من ورثة الأنبياء في مهمتهم والعمل برسالتهم علامة مسلمي الهند وشيخ علمائها مولانا السيد سليمان الندوي بارك الله للمسلمين في حياته ووفقهم للانتفاع بعلمه . وقد رأى وفد الإخوان المسلمين الذي شهد مؤتمر الشعوب الإسلامية في كراتشي في شهر شعبان من العام الماضي أن من وسائل توثيق الأخوة الإسلامية وتحقيق التعارف الإسلامي والتعاون بين المسلمين على الخير أن تلقح ألبابُ الشباب في كل أمة إسلامية بعلوم الأئمة الأعلام في الأمم الشقيقة الأخرى ، لتتحطم بذلك تلك الحدود والسدود والقيود ، ويتتلمذ الشباب الإسلامي كله على اختلاف أوطانه وأممه ، لأئمة المسلمين كلهم على اختلاف أوطانهم وأممهم ، وبدافع من هذه العقيدة التمس وفد الإخوان المسلمين في ذلك المؤتمر من أستاذنا العلامة السيد سليمان الندوي أن يأذن له بنشر ما يختاره من مؤلفاته بين الناطقين بالضاد من شباب المسلمين فاستجاب حفظه الله لهذه الرغبة وقدم له هذا الكتاب النفيس الذي يمتاز على كل ما نشر بالعربية من الكتب العصرية في السيرة المحمدية . بما تعرّض له من مقارنات وملاحظات وتوجيهات قد نبخسها حقها إذا حاولنا التعريف بها في هذه المقدمة ، فنترك ذلك للقارئ فإنه سيجد من هذا الخير أضعاف ما نستطيع الإشارة إليه هنا لو أردنا ذلك .

وهذه البحوث التي استعرضها السيد سليمان الندوي في هذا الكتاب ألقاها في ثماني محاضرات على جماهير من شباب الإسلام والطلبة الجامعيين منهم ومن غيرهم . وكان سبب إلقائها أن جامعة مِدْراس كانت قد أباحت لبعض أحبار المسيحية من الأمريكيين وغيرهم إلقاء محاضرات في البحوث التي وقفوا حياتهم عليها ، فأراد بعض

[1] كان أستاذنا رحمه الله عظيم التفاؤل ، ولكن هذه الدول جميعا لم تكن قد تحررت من الاستعمار تحررا حقيقيا ومازالت للدول الاستعمارية الكلمة – حيث لم يكن قادة المسلمين قد أخرجوه من صدورهم .

مسلمي مِدْراس أن يساهم المسلمون أيضاً في مثل هذا من الناحية التي يؤمنون بها ويرجون تعميم خيرها . فدعوا أستاذنا لإلقاء هذه المحاضرات ، وكان لها وقع عظيم في النفوس . والسيد سليمان الندوي مع سعة علمه ، ومشاركته في أهم المعارف البشرية ، ومعرفته بلغات متعددة ومنها العربية ، فإنه معدود من أئمة البلاغة باللغة الأوردية التي هي " من أوسع اللغات الهندية نطاقاً ، وأوفرها ثروة ، وأعذبها بياناً ، وأقربها إلى العربية صوتاً وخطاً وهي تسامي أرقى اللغات العالمية " كما يقول الاستاذ الفاضل السيد محمد ناظم الندوي رئيس الجامعة العباسية ومترجم هذه المحاضرات النفيسة بالعربية ونحن بتقديمنا هذا الكتاب من مؤلفات كبير علماء مسلمي الهند إلى قراء العربية من مسلمي مصر وغيرهم ، نحاول أن نساهم في تحقيق أخوة الإسلام التي أرادها الله للمسلمين ، وذلك بأن يتذوق شبابنا حلاوة الحكمة من لسان هذا العلامة الحكيم ، وأن ينتقل قارئنا بروحه إلى المجتمع المبارك الذي ألقى فيه السيد سليمان الندوي هذه المحاضرات ، فيتصور أنه كان من شهود إلقائها ، وأنه يستمع إلى ما جاء منها من حقائق كأنه صادر من صوت هذا الإمام الجليل ، ليكون لنا كما هو لإخواننا مسلمي القارة الهندية ، ونكون نحن معهم لأن الله ربط بيننا وبينهم آصرة الأخوة بالرسالة المحمدية ، رسالة الإنسانية العليا . ومن الله نستمد العون .

محب الدين الخطيب

دار الفتح
بجزيرة الروضة بالقاهرة
١٢ ربيع الأول ١٣٧٢ هـ

المحاضرة الأولى

في أن سيرة الأنبياء عليهم السلام هي الأسوة الحسنة للبشر

هذا العالم ـ واذا سميناه « المتحف الأعظم » لم نعد الحق ، ولم نرتكب الشطط ـ يحتوي على أنواع من المخلوقات : ففيه ما شئت من جماد بديع الألوان ، غريب الهيئات . وما يقع عليه نظرك من نبات بين اخضر ناضر ، وأصفر فاقع ، وأحمر قان إلى غير ذلك من شتى الألوان . وفيه ما يخطر أو لا يخطر على بالك من حيوان لو حاول أحدنا أن يحصي أنواعه لأعياه ذلك . ومن أنواعه نوع عجيب يفوق سائر الأنواع في هيئته ، ويفضل عليها بعمله ونشاطه ، وهو الإنسان .

هذا اذا نظرنا الى العالم بعين من لا يتبصر بحكمة ولا يتدبر بعلم . أما الحكيم الذي ينعم النظر في الاشياء ، والعالم الذي يحسن التأمل في ملكوت الله ، فيبدو لهما من الفوارق بين المخلوقات ما يتميز به كل نوع عن غيره ، ويكتشفان في كل شيء الخصوصية التي يمتاز بها ولا توجد في الأشياء الأخرى لأن الباري العظيم لما صور هذه المخلوقات اختص كلا منها بخصائص ، وأودع فيها من القوى ما امتاز به بعضها عن بعض . ومن هنا كانت هذه المخلوقات على غير اطّراد في الطبائع والمواهب ، فتراها تتدرّج وترتقي ـ من أدنى الى أعلى ـ على مدارج في الشعور والادراك والارادة . وإن أول الجماد وهو الهباءة ـ أو الذرة كما يسمونها اليوم ـ لا تجد فيها أثرا للحياة : من الشعور ، والادراك . ومن الجماد ما تلمح فيه أمارة خفيفة من أمارات الحياة . أما النبات فان أمارات الحياة بارزة في نمائه واخضراره ، بيد أنه في درجة الصفر من حيث الشعور

والادراك . بينما نجد في الحيوان - مع الاحساس والشعور - ارادة قوية تحمله على الحركة : في القعود ، والنهوض ، والمشي . وللانسان إحساس تام ، وادراك كامل ، وإرادة بالغة ، وعزيمة ماضية . والى هذه القوى الانسانية - من شعور تام وإدراك كامل وإرادة قوية وعزيمة صارمة - يرجع تكليف الانسان ، ومن جراء ذلك قد حمل أثقال الفرائض واعباء الواجبات . وكلما كان نوع من أنواع المخلوقات أقلّ نصيبا من هذه القوى الموهوبة له من الله ، كان أخف عبئا في المسئوليات ، وأقلّ واجبات في مناط التكليف . فالجماد ليس عليه واجب قط ، والنبات قد نال نصيبا من صفات الحياة فأصابه حظ من الواجبات ، أما الحيوان فأكثر حظا وأوفر نصيبا من الجماد والنبات في القوى الحيوية ، فثقلت عليه أعباؤه من واجبات الحياة وتكاليفها . ولما كان نصيب الانسان من العقل والمدارك ، ومن الذكاء والفطنة ، أوفى من سائر المخلوقات وأوفر ، فقد ازدادت تكاليفه وواجباته بنسبة ذلك وتتفاوت الواجبات والتكاليف بين أفراد بني الانسان بحسب تفاوتهم في مناط هذه الواجبات والتكاليف ، أعني العقل والمدارك : فالمجنون والمعتوه والأحمق والصبي لا يُطالبون بما يطالب به العاقل الفطن والعالم المثقف ولا يستطيع اولئك أن يقوموا بما يستطيع أن يقوم به هؤلاء وكل ذلك يرجع الى تفاوت القوى الباعثة على العمل : بين شعور ناقص أو احساس كامل ، وخمود الطبيعة أو توقد القريحة . بل منهم من لا يكلف بواجب قط ، ومنهم من يكلف ببعض الواجبات دون بعضها الآخر ، ومنهم من يضطلع بالعبء الأعظم من الواجبات والتكاليف .

ثم اذا تأملنا المخلوقات وأنعمنا النظر فيها يبدو لنا أنه مهما يكن عند مخلوق من شعور ناقص أو احساس ضعيف أو ادراك ضئيل ، فان القدرة الالهية قد تتولى تربيته وترعى نشأته وتختصه بعنايتها ، حتى إذا امتازت

صفاته وارتقت مميزاته فوّضت اليه الفطرة من أمر نفسه ما تحتمله قواه وتستحقه مواهبه . أليس من مواهب الله لبعض أصناف الحجر أن تتحول في جبالها ومعادنها إلى ياقوت وزمرد ، وصار لها هذا البريق الذي تتلألأ به أحجارها بينما باتت الأحجار الاخرى المجاورة للياقوت والزمرد محرومة هذا الجمال الذي يأخذ بالعيون والصفات التي تحير الألباب . .ومن ذا الذي يغذو الحيتان في أعماق البحار ، والحيوانات في الآجام والصحاري القاحلة ؟ ومن ذا الذي يشفي الحيوان إذا مرض ، ويقيه عوادي الحرّ والقرّ في شهور القيظ وليالي الشتاء ؟

من جراء ذلك نرى هذا الاختلاف البادي في صور أفراد نوع واحد من الحيوان ، وهو يرجع الى عوامل مختلفة : من برودة الجو ، وحرارة البيئة ، وطبيعة المناخ . فالكلب الأوربي يختلف عن الكلب الافريقي بقدر ما بين بلاديهما من اختلاف في الجو والبيئة ، فتختلف بسبب ذلك حاجاتهما ، وتتباين لوازم حياتهما . وقد هيأت الفطرة الالهية لكل منهما أسباب العيش ولوازم الحياة التي تلائم طبعه وتقضي بها حاجاته . فللكلب الأوربي ما ليس لأخيه الكلب الافريقي من الفروُ الأثيث الصافي . وهكذا ترى الفرق جليا بين الحيوانات الشرقية والحيوانات الغربية في فرائها وشعورها وأوبارها وبراثنها ومخالبها وأظفارها ، بل ترى الفرق أوضح واجلى في سحنها ووجوهها وهيئات جلودها . ومردّ ذلك إلى حكمة خالقها الحكيم المدبر ، العليم بكل مخلوق وما يحتاج اليه في غذائه وبقائه ولوازم حياته .

لقد تبين مما تقدم ان الخالق القيوم جل جلاله تكفل بحاجات مخلوقاته المسلوبة الاحساس والشعور ، وأن المخلوقات التي رزقت الشعور والاحساس قد وكلت اليها الفطرة الالهية أمر السعي لتحصيل حاجاتها

على قدر ما هي حاصلة عليه من الاستعداد الفطري لذلك ؛ فالانسان مكلف بالسعي في أسباب رزقه ومتاع حياته ، وهو يلقى من التعب والعناء ما يلقى في التجارة والزراعة والصناعة وغير ذلك من وسائل الكسب . وليس لجسم الانسان من الفرو الصافي والجلد المتين ما يدفع عنه عوادي البرد القارس والحر اللافح ، لذلك هو مضطر الى أن يعد بنفسه ما يقي جسمه حرارة القيظ ولوافح السموم ، وبرودة الشتاء وسوافع الزمهرير ، فيصنع مختلف الثياب المناسبة لكل جو ، ويعالج ما يصاب به من أمراض بما هداه اليه ادراكه من عقاقير وأدوية ووسائل .

ومن كان من المخلوقات أقل نصيبا من الادراك ، وأضعف حيلة في الحصول على متع الحياة واسباب العيش ، تداركته الفطرة الالهية فمنحته في نفسه وجسمه من أسباب الوقاية وأسلحة الجوارح ما يدفع عن نفسه عادية الكون ومخلوقاته ويسرت له به سبل العيش : فمن الحيوانات ما وهبه الخلاق العظيم مخالب قاطعة وبراثن مرهفة ، ومنها المسلح في فمه بأسنان مفترسة ، ومنها ذوات القرون ، وذوات الأجنحة ، والسوابح في اليم ، والمدافعة عن كيانها بالحمة السامة ، إلى غير ذلك من الاسلحة والجوارح التي عوض الله بها لبعض خلقه عما فقده من نعمة العقل ونور البصيرة ومذاهب الرأي . أما الانسان المجرد من مثل خرطوم الفيل ، وقرن الثور ، وسم الافعى ، وحمة العقرب وسائر أسلحة الدواب والهوام ، فكان لذلك أعزل ضعيفا ، إلا انه قد أوتي من العقل الكامل ، والشعور الشامل ، والحس المرهف ، والفهم الثاقب ، والبصيرة النافذة ، ما لم يؤت أحد من خلق الله مثله . وهذه المواهب التي امتاز الانسان بها على سائر المخلوقات تغنيه عما فقده من القوى الجسمية التي امتازت عليه بها الحيوانات القوية ، فاستطاع أن يسخر الفيل العظيم

الهيكل ذا الخرطوم الطويل ، وأن يستذلّ الأسد الضاري ذا البراثن الحديدية وأن يقبض على الأفعى الثائرة ، ويصيد الطيور المحلقة في جو السماء ، بل صار لا يعييه حوت في لجج البحار الزاخرة ، ولا وحش غابة كثيفة من الوحوش المفترسة الكاسرة . لأنه قد اخترع بمواهبه العقلية أسلحة فاق بها على أسلحة سائر المخلوقات مجتمعة بلا استثناء .

سادتي : لا بد لكم أن تعترفوا ـ على اختلاف اديانكم ، وتباعد أوطانكم وتنوّع نزعاتكم وافكاركم ـ بأن الانسان قد انهالت عليه الواجبات و تعددت المسؤ وليات بسبب ما امتاز به من عقل راجح ورأي حصيف وفكر ثاقب وفقه لطيف . وهذه الواجبات والمسئوليات تسمى بلغة الشرع « التكاليف » وهي موجهة اليه من ناحية قواه الظاهرة والباطنة ، وكأن الانسان قد خاطب الفطرة الالهية بلسان مواهبه وقواه أن تفرض عليه عملا ، فكان بسببها مكلفا بهذه الواجبات التي تملأ وسعه وتتناسب مع طاقته ، قال الله عزّ وجل (لا يكلف الله نفسا الا وسعها) (البقرة ٢٨٦) . وعبر سبحانه عن هذا التكليف بالأمانة في قوله (إنّا عَرَضْنَا الأمانةَ على السماوات والأرض والجبالِ فَأبَيْنَ أن يَحْمِلْنَها وأشْفَقْنَ منها وحملها الانسانُ إنّه كانَ ظلوماً جَهولا) (الأحزاب ٧٢) . ولا يتصف بالظلم والجهل إلا المكلف بالعدل والعلم ، والظلم والجهل من نعوت الانسان لا ينعت بهما غيره ، لأنه لم يكلف بالعدل والعلم إلا هو . فهاتان الصفتان من صفات الانسان : الأولى ضد العدل ، والأخرى ضد العلم . وذلك لا يوجد إلا في الانسان ، فالظلم تعدّي الانسان حدوده واستعماله قوته الظاهرة العاملة في غير محلها . والجهل نقص يتطرق الى الانسان من جهة قواه العلمية . والظلوم يقابله العادل والجهول يضادّه العالم . والعدل والعلم يتصف الانسان بهما بالقوة لا بالفعل ، فيحتاج

الى العدل لتكميل قوته العملية ، والى العلم والمعرفة لتكميل قوته العلمية . والقرآن الحكيم قد يسمي العدل بالعمل الصالح ، والعلم بالايمان . قال الله عز وجل : (والعصرِ ، إنّ الإنْسانَ لفي خُسرْ ، إلا الذينَ آمنوا وَعَمِلوا الصالحاتِ) فمن لم يعمل صالحا فقد ظلم نفسه ، ومن لم يؤمن بالله فقد جهل . ولا ينجو من الخسران إلا من آمن وعمل صالحا . وقد أشهد الله الزمان على خسران الانسان . ومن الظاهر البين أن المراد بالزمان الحوادث التي حدثت فيه منذ بدء العالم ، وقد صدق كارليل في وصفه التاريخ بأنه « سجل لأعمال العظماء وسيرهم » ، وتاريخ العالم أصدق شاهد على ان كل أمة لم تؤمن بالله ولم تعمل صالحا بأنها قد خسرت وهلكت ، وكذلك الأفراد الذين لم يؤمنوا بالله ولم يعملوا صالحا أنهم قد خسروا وهلكوا . والصحف السماوية والأسفار القديمة ملأى بأن الظلم والجهل ما وجدا في بيئة إلا جرّا عليها الخراب والدمار ، والعدل والعمل الصالح ما وجدا في أمة إلا نتج عنهما الحياة والعمران . وتقص عليك هذه الكتب وغيرها أنباء الذين آمنوا وعملوا الصالحات كيف افلحوا وعمروا الدنيا ، وأخبار الذين طغوا وبغوا كيف بادوا وهلكوا وذهبوا أحاديث تروى ، وتفرقوا أيدي سبا ، فلم يبق لهم إلا اثر بعد عين . وتثني هذه الكتب على الذين قاموا احسن قيام بالواجبات المكلفين بها من قبل فطرتهم فأدوا ما عليهم منها خير أداء ، كما تذم الذين اهملوا فرائضهم ونبذوها وراء ظهورهم . وحتى الالياذة والشاهنامه ومهابهارته وراماثن وغيتا ، كل هذه الأسفار ، تقص علينا أخبار الأمم الذين خلوا من قبل ، وتحدثنا بما وقع من القتال بين الظالمين والعادلين ، وبين الكافرين والمؤمنين ، وفي ذلك عبرة لأولي الأبصار ممن يعتبرون بتجارب الأمم فينتهون عن الظلم والشر ، ويرتدعون عن الكفر والشرك ، ويقيمون الحق ويتواصون بالخير ويعملون صالحا .

أليست سور القرآن الحكيم وأسفار التوراة والانجيل ملأى بالقصص مسجلة بأن كل أمة آمنت وعملت صالحا وعدلت في الحكم وجاءت بالحسنة قد أفلحت ونجت وسعدت ، وكل أمة ظلمت وكفرت بأنعم الله وركبت هواها وعدت طورها وتعدّت الحدود الفطرية قد هلكت وانقرضت دولتها وتقوّض صرح مجدها . ان في بعض آيات كتاب الله قصة لمؤمن عادل صالح ، وفي البعض الآخر منها قصة لظالم طاغ : كل ذلك ليرتدع الطاغية عن طغيانه ، ويكف الفاسق عن الفسق ، وينتهي الظالم عن الظلم والبغي ، فيعودوا جميعا الى الرشد ويكونوا عادلين مؤمنين صالحين .

لأجل ذلك بعث الله الأنبياء والرسل - قبل محمد ﷺ - الى كل بلد ، بل الى كل قرية ، ليكونوا بسيرتهم الصالحة المستقيمة أسوة لأممهم ، فتتبع الشعوب التي بعثوا اليها السنن التي يسنونها لأفرادهم وجماعاتهم فيستقيموا ويفلحوا جميعا ، أو تهتدي بهدي الأنبياء والرسل طوائف من قومهم على الأقل فيواصلوا الدعوة ويسيروا في طريق الحق . وقد بعث الله الى الانسانية خاتم رسله محمدا ﷺ بشيرا للناس كافة ونذيرا ، وداعيا الى الله باذنه ورحمة للعالمين ، لتكون لهم فيه أسوة ، ويكون لهم من حياته الشريفة قدوة ، ثم يكون مثلا أعلى للذين يأتون بعده الى أن تقوم الساعة . وقد جاء في القرآن الكريم على لسان نبيه ﷺ (فقد لَبِثْتُ فيكم عُمرا من قبله ، أفلا تعقلون) (يونس ١٦) ، وذلك أن الرسول ﷺ ولد فيهم ، وترعرع بينهم ، ونشأ أمام أعينهم ، وعاش بين ظهرانيهم برهة من الدهر قبل بعثته ، فعرفوا أخلاقه كل المعرفة ، وجرّبوا عاداته وأعماله ، فهو لم يكن فيهم غريبا ولا خاملا ولا مجهول الأحوال . والوحي الإلهي في هذه الآية يقدم حياة الرسول وسيرته الطاهرة قبل البعثة

دليلا على نبوته ﷺ وأن رسالته هي من عند الله العظيم ليؤ من به العرب ويصدقوه فيما يخبر به أو يدعو اليه ، فانهم قد علموا مصبحه وممساه ، واختبروا أخلاقه وعاداته من صباه ونعومة أظافره الى أن شب واكتهل وأعلن نبوته وخرج الى الناس يدعوهم برسالة الاسلام .

لقد مضى في سالف الأيام كثير من العظماء دعوا الناس الى ان يقتدوا بأخلاقهم وأعمالهم ، منهم ملوك جبابرة عاشوا في قصورهم الشامخة بين ندمائهم وجلسائهم وملأوا القلوب مهابة وجلالة ، ومنهم قادة جيوش عاشوا بين ضباطهم وجنودهم يرهبون الناس ويخيفونهم بشدة بأسهم وضخامة أجسامهم ورواء هندامهم ، ومنهم حكماء وفلاسفة كانوا إذا نطقوا أبانوا ، واذا خطبوا ابدعوا ونشروا من دُرَر الحكمة ما شاءت بلاغتهم وطلاقة ألسنتهم ، فملكوا القلوب وبهروا النفوس . وترى بجانب هؤ لاء طائفة الشعراء ممن اذا أنشدوا أطربوا ، وإذا رتلت أناشيدهم غلبوا السامعين على أهوائهم ولعبوا بالقلوب كيف شاؤوا .
وقد خلا كثير من الفاتحين الذين دوخوا البلاد واستولوا على الممالك ، كما مرَّ في مواكب التاريخ كثير من المثرين والأغنياء الذين كانت أقدامهم تطأ البسط الناعمة والزرابي الوثيرة ويمشون على الحرير الفاخر والاستبرق الزاهر ، اكتنزوا القناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، واسترعوا أنظار بني آدم بما كانوا فيه من ترف وعظمة وسعة . وقد كان هنيبعل القرطاجني والإسكندر المقدوني وقيصر الروم ودارا الفارسي ونابليون الفرنسي يملأ كل منهم عيون بني آدم بعظمته وأحداث حياته ومختلف أعماله ، وكذلك نجد سقراط وافلاطون وديوجنس وغيرهم من حكماء اليونان وغير اليونان مثل سبنسر وأضرابه تجتذب سيرتهم النفوس وتروق القلوب ، وان اختلفت مظاهر عظمتهم عن مظاهر عظمة الأخرين ممن ذكرت أسماءهم قبلهم .

فهل ترى في حياة هؤلاء وأولئك ما يضمن فلاح بني آدم ؟ ومن منهم تؤدي سيرته ودعوته الى صلاح الانسانية وسعادتها ؟

إن في هؤلاء وأولئك لقادة فتحوا البلاد ودوّخوا الممالك واقتحموا أقصى الأرض وادناها ، وذللوا ما اعترض سبيلهم من صعاب ، وسخروا الملوك بظبي سيوفهم . ولكن من منهم ترك لمن أتى بعده أسوة يأتسي بها في تعميم الخير ، ومن منهم إذا اهتدى الناس بهديه ينجون من المهالك ويسلكون سبيل السعادة والهناء ؟ ومن من هؤلاء استعملوا سيوفهم البواتر في قطع حبائل العقائد الفاسدة ، وتخليص العقول من الأوهام الواهية والافكار الباطلة ؟ ومن منهم وقف حياته على حل معضلات بني آدم ، وكان حريصا على عقد أواصر الاخاء بينهم على الحق والتواصي في الخير ؟ وهل يوجد في حياة من ذكرنا من هؤلاء العظماء ما يستعين به بنو الانسان على تخفيف ما يعانونه من الغمرات في حياتهم الاجتماعية ؟ أم في أخلاقهم وأعمالهم ما ييسر للانسانية الشفاء من أمراضها الخلقية وأوصابها النفسية ؟ أم في دعوتهم ما يجلو صدأ القلوب ورينها ، أو يرتق فتقا في الحياة الاجتماعية ؟

لا شك أن الشعراء نالوا إعجاب الناس باناشيدهم الرنانة ، وملكوا النفوس وتصرفوا فيها بشعرهم البليغ وقصائدهم الغر . ولكن هل نفعوا الانسانية وهم يهيمون في أودية الخيال ؟ كلا ، ولذلك لم يكن لهم في جمهورية افلاطون نصيب ولا منصب . والشعراء - من هوميروس إلى امرىء القيس فمن بعده من شعراء الأمم - لم يكن منهم إلا اثارة كامن العواطف وتنبيه النائم من الأفكار ، أو إحداث لذة أو الم في النفوس . ولا ينتظر منهم أن يحلوا معضلات الحياة الانسانية ، وعويصات مشاكلها . وبسبب ذلك أنهم في سيرتهم وأعمالهم لا يقدمون للناس المثل

التي تحتذى ، والأسوة التي يقتدى بهم فيها . ولقد وصفهم القرآن الكريم الحكيم أصدق وصف عندما ذكر سيرتهم بقوله (والشعراءُ يَتبعُهُم الغاوونَ ، ألَم تَرَ أنهُم في كُلّ وادٍ يهيمُونَ ، وأنّهم يقولون ما لا يَفْعَلُونَ ، إلاّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات) « الشعراء ٢٢٤ ـ ٢٢٧ » . وبهذا سجل القرآن الحكيم على الشعراء انهم لا يؤ ثرون بشعرهم اللطيف الحلو على المجتمع البشري ، لأنهم يهيمون في أودية الأفكار والعواطف بلا إيمان ولا عمل صالح ، ولو اجتمعت لهم هاتان الخصلتان ـ الايمان والعمل الصالح ـ لكان لشعرهم اثر بارز في المجتمع البشري وعلى كل فانهم ليسوا من الاصلاح في شيء ، ولا الاصلاح من شأنهم ، ولذلك لا يقدرون على القيام بمهمة اصلاح العالم ، وقيادة الناس الى الرشاد الكامل والفلاح الشامل ، ويشهد على صدق هذه الحقيقة تاريخ الامم في غابرها وحاضرها .

وكذلك نرى الفلاسفة والحكماء بهروا عقول الناس بفلسفتهم ، وحاولوا تغيير تيار الحياة البشرية فعرضوا على الناس من طريف الافكار ومستحدث النظريات ما حير العقول وأدهش النفوس لكنهم لم يقدموا للناس من سيرتهم أسوة يُؤتسى بها ، ولا أناروا ظلمات الحياة بقبس من أعمالهم تتضح به مشاكل الإنسانية فتتمكن من حل معضلاتها . وهذا أرسطو قد وضع في فلسفة الأخلاق قوانين أسس بنيانها ووطد اركانها ، ولا تزال الجامعات وأساتذتها عاكفين على دراستها : يلقون المحاضرات على طلبتهم في فلسفته ، ونسمعهم يثنون على ثقوب فكره وبعد نظره وحصافة رأيه ورجاحة عقله ، ولكننا ـ والحق يقال ـ لم نجد رجلا اهتدى بدراسة فلسفة أرسطو أو وصل بها الى السعادة المنشودة .

وكذلك نرى في الكليات أفاضل من العلماء وفحول الاساتذة

والمدرسين يعجب الطلبة فصيح كلامهم وبراعة بيانهم وبليغ حوارهم وعذب حديثهم ، وهم يؤثرون فيهم بذلاقة السنتهم ، واتساق أفكارهم ، وترتيب معانيهم . لكنهم لا تعدو محاضراتهم جدران كلياتهم وقاعات محاضراتهم ، وإذا خرجوا منها أصبحوا كعامة الناس لا يمتازون عليهم بعمل تتخذه الانسانية مثالا يحتذى ، ولا بخلق يختلفون به عن غيرهم هديا وسمتا .

لقد رأينا على مسرح العالم كثيرا من الملوك الجبابرة الذين حكموا العالم واستولوا على الممالك ، واستعبدوا الأمم . وكم من أرض عمروها ، ومدينة دمروها ، وكم وضعوا شعوبا ورفعوا آخرين ، وكم سلبوا ومنحوا ، وضروا ونفعوا فكانوا في سيرتهم كما قال الله عز وجل على لسان ملكة سبأ (إن الملوكَ إذا دخلوا قريةً أفسَدُوها وَجَعَلوا أعزّة أهْلها أذِلّةً) « النمل ٣٤ » . نعم إن السيوف البواتر في ايدي بعض الملوك قد قذفت الرعب في قلوب المجرمين فكفوا عن اقتراف الجرائم علانية وفي وضح النهار مستترين وراء مكامن الريب أو قابعين في بيوتهم . لكن سيوف الملوك عجزت عن أن تستل الرذائل من قلوب أهلها ، وأن تحسم مادة الشر في نفوسهم ، وأن تطهر صدورهم من فساد السرائر ، ذلك الفساد الذي يحمل أهله على ارتكاب المعاصي واقتراف السيئات . وأقصى ما يترتب على رهبة المجرمين والمرجفين من سيف الملوك المسلط عليهم أن يسود الأمن والسلام سبل البلاد وأسواق المدن وشوارعها وحاراتها ، أما إصلاح القلوب وتهذيب النفوس فمما يخرج عن سلطان السيف وتعجز عنه ارادة الطغاة . بل الحق ـ والحق أحق أن يقال ـ أن رأس كل شر إنما نجم من قصور بعض الطغاة . وإن كل فساد نبت نابته في فناء حصونهم ، بل في قصورهم نبعت عيون الفواحش والجرائم ، ومن

حصونهم انفجرت ينابيع الظّلم والعدوان ، وعلى أيديهم تفاقم كل شر ،.
ومن أخلاقهم سرت العدوى إلى اخلاق الناس . ولفساد قلوبهم وسوء أعمالهم اتسع الخرق على الراقع حتى أعيا الأطباء داء المجتمع البشري .
وهل خلف لنا الاسكندر المقدوني وقيصر روما الأعظم مثالا من أعمالهما يصلح المجتمع إذا اقتدى به وسار على أثرهما فيه ؟

وهل نالت حظا من البقاء والدوام أية سنَّة سنها عظماء المفكرين للمجتمع البشري من أمثال سولون وغيره من واضعي الشرائع التي يعتبرونها عادلة قيمة ، مع أنهم أبدعوا فيها ما شاءت لهم أفكارهم الثاقبة وأنظارهم البعيدة وقرائحهم المتوقدة . ولو سأل سائل عن تلك الشرائع القيمة والقوانين العادلة كم استمرت ؟ لما استطاع أحد من اتباعهم وأنصارهم إلا ان يعترف بأن بقاءها كان قصير الأمد وأن نقادها أكثروا من نقدها ، بل شك حتى أتباعهم وأنصارهم في نصح أولئك المفكرين ونقاء سرائرهم وصفاء قلوبهم وفي اخلاصهم للانسانية وللبشر جميعا ، لأنهم لم يجدوا فيها الحياد الصادق والنصفة المحضة والعدل الصريح وبراءة الذمة من المحاباة ومن جراء ذلك نشأ بعدهم قوم آخرون نبذ حكامهم تلك الشرائع ومحوها كما يمحو المصححون أخطاء الحروف في الكتابة ، ثم شرع هؤلاء الآخرون في سن قوانين غيرها تلائم مصالحهم وتوافق مطامعهم ، فجاءت القوانين الجديدة كأختها التي سبقتها غير مراعى فيها حقوق بني آدم كلهم ومصالح الأمم بلا استثناء . وفي أيامنا هذه نرى مجالس التشريع في البلاد المتمدينة لا تفتأ تنسخ قوانين كان معمولا بها وتسن بدلا منها قوانين أخرى جديدة ، حتى صارت لكل يوم شريعة تشرع في مكان شريعة تنسخ ، وقانون يسن بدلا من قانون يلغى . كل هذا طمعا في بقاء دولة وتثبيت أركانها واستيلاء رجالها على مناصبها ورغبة

منهم في زخرف الدنيا وزينها ونعيمها ، لا تحفزهم الى ذلك مصالح الناس ولا منافع الامة كلها .

سادتي : لقد حدثتكم عن الطبقة العليا من بني آدم ، ممن يظن فيهم أنهم معقد الرجاء في إصلاح الحياة الاجتماعية وتوجيهها نحو الارشاد . وقد علمتم من أحوالهم وسيرهم كيف خابت فيهم الآمال واخفق الرجاء . والحق أن كل خير ترون له أثرا في بقعة من بقاع الأرض ، وكل نور يومض في أية أمة حتى لو كان ضئيلا ، وكل إثارة من صلاح ، أو كرم خلق ، أو صفاء سريرة وطهارة قلب ، فإن مما لا ريب فيه أن مرده في الأصل الى رسالات الله ، أي إلى هداية النبين عليهم السلام . فاذا وقعت انظاركم في بقعة من أرض الله على مظهر من مظاهر العدل يسود الناس ، أو رحمة في قلوب طائفة يتبادلونها بينهم ، أو وجدتم فئة تتعامل بالتواسي ويساعد أيسارهم ذوي فاقتهم وأقويلؤهم المظلومين منهم وأهل العافية فيهم يغيثون الملهوفين ويطعمون الايتام ويعولون الأيامى ، فاعلموا جازمين غير مرتابين بأن هذه الفضائل من آثار تعاليم تلك الطائفة الطاهرة التي تسمى « الانبياء » صلاة الله وسلامه عليهم . وذلك لأن أقطار الأرض كلها ـ على سعتها ـ قد بلغتها دعوة الانبياء وطرقت مسامع أهلها سنن هدايتهم وأحكام تشريعهم وحكمة رسالتهم ، وما من أمة الا وقد ارسل الله فيها رسله منذرين ومبشرين (وإن منْ أمةَ إلا خَلا فيها نذير) « فاطر ٢٤ » ، (ولِكُلٍّ قوم هاد) « الرعد ٧ » . ولولا الانبياء لتهارج الناس كالبهائم ، ولتهارشوا كالسباع الضواري . فحيثما رأيتم شيئا من الصلاح ، وقليلا من الخير او كثيرا منه ، فهو من تعاليمهم . وكل دعوة للحق في مكان ما من الأرض فانما هي صدى لرسالات الله . حتى الهمج في مجاهل إفريقية ، فضلا عن الأمم الغربية المتمدنة، كل

أولئك استقوا من منهل النبوات الصافي واستضاءوا بأنوار الله التي بعث بها أنبياءه ، ولا يزالون يستنيرون بهم في كل ما يسمى حقا وكل ما تدل عليه عناوين الخير .

إن الصفوة المختارة من أهل الطبقة العليا في البشر هم الذين يحكمون القلوب وتنقاد لسيادتهم النفوس . وأين هؤلاء من الملوك الذين يحكمون الجسوم ويملكون الابدان ويستولون على البلاد ؟ أولئك تجري أوامرهم وتنفذ أحكامهم حيث تخفق القلوب ، واذا كانوا لا يملكون الأسلحة التي يملكها الملوك وأمراء الأجناد ، فانهم يطهرون الأنفس من آثامها ويستأصلون الجرائم قبل وقوعها ، حين يجتثون من القلوب جذور الشرور . وإذا لم يكن لهم ما للشعراء من أناشيد يتغنى الناس بها ، فان الأمم لا تزال تستحلي كلامهم العذب ، وتستعذب حديثهم الحلو . لا ريب أنه لم يكن الرسل رؤساء المجالس التشريعية بالمعنى الحديث ، لكن سننهم وتشريعاتهم لا تزال ـ على تطاول الأيام ومضي القرون ـ نافذة بين الطوائف ، يقدسها علية الناس وسفلتهم ، وأحكامهم منقوشة على صفحات القلوب تذعن لها السوقة والملوك ، ويستسلم لها الفقراء ويخضع لها الأغنياء .

إن يد الأيام قد عبثت ـ كما يشهد التاريخ بالراجا (أشوكا) ملك (باتلي باتر) ولم تبق يد البلى من أوامره وأحكامه الا صخورا منقوشة وحجارة منحوتة . أما (بوذا) فانه لا يزال يحكم القلوب ، وسننه وقوانينه لا يزال كثير من الناس يدينون لها ويطأطئون الرؤوس لحرمتها . وان اوامر ملوك (أجين) و(هستابور) في دلهي وقنوج أمست أثرا بعد عين ، بل درست آثارهم وعفت أعلامهم وأصبحت ديارهم كأطلال خولة ، أما

(دهرم شاستر) وهو كتاب العقائد الذي جاء به (مِنـو) فلا زال باقيا نافذا أمره .

والملك (حمورابي) من ملـوك بابـل كان أول من سن القوانـين ، ولكن أين أوامره وأحكامه ؟ لقد نسجت عليهـا العنكبـوت منـذ زمـان طويل ، ولم تدع يد البلى من قوانينه وأحكامه شيئا . اما تعاليم نبي الله ابراهيم عليه السلام فما برحت غضة طرية .

وأين فرعون ودعواه (أنا رَبُّكم الأعلى) ؟ لقد أصبحت أضحوكة ! أما نبي الله موسى عليه السلام فانه يسود نوازع القلوب ، ويملك أهواء النفوس ، ويدين له كثير من الناس ، وتسلم لأياته وبيناته طوائف غير قليلة .

وقوانين سولون زال العمل بها وشيكا ، بينما التوراة المنزلة من السماء لا تنفك أحكامها وقوانينها قسطاس العدل وميزان النصفة .

والقانون الروماني الذي عدَّ عيسى عليه السلام جانيا مجرما بمقتضى أحكامه ، واعتبره قد اجترح السوء وأتى ذنبا ، قد خلت القرون تسفيه برياحها فاصبح هشيما مضمحلا . أما عيسى عليه السلام فان تعليمه لا يزال نورا تجلى به ظلمات القلوب ، وهدى تطهر به نفـوس المذنبـين ، وتزكى به أرواح المجرمين .

وأين أبو جهل وكبرياؤه ، وأين كسرى الفرس ودولتـه وجبروتـه ، وأين قيصر الـروم وحكومتـه وطغيانــه ؟ كل أولئــك قد طوى الدهــر صحائفهم ، وطمست الاقدار دولهم ، وتهدم مجدهــم ، وذهبـوا ادراج الرياح . أما محمد رسول الله ﷺ فان حكمه ما زال وسيبقـى باقيا على الدهر ، وأوامره نافذة وسنته متبعة في كل زمان ومكان .

سادتي وأصدقائي : أظنكم قد استمعتم لما ألقيت عليكم من الأدلة العقلية والبراهين التاريخية ، واخالها قد تركت فيكم اثرا أورث في قلوبكم يقينا بأنه لم تكن طائفة من الناس أصلحت من فساد الأخلاق وقومت من عوجها ، وهذبت النفوس وهدتها من ضلال البشر مثل الذي قام به الانبياء عليهم السلام ، فهم الذين أصلحوا الحياة الاجتماعية ، وعلموا الناس الاقتصاد في المعيشة ، والاعتدال في كل شيء . وهم الذين أقاموا العدل في الدنيا ، وحكموا بالقسط بين الناس ، وزكوا القلوب ، وأخذوا بيد الانسانية الى الحق والخير وأنقذوها من حمأة الرذائل . وإن الله سبحانه قد بعثهم ليخرجوا الناس من الظلمات - ظلمات العقائد ، وظلمات الأخلاق ، وظلمات الأعمال - إلى النور : نور الايمان ، ونور الخلق الكريم ، ونور العمل الصالح . وتركوا بعدهم سنة للناس يتبعها السوقة ويعمل بها الملوك ، وينتفع بها صغار الناس وكبارهم ، ويتمتع بخيراتها الاغنياء والبؤساء على السواء . وإن مثل الأسوة بهم كمثل عين ثرّة فياضة تروي البلاد وتسقي العباد ، يشرب منها كل عطشان بقدر حاجته ، ويرتوي بمائها العذب الزلال كل ظمآن فينقع غلته (وتلكَ حُجَّتُنَا آتيْناها إبراهيمَ على قَوْمِه ، نرْفع دَرجاتٍ مَنْ نشاءُ إن ربّك حكيم عليم .وَوَهَبْنا له إسحاقَ ويعقوب كُلاًّ هَدَيْنا ونوحاً هَدَيْنا مِنْ قبلُ ومنْ ذُرّيتهِ داودَ وسليمان وأيوبَ ويوسفَ وموسى وهارونَ ، وكذلك نجزي المحسنين . وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كلٌّ من الصالحين وإسماعيلَ واليسعَ ويونس ولوطاً ، وكُلاًّ فَضَّلْنَا على العالمين . ومِنْ آبائهم وذرّياتهم وإخوانِهم ، واجتبيناهم وهدّيناهم الى صراط مستقيم . ذلك هدى الله يهدي به منْ يشاءُ من عباده ، ولوْ أشركُوا لَحَبِطَ عنهم ما كانوا يعملون . أولئكَ الذينَ آتيناهُمُ الكتابَ والحكم والنبُوّة ، فإن يكفُر بها هؤلاء فقد وكّلنا بها قوماً ليسوا بها

بكافرين . أولئك الذين هدى الله فبهُداهم اقتده) « الأنعام ٨٣ - ٩٠ » .

ترون في هذه الآيات ذكر طائفة خاصة ، وسمي فيها بعض الذين بعثهم الله لهداية الناس ، وفوّض اليهم أمر اصلاح المجتمع : فهم الشفاء لمرضى القلوب ، وبهم البرء لسقام النفوس ، وهم هداة الغاوين ، الآخذون على أيدي الطغاة ، والمرشدون لأهل البغي . والناهون عن المنكرات . وهم الطائفة المقدسة التي عم هديها وجاد غيثها جميع أنحاء المعمورة ، فاستضاء الناس كلهم بنور هؤلاء الرسل في مختلف الأزمنة وشتى العصور . وإن الذي نراه في الامم من الخير والصلاح وكرم الخلق وحسن العمل وطهارة السيرة وعلو النفس وزكاء الروح ونزاهة القلب ، إنما هو قطرة من بحر تعاليم الأنبياء عليهم السلام ، ولمحة من جمال شرائعهم ، وأثارة من بركات سيرتهم . وإن الانسانية القلقة المتألمة لا تزال تفتقد آثارهم ، وتحرص على اتباع سننهم ، ليذهب بذلك روعها ، ويطمئن قلبها ، فتقر الحياة الاجتماعية وتجد بعض راحتها . ولو أن الناس اتبعوا سنن الانبياء واستقاموا على الطريق الذي دلوهم عليه لساد الوئام بين الامم ، وعم السلام في العالمين .

لقد كان الانبياء جميعا على خلق عظيم ، وقد أوتوا من حميد الخصال ومعالي الأخلاق ما لم يؤت أحد غيرهم مثله . غير ان منهم من تجلى فيه خلق من الاخلاق فكان فيه أبرز من غيره وأظهر ، فنبي الله نوح كان متحمسا في تبليغ الدين ، وابراهيم كان شديد العناية بأمر التوحيد وورثه في ذلك إسحاق ، وحبب الايثار الى اسماعيل ، وجاهد موسى جهادا عظيما وآزره في الحق أخوه هارون ، وظهرت الانابة والاعتراف بالخطأ في يونس ، وكان لوط مجاهدا ، وغلب على يعقوب التسليم والرضا بأمر

الله ، وكان داود يرثي للحق وخذلانه ، وامتلأ قلب سليمان بالحكمة ، وكان زكريا متعبدا ، وتجلى في يحيى العفاف وطهارة النفس ، أما عيسى فكان مظهر الزهد في الدنيا والرغبة عن زهرتها ، وكان أيوب صبورا على الآلام . وهذه الخصال العالية والاخلاق الفاضلة هي التي يتشرف بها العالم ، وتسعى الأمم للتحلي بها ، وحيثما وجدتم من هذه الخصال الحميدة والفضائل النبيلة أثرا فكونوا على يقين بأنها من نفثات أولئك الأنبياء ومن آثار تعليمهم .

إن تقدم المدنية الصالحة ، وتوفير عوامل الهناء والرغد للناس ، وبلوغ الانسانية مقام الشرف ، قد ساهمت فيه جميع الطوائف التي اشتركت في عمارة العالم : فعلماء الهيئة اكتشفوا للناس نظام سير الكواكب ، والحكماء دلوا على خواص الاعمال وتأثيرها في الاخلاق ، ووصف الاطباء النطاسيون خواص العقاقير وتأثير الأدوية في الأدواء ، وتفنن المهندسون في تشييد المباني ومرافقها وإقامة القصور ومعالمها وعقدوا على الأنهار القناطر والجسور واتسع أهل الصناعات في تنويعها واتقانها وتيسير الأعمال للعمال ، فكان من مجموع هذه الجهود عمارة الأرض ، ولكل فريق من أصحاب هذه الجهود يد في اكتمال المدنية وتقدم الحضارة ، ونحن نذكر لهم ذلك بالثناء والشكر ، غير اننا لا نستطيع ان ننسى أن أنبياء الله وحملة رسالاته هم الذين غمرونا بالمنن العظمى لأنهم عملوا لاصلاح فساد القلوب ، واستئصال كوامن الشرور ، وتطهير النفوس وتزكيتها من الأهواء الفاسدة والاطماع السافلة والميول المهلكة ، فنهجوا بذلك منهج السعادة للحياة الاجتماعية ، وبينوا للناس ما تعلو به نفوسهم وما تسفل به ، وما تكون به شريفة أو منحطة ، فكملت الثقافة الانسانية برسالاتهم ، وبلغت الحضارة بذلك مبلغ الكمال ، وتيسر

للمجتمع البشري أن يكون صالحا اذا شاء ، وقد أصبح من المتعارف عند الناس أن الاخلاق الفاضلة والسيرة الطاهرة هي شرف الانسانية ومجدها ، ومكارم الاخلاق ومحاسن العوائد أصل الانسانية وجوهرها .

وبتعاليم الانبياء توثقت العلاقة بين الخلق وخالقه ، وحسنت الرابطة بين العبد ومولاه ، فتذكر الانسان عهده الأزلي الذي أخذه على نفسه لربه . ولولا الانبياء وتعاليمهم وتجليتهم أسرار النفوس وكشفهم عن غرائز الفطرة الانسانية وما يسعد به المرء أو يشقى ، لم تبلغ الانسانية ما بلغته . ولذلك كانت الانسانية مثقلة بمنن الرسل سلام الله عليهم ، فان لهم علينا من الأيادي البيضاء ما لا كفاء له . ومن عرف هذا عرف معه ما يجب لأنبياء الله جميعا من الشكر العظيم على كل فرد من أفراد البشر مهما كانت الطائفة التي تنتسب اليها ، وهذا الشكر هو الذي نعبر عنه نحن المسلمين بالصلاة عليهم والتسليم (لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أحدٍ مِنْ رُسُلِهِ) ونجهر بذلك ونعلنه كلما سمي الانبياء عليهم الصلاة والسلام .

أيها السادة : إن هؤلاء الانبياء بعثوا في أعصار خاصة ، فبلغوا رسالات الله ، ثم مضوا ، ولا بقاء لشيء في هذه الدنيا الفانية ، وإن سيرهم مهما تكن طاهرة مقدسة فانه لم يتح لها البقاء والدوام ، لأن يد الايام قد عبثت بها كما تعبث بكل جديد فتحيله قديما ، ثم تجعله رمادا تذروه الرياح . ومن المعلوم ان الذي يبقى لمن يأتي بعدهم من بني آدم هو المكتوب فيه سيرهم وهديهم ، وهو الذي يصف حياتهم ويمثل أخلاقهم . والكتابة هي التي تحصي الاعمال والاخلاق وتعصمها من أيدي البلى ، ولولاها لم تصل الينا علوم القرون الخالية وحكمتها ، وفنون الامم الماضية وأفكارها ، وشئون الاقوام السالفة وأخبارها وما التاريخ إلا سير الرجال وشئون الحياة الانسانية مما حفظته الكتابة وصانته من يد الضياع .

وان لحياة الانسان نواحي شتى ، ومن المحتمل أن يعتبر الانسان - في ناحية من نواحي حياته - بكل حادثة حدثت فيما مضى ، لكن حياة الانسان الخلقية والروحانية لا تكمل كمالها ولا تبلغ مرادها ولا تزكو زكاءها إلا بسنن الانبياء وهديهم واقتفاء آثارهم والتخلق بأخلاقهم ، ولن يذهب ظمأ الانسانية فتروي غلتها إلا بمنهل من سلسبيل هؤلاء الرسل ، ولا يرجى خير العالم وصلاحه الا اذا عمل أهله الأعمال التي هدى اليها الانبياء ودعوا اليها وحضوا عليها . لاجل ذلك كان أهم الفرائض على أبناء الانسانية حفظ سيرهم ، وإحصاء اخلاقهم ، لتبلغ مبلغ الكمال وتزكو زكاءها .

إن نظرية مهما تبلغ من الصحة ودقة الفكر ، وإن تعليما مهما يكن رائعاً ويقع من الناس موقع الاعجاب ، وإن هداية مهما تجمع من صنوف الخير ، كل أولئك لا يغني غناء ولا يثمر ثمرة ولا يبقى على الدهر الا اذا كان له من يمثله بعمله ويدعو اليه بأخلاقه وفضائله ، ويعرفه الى الناس بالقدوة والاسوة ، فيقتدي الناس بدعاته من طريق العمل بعد العلم ، معجبين بسجايا هؤلاء الدعاة معظمين لأخلاقهم مكرمين طهارة قلوبهم وزكاء نفوسهم وسجاجة أخلاقهم ورجاحة عقولهم وحصافة آرائهم وسداد أفكارهم . وأقصُّ عليكم قصة : إن الباخرة (كروكوديا) التي ركبناها في عودتنا من مصر والحجاز في أوائل شهر رجب سنة ١٣٤٢ (شباط ١٩٢٤) اجتمعنا فيها عرضا بالدكتور طاغور الشاعر الذائع الصيت ، وكان قافلا من سياحته في أمريكا ، فسأله بعض رفقته : « ما بال نحلة (برهمو سماج) أخفقت في مساعيها ولم تنجح ، مع أنها انصفت الأديان ، وجمعت الحسنات ، وسالمت جميع الملل ، ومن مبادئها وأصولها أن الديانات كلها على حق ، وأن جميع المصلحين من الأنبياء

والرسل والهداة هم خيار الناس وصلحاؤهم ، ثم انها ليس فيها ما يخالف العقل أو يعارض المدنية الحاضرة أو يناوىء الفلسفة الحديثة ، وصاحب هذه النحلة قد راعى فيها الظروف الراهنة والشئون المألوفة الآن ، ومع ذلك كله لم تنل من الفوز شيئا ولم يتح لها من النجاح قليل ولا كثير؟! » وقد أحسن الشاعر في جوابه على هذا السؤال كل الاحسان إذ قال : « إن النحلة لم يكن لها داعية يدعو الناس اليها بسيرته الكاملة وهديه العالي ، ولم يكن لها لسان يدعو مؤيدا بعمل يصدقه فتهوى اليه أفئدة الناس وتطمح اليه ابصارهم ويكون لهم من الدعاة أسوة يأتسون بها وقدوة يقتدون بها » . وكلام طاغور هذا يدل على أن الدين لا ينجح ويعلو وينتشر إلا بسيرة النبي الذي بعث به وبما عرفه الناس عنه في شئون حياته وفي أخلاقه وأعماله . وبالجملة ان الجنس الانساني يحتاج أشد الحاجة - في بلوغه الكمال وسلوكه سبيل الرشاد - الى هداة ودعاة طهرت حياتهم وزكت نفوسهم وصفت قلوبهم من وصمات الذنوب وشبهات الآثام ، وتكون سيرهم كاملة في كل ناحية من نواحي الحياة الانسانية ، ولم يجتمع ذلك إلا في أنبياء الله صلوات الله عليهم وسلامه .

* * *

المحاضرة الثانية

في أن سيرة محمد صلى الله عليه وسلم هي العامة لجميع الأمم وهي الخالدة

سادتي . هذا اليوم هو اليوم الثاني لحفلتنا هذه . وليكن ما سلف في اليوم الأول على ذكر منكم . وخلاصة ما ذكرت أمس ان ظلمات الايام المقبلة لا تنجلي إلا بنور من مضى من طوائف المصلحين الذين أحسنوا الى الانسانية أي احسان ، ولهم جميعا علينا الشكر الجميل ، ونخصُّ منهم الانبياء ، فانهم أسدوا الى البشر من الجميل ما لم تسده طائفة من المصلحين ، فيجب علينا أن نضاعف الشكر لهم ونعترف بجميلهم واحسانهم ، إذ أن كل واحد منهم قدم لأمته من سيرته الطاهرة وخلقه العظيم وهديه العالي ما كانت به الاسوة الكاملة التي لا تتأتى من غيره : فمنهم من صبر على الرزايا والنوائب والآلام أعظم صبر وأكمله ، فكان أسوة للصابرين في الضراء والشدّة . ومن سيرة بعضهم خلق الايثار ، فكان إيثاره مثالا لأمته . ومنهم من اختار مرضاة الله مقدّما نفسه قربانا واضحية ، فكان المثل الأعلى لأمته في إيثار مرضاة الله حتى على بقاء مهجته وحفظ حياته .

لقد ظهر للناس في سيرة الذين حملوا رسالات الله عند تبليغهم عقيدة التوحيد الالهي ما كان موضع العجب من العزيمة والحمية والتسليم لأمر الله والعفة عن المنهيات والزهد في زهرة الحياة الدنيا ، وما كان ولا يزال مثلا أعلى في هذه الفضائل العظمى ، ومنارا للسائرين في ظلمات الحياة ، وكم من ظلمة في الحياة قد ضل بها من ضل ثم أتى على البشر زمان كان فيه بأشد الحاجة الى الهادي الكامل يضيء له الطريق كله بقوله وعمله ،

ويجلو الدجى ـ دجى العقائد والاعمال والأخلاق ـ بنور تعاليمه وضوء سيرته وجمال خلقه وكمال نفسه ، فتكون حياته نبراسا بأيدي الناس ، فمن اقتبس منه في يمينه سار في ظلمات الحياة آمنا مطمئنا لا يخاف الزلة ولا يخشى العثرة حتى يبلغ غايته وإن ذلك الهادي الاعظم هو آخر الهداة وخاتم النبيين الذي لم يرسل بعده رسول ولن يرسل (يا أيها النبي إنّا أرسلناك شاهدا ومُبَشراً ونذيرا ، وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا مُنيرا) « الاحزاب : ٤٥ ـ ٤٦ » .

ان محمداﷺ شهد في هذا العالم تعليم الله وهدايته . وبشر الصالحين بالنجاح والفلاح ، فهو مبشر . وقد نادى الغافلين وأسمع الصم وحذر المذنبين عاقبة ذنوبهم وأنذر المشرفين على الهلاك وأيقظ النائمين ، فهو منذر . وقد دعا الى الله من ضل عن سبيله ، فهو داع . وان هو إلا نور يستضاء به الى يوم القيامة ، ونبراس يستنار بأشعته في شعاب الحياة الملتوية فتنكشف به الظلمات المتراكمة ، فهو السراج المنير الى الابد . نعم ، ان جميع الانبياء كانوا شهداء ودعاة ومبشرين ومنذرين ، بيد ان هذه الصفات لم تكن سواسية في جميع الرسل ، بل كان بعضها في بعضهم أظهر من أخواتها ، فكان يعقوب واسحاق وإسماعيل عليهم السلام قد غلبت عليهم صفة الشهادة وكانوا شهداء الحق . وغلبت على إبراهيم وعيسى صفة التبشير فكانا مبشرين . ومن الأنبياء من غلب عليه وصف الانذار لمن خالف الحق وجحده فكانوا منذرين كنوح وموسى وهود وشعيب . ومنهم من غلب عليه صفة الدعوة الى الحق وامتاز بها أكثر مما امتاز بسائر النعوت الاخرى كيوسف ويونس عليهم الصلاة والسلام جميعا . وأما من كان جامعا لهذه الصفات كلها واتصف بها جميعا فكان مبشرا ونذيرا وداعيا الى الله بإذنه وسراجا منيرا

وكانت حياته ملأى بهذه النعوت والشئون وسيرته ممتازة بهذه الخصال والخلال ، فهو النبي الجامع محمدﷺ لأنه بعث ليختم الله به النبيين والنبوات ، فأعطي الرسالة الاخيرة ليبلغها الى البشر كافة ، فجاء بالشريعة الكاملة التي لا يحتاج البشر معها الى غيرها ، ولم تنزل من السماء الى الارض شريعة على قلب بشر بعد هذه الشريعة . لقد حظيت التعاليم المحمدية بالخلود واختصت بالبقاء والدوام الى يوم القيامة فكانت نفس محمدﷺ جامعة لجميع الاخلاق العالية والعادات السنية ، وقد بعث ليتمم مكارم الأخلاق .

اخواني ، أنا لا أقول ما اقول جزافا وادّعاء مني لأجل عقيدة لي خاصة اعتقدها ، وانما هي حقيقة يشهد لها التاريخ وتؤ يدها البراهين والدلائل وان السيرة التي يحق لصاحبها أن يتخذ الناس من حياته أسوة حسنة ومثلا أعلى ، يشترط لها قبل كل شيء ان تكون سيرة « تاريخية » ، أما السيرة القائمة على أساطير وأحاديث خرافة لا تدعمها الروايات الموثوق بصحتها ، فان من طبيعة الانسان أن لا يتأثر بما يُحكى له من سيرة لشخصية مفترضة لا يعرف لها التاريخ أصلا صحيحا ، وانما اختلق لها المناقب أناس احسنوا الظن بها فرفعوا مكانها ، وقد يخدعون بهذه المناقب بعض الناس أمدا قصيرا حين يعرضونها عليهم في حلة قشيبة من الالفاظ وثوب قشيب من العبارات ، ثم لا تلبث الحقيقة أن تظهر من وراء غلائل الاوهام فيعرض الناس عنها اعراضا لانها قامت على غير أساس من التاريخ . اذن فلا بد لكل سيرة من سير الكمال الانساني يدعى الناس الى الاقتداء بها واتخاذها أسوة أن يدعمها التاريخ ويشهد لها المحققون ، ولهذا نرى النفوس البشرية لا تتأثر بالاساطير والاوهام كتأثرها بحوادث التاريخ والروايات الثابتة عن الثقات الأثبات . وذلك لأن سيرة الرجل

العظيم الكامل لا تعرض على الناس ليشغلوا بها أوقات فراغهم ويروّحوا بها عن أنفسهم في حالة الملل أو الضجر ، بل تعرض عليهم ليدعوا الى الاقتداء بها واتخاذها نبراسا لحياتهم يسيرون على ضوئها في ظلمات الحياة لاقتحام العقبات ، وكم من عقبة تعترض الانسان في حياته فيحتاج الى من يسير أمامه ليأخذ بيده في اجتيازها . فان لم تكن الشخصية تاريخية كيف يدعى الناس الى الاقتداء بها وهي في الواقع مفترضة والمناقب التي تذكر عنها من الاساطير والاوهام ؟!

نحن معشر المسلمين نؤمن برسالات الله كلها وبجميع الرسل ونعظمهم بلا استثناء ، مع علمنا بأنهم متفاضلون (تلك الرسلُ فضّلنا بعضَهم على بعض) (البقرة ٢٥٣) . وان الدوام والبقاء لم يتح الا لسيرة آخر المرسلين وخاتم النبيين محمدﷺ ، أما غيره من الانبياء فلم تختم النبوة بأحد منهم ، ولم تكن سيرتهم خالدة ، بل ولا محفوظة ، وقد أرسلوا الى أممهم خاصة ، والى زمن خاص بأجل مسمى ، فكانت حياتهم أسوة للذين أرسلوا اليهم في عهدهم ، ثم نسيت تلك السيرة وامحّت بكرّ الليالي ومرور الايام ، وقد جاء في رواية اسلامية ان الله أرسل من الانبياء عشرين الفا ومائة الف .

انه ما من بلاد ولا أمة قبل مبعث محمدﷺ الا جاء فيهم نبي ، واذا كان عدد الانبياء على ما في تلك الرواية الاسلامية عشرين الفا ومائة الف فكم نبيا منهم نعرف اسمه ؟ والذين نعرف أسماءهم هل نعرف من سيرتهم كثيرا أو قليلا ؟

ان من أقدم الامم عهدا هنادك الهند كما يدعون ، وهم ليسوا بمسلمين ، وفي تاريخهم مئات من العظماء والنابهين ، فهل يؤيد التاريخ سيرة أحد منهم ؟ ان التاريخ لا يستطيع ذلك ، وكثير منهم لا يعرف

الناس من شئون حياتهم وحقائق أحوالهم الا أسماءهم ، وهم لا يحظون في كتب التاريخ بمكانة ، وانما تعد سيرتهم من علم الاساطير وخرافات الوثنية . ومن أحظاهم تاريخا وأحسنهم سمعة رجال «فهاربتها» و «رامايانا» وأبطالها ، ومع ذلك فان سيرة اولئك الرجال لا تعد من التاريخ ، بل لا يعرف التاريخ زمانهم ، فضلا عن أن تتعين في الزمان قرونهم أو تعرف من قرونهم سنوات حياتهم .

لقد درس بعض علماء اوربا تاريخ الهند القديم درسا متواليا ، وقاسوا له أقيسة ، وذهبوا في ذلك شوطا بعيدا ، فصاروا يعينون عهد عظماء الهنادك وأبطالهم تعيينا يرى علماء الهنادك وفضلاؤهم أنه مجازفة ورجم بالغيب ، وأكثر المحققين من علماء أوربا لا يعدون ذلك من التاريخ ، بل لا يعترفون بأن هؤلاء قد وجدوا في العالم يوما ما أو كان لما حيك حولهم من أساطير شبه وجود . وان زردشت صاحب المجوسية لا يزال معظما عند كثير من أتباعه ، لكن التاريخ لم يكشف الحجاب عن وجوده الحقيقي بعد ، فهو لا يزال سرا غامضا من أسرار التاريخ حتى شك بعض المؤرخين من الامريكيين والاوربيين في نفس وجوده . اما المستشرقون الذين يعترفون بوجوده التاريخي فإنهم يثبتون بعض شئون حياته بظنون متباينة وأوهام متباعدة اثباتا لا يروي غلة ولا يشفي علة ، فكيف يستطيع أحد ان يطمئن الى اتخاذ حياة زردشت أسوة لنفسه في الحياة ما دام الشك وتضارب الآراء يحومان حول زمانه وبلده ونسبه وأسرته وشريعته ودعوته وكتابه ولغته وعام وفاته ومكان موته ، والروايات عن ذلك أوهام وأقيسة وظنون لا تغني من الحق شيئاً . ومع ذلك فان المجوس ليس لهم سبيل الى معرفة هذه الامور المرتاب فيها الا ما يزعمه بعض المستشرقين والباحثين من أهل امريكا وأوربا ، وان علم المجوس

الأصلي بنبيهم وحياته وسيرته لا يعدو ما في الشاهنامة للفردوسي ، ومن ذا الذي يعذرهم فيا يعتذرون من أن كتبهم الدينية قد ذهبت بها حروبهم مع اليونانيين وأن اعداءهم أبادوها . ونحن ليس من غرضنا إلاّ ان نثبت أنها غير موجودة ولا معلومة ، ولا يهمنا كيفية انعدامها وزوالها ، وهذا يدل على أن حياة زردشت لم تنل حظ الدوام والبقاء حتى أنكر أمثال Kern و Dermelites شخصية زردشت ووجوده التاريخي .

ودين (بوذا) أقدم الاديان وأوسعها نطاقا وأكثرها انتشارا في سالف الايام ، وكان له سلطان على الهند والصين وآسيا الوسطى وأفغانستان وتركستان ولا يزال الى الآن في سيام والصين واليابان وتبت ، وانما تقلص ظله وعفى أثره في الهند على أيدي البراهمة ، وزال عن آسيا الوسطى بغلبة الاسلام ، لكنه ما برح موجودا في آسيا القصوى تحت ظل دولة قوية ذات مدنية وثقافة ناضرتين ، وهي اليابان التي لم تخضع بعد لأجنبي ، ولم يفتح بلادها فاتح[١] .

ولسائل أن يسأل : هل يقيم التاريخ وزنا لوجود بوذا ؟ وهل يقدر مؤرخ على أن يعرض للناس صورة حقيقية لتاريخه ؟ وهل يستطيع كاتب ان يصف ظروفه وأحواله التي كان عليها في حياته وصفا كاملا لا يغادر شيئا من تحديد زمن ميلاده ووطنه وأصول دينه كما دعا هو اليه ومبادىء دعوته وأهدافها ؟ الذي نعلمه أن ذلك كله محجوب عن علم الناس بظلمات كثيفة متراكمة ، وكل ما أمكن للباحثين أنهم حاولوا تعيين زمان وجوده بحوادث راجوات بلاد (مكده) ولم يكن لهم سبيل سوى ذلك ، وتسنى لمؤرخ أن يقارن زمن هؤلاء الراجوات بملوك اليونان الذين كانت بينهم وبين راجوات مكده روابط .

---

(١) ألقيت هذه المحاضرة لما كانت اليابان في أوج سيادتها قبل الحرب العالمية الثانية .

وأما دين الصين فلم نعلم عنه الا قليلا بطريق الحدس ، ولم يصل العلم الى شيء يقيني عنه . و(كونفوشيوس) صاحب النحلة المعروفة في الصين نعلم عنه أقل مما نعلم عن بوذا ، مع أن المنتسبين لطريقته الدينية يبلغ عددهم مئات الملايين .

والامم السامية بعث فيها مئات من الرسل ، لكن التاريخ لم يحفظ لنا عنهم الا أسماء بعضهم ، ولا نعلم عن هؤلاء الرسل - من نوح وابراهيم وهود وصالح واسماعيل واسحاق ويعقوب وزكريا ويحيى عليهم السلام - إلا بعض سيرهم وقليلا من صفحات حياتهم ، والذي نعلمه من ذلك لا يكاد يروي غلة أو يشفي علة . وحياة العظماء لها نواح وأطراف ، وتتخللها شعاب وعقبات ، في أطوار وأدوار . وما دام الذي غاب عن علمنا من ذلك أكثر بكثير من الذي عرفناه ، فكيف يتسنى لمن شاء أن يتخذ من سيرتهم أسوة كاملة لحياته في جميع أطوارها وهو لم يبلغه من سيرهم الا قليل ؟

إن أسفار اليهود التي تضمنت سير هؤلاء الانبياء قد خالج المحققين من العلماء ضروب من الشك في كل سفر من هذه الأسفار . على أننا اذا ضربنا صفحا عن هذه الشكوك نرى سير هؤلاء النبيين في تلك الاسفار ناقصة . مثال ذلك احوال موسى المذكورة في أسفار التوراة ، إن مؤلفي دائرة المعارف البريطانية أنفسهم توصلوا الى تحقيق أن هذه الاسفار دونت وجمعت بعد موسى عليه السلام بقرون كثيرة ، زد على ذلك أن التوراة الموجودة فيها لكل حادثة روايتان مختلفتان وحكايتان متباينتان كما حقق ذلك بعض علماء الالمان ، وربما دفع بعض هذه الروايات بعضا فتعارضت أولاها بأخراها . ونحن نواجه الوصف المتعارض في سير الرجال والحوادث جميعا ، ومن أراد أن يزداد علما بهذا الموضوع فليراجع مادة (بايبل) في الطبعة الاخيرة من دائرة المعارف البريطانية . واذا كان

الامر كذلك فبأي منزلة من التاريخ ننزل حوادث العالم من آدم الى موسى عليهما السلام ، وكيف نقدر قدر التاريخ الصحيح الثابت في هذه الامور ؟

وأحوال عيسى عليه السلام وسيرته مكتوبة في الأناجيل ، والأناجيل - كما تعلمون - كثيرة ، غير ان اكثرية المسيحيين اقتصرت على أربعة أناجيل . أما (انجيل الطفولة) و(انجيل برنابا) وغيرهما فلا يعتبرونهما . ومع ذلك فإن الاناجيل الاربعة التي اقتصروا عليها لم يلق أحد من الذين جمعوها سيدنا عيسى عليه السلام ، واذا تساءلنا : عمن رووا هذه الاناجيل ؟ نجد التاريخ يجهل ذلك كل الجهل . ويزداد المرء شكا اذا توصل الى حقيقة أخرى وهي أن الرجال الاربعة المنسوبة اليهم هذه الاناجيل الاربعة لا يمكن القطع يقينا بأنهم هم الذين جمعوها في الواقع . فاذا كان الاشخاص المنسوبة اليهم هذه الاناجيل لا يطمئن التاريخ الى صدورها عنهم فكيف يطمئن الى صحتها ؟

وزاد الطين بلة أننا لا نعلم يقينا اللغة التي كتبت بها هذه الاناجيل في الاصل ، وفي أي زمان كتبت . فقد اختلف مفسرو الاناجيل اختلافا شديدا في تعيين زمان جمعها وتدوينها ، فمن قائل انها كتبت سنة ٦٠ للميلاد ، ومن قائل انها جمعت بعد ذلك التاريخ بكثير . وذهب بعض نقدة العلماء الامريكيين مذهبا بعيدا مستغربا في أمر المسيح ولادته ووفاته ودين التثليث فأنكر ذلك الناقد الامريكي وجود المسيح عليه السلام قائلا ان هذا كله من الاساطير ، وان ما ذكروه عنه انما هو بقية من بقايا وثنية الروم واليونان . اذ أن تلك الامم كانت تدين بمثل هذه الافكار والعقائد في آلهتهم وأبطالهم القدماء . وقد استمر الجدال اشهرا حول وجود عيسى عليه السلام في مجلة (روبن كورت) التي تطبع في شيكاغو ، ودار

البحث عما اذا كان للمسيح وجود تاريخي أم هو مما ابتدعته أوهام القدماء من الامم السالفة واختلقته اختلاقا . أليس كل هذا مما يوهن الامر فيما يتعلق بعرض سيرة المسيح عليه السلام وموقف التاريخ من ذلك ؟ ونعود فنقول : كيف يمكن اتخاذ الاسوة الكاملة التي تطمئن لها القلوب ان لم تكن جميع نواحي الحياة في الشخصية المقتدى بها معلومة ، وليس فيها ما يجهله الناس وما هو مكتوم عنهم وراء حجب التاريخ . ان المقتدى به والذي يتخذ الناس من حياته أسوة لا بد أن تكون حياته كلها واضحة صافية كالمرآة وليلها كنهارها لتتبين للناس المثل العليا التي يحتذونها في حياتهم بجميع أطوارها ومناحيها .

اذا نظرنا الى حياة أصحاب النحل ودعاة الملل وهداة البشر من الانبياء والرسل نظر الناقد البصير ، وتأملنا هديهم وسيرهم ، لم نجد فيمن تقدم ذكرهم من يمكن أن يتخذ من حياته مثل أعلى للحياة الانسانية الا محمدا ﷺ وهديه وسيرته ، فهو الذي أرسله الله ليكون فيه أسوة لبني آدم في جميع نواحي حياتهم وأطوارها وأحوالها . وقد سبق لنا القول بأنه ليس في مئات الالوف من المصلحين والنبيين من يشهد لهم التاريخ الا ثلاثة أو اربعة ، ومع ذلك فان التاريخ لا يعرف من تفاصيل أحوالهم وشؤون حياتهم ودخائل سيرتهم إلا نزرا يسيرا وغير كامل ، فكيف يتسنى للانسان ان يتخذ من ذلك أسوة لحياته ذات النواحي المختلفة ؟

أليس من المستغرب أن بوذا الذي يبلغ عدد المنتسبين اليه ربع سكان المعمورة ولا يحفظ التاريخ من سيرته إلا عدة أقاصيص وحكايات لو أننا نقدناها بمقاييس التاريخ لنتخذ لانفسنا قدوة من حياته وسيرته لخرجنا من ذلك خاسرين . إن احدى تلك الاقاصيص تنبئنا بأنه ولد في زمان غير معلوم في واد من أودية (نيبال) في بيت راجه ، فكان ذكيا وذا طبيعة

متوثبة وله نفس متدبرة وقلب حساس . فلما بلغ أشده وتزوج وصار أبا ، اتفق أن رأى جماعة من الفقراء والبؤساء فأثر فيه منظرهم المؤلم وأثار في نفسه كامن الرحمة والشفقة ، فخرج من وطنه هائما على وجهه حتى بلغ (بنارس) ثم (كيا) و(بايلي بتر) وهي (بتنه) ثم (راجكير) وهي(بهار) وتاه فيما بين ذلك من جبال وغابات ومدن وقرى ، ولم يزل هائما على وجهه متجولا بين هذه البقاع النائية حتى بلغ في تجواله الى (كيا) فتجلت له الحقيقة المحجوبة وهو تحت شجرة من أشجار بيبل فرأى نور الحق ساطعا ، وادّعى انه أدرك سرّ الحقيقة ، فخرج يدعو الناس الى دينه بين (بنارس) و(بهار) ثم مضى لسبيله . هذه جملة ما نعلم من سيرة بوذا وحياته .

وزردشت يعد واحدا من الذين أسسوا بنيان الدين وبدأوا بالدعوة اليه ، وقد أسلفنا أن حياته مجهولة كذلك ، ولا يتتبع أثرها الا أهل القياس والاستنتاج من علماء التاريخ . وانا لا أقول شيئا من عند نفسي في سيرة زردشت ، بل أعرض عليكم نبذة مما كتب عنه في دائرة المعارف البريطانية للقرن العشرين ، وهي تعد من أوثق المصادر في التاريخ :

« إن زردشت الذي عرفناه من أبيات شعرية في (كاثا) غير زردشت الذي نراه في (وستا) الجديدة ، فالموصوف في المصدر الأول مباين للمذكور في المصدر الثاني ومضاد له . وعلى كل فان الاسطورة التي تشتمل على الحياة المستغربة (وقد نقل الكاتب شئونا في سيرته من كاثا) لا تدلنا على حياة زردشت دلالة واضحة ، ولا تهدينا السبيل الى معرفته معرفة تاريخية ، بسبب ما نجد من غموض لا ندرك معناه .

وأخذ الكاتب يسرد المصنفات التي وضعت في هذا العصر عن حياة زردشت وقال : إن مولده لم يعين بعد ، والشهادات على ذلك يناقض

بعضها بعضا . والعهد الذي كان فيه زردشت مجهول كذلك ، فالمؤرخون من اليونان اختلفوا فيه اختلافا شديدا ، كما اختلف علماء عصرنا في تعيين عهده ، وانتهى كاتب ترجمته في دائرة المعارف البريطانية الى القول بأننا لا نعلم زمن زردشت ألبتة ونجهله جهلا تاما » .

وخلاصة ما نعلمه عن حياة زردشت أنه ولد في مقاطعة أذربيجان ، ونشر دعوته في بلخ وأطرافها، وأن الملك «هشتاسب» دخل في دينه، ثم ظهرت على يده معجزات ، وقد تزوج وولد له أولاد ثم توفي . فهل يظن أحد ان هذه المعلومات عن حياة رجل صاحب دعوة تكفي لان يتخذ من حياته أسوة ، وأن يقتدى به في جميع مراحل الحياة فيكون للناس سراجاً يستضيئون بنوره في تصرفاتهم وسلوكهم ؟

ومن أكثر الانبياء ذكرا وأوضحهم حياة موسى عليه السلام . ترى ماذا تقول اسفار التوراة الخمسة عن حياته ؟ ذلك ما نستعرضه بلا أي نقد لما فيه من روايات ضعيفة ، وغير متعرضين الآن لذكر صحتها أو سقمها ، بل نوردها مفترضين صحتها؛

لا نجد في هذه الأسفار الخمسة من التوراة عن حياة موسى إلا انه بعد ولادته تربى في قصر فرعون ، ولما بلغ مبلغ الرجال نصر قومه بني اسرائيل على ظلم فرعون مرة أو مرتين ، ثم هرب من مصر الى (مَدْين) من بلاد العرب وتزوج فيها وأقام هناك برهة من الزمن ، ثم رجع منها الى مصر ، وبينما هو في طريقه اليها أوحي اليه من ربه ، وبعث الى قومه نبيا وداعيا ، ثم لقي فرعون وأراه آيات بينات ، واستأذنه في الخروج ببني اسرائيل من مصر فلم يأذن له بذلك ، فخرج بهم على حين غفلة من فرعون ، ووجد في البحر طريقا باذن الله ، وتبعه فرعون فأدركه الغرق . أما موسى فقصد بقومه الى بلاد العرب ، ودخل بهم أرض الشام ، وجاهد من كانوا على

الشرك من أهلها وما زال يقاتل ويجاهد الى أن هرم وبلغ من العمر عتيا وأرعشه الكبر ، فجاءه الموت وهو على ربوة . وقد اختتم سفر التثنية بهذه الفقرات (٣٤ : ٥ - ١٠) :

« إن عبد الله موسى مات باذن الله في أرض موآب ،ودفنه الله في الجواء في أرض موآب مقابل بيت فغور ، ولم يعرف انسان قبره الى هذا اليوم . . وكان موسى ابن عشرين ومائة سنة حين جاءه الموت . . . ولم يقم بعد نبي في إسرائيل مثل موسى » .

هذه الفقرات نقلناها من سفر التثنية وهو السفر الخامس من التوراة الموحى الى موسى عليه السلام . ولا يخفى على ناظر هذا السفر أن الكلمات التي نقلناها لم ينطق بها موسى عليه السلام ، وهذا يدل على أن هذا السفر كله ، أو جزءه الاخير على الاقل ، ليس لموسى ، وإن الدنيا تجهل كاتب هذه السيرة لموسى .

ومما يلفت نظر القارىء قول القائل في هذا السفر « ولم يعرف انسان قبره (أي قبر موسى عليه السلام) الى اليوم » ، وقوله « لم يقم بعد نبي في اسرائيل مثل موسى » . إن هاتين الفقرتين تدلان على أن هذا الجزء الاخير من سيرة موسى عليه السلام قد أضيف إلى كتاب حياته بعد ايام طويلة ذهبت فيها يد الدهر بآثار هذا المزار العظيم والمشهد الكبير حتى عمي محله عن الأجيال التالية ونسوه ، بل أضيف هذا الجزء من سيرة موسى الى سفر التثنية بعد زمان طويل كان يرجى فيه أن يقوم في إسرائيل نبي يسدّ فراغ موسى ، فنوّه كاتب السفر بأنه لم يقم بعد مثله .

إن موسى عليه السلام عمّر طويلا ، وقد نسأ الله في أجله حتى عاش عشرين ومائة سنة ، فما الذي نعرفه عن حياته الطويلة ، وبأي الأعمال شغل فراغ حياته المباركة ، وما هي النواحي التي نعلمها واضحة مفصلة

من سيرته الحافلة بكثير مما كان ينبغي أن يعلم لتحسن به الأسوة ؟ إننا لا نعلم إلا مولده وشبابه وهجرته وزواجه وبعثته ثم قتاله المشركين الى أن لقيناه مرة أخرى وهو يرتعش من الكبر وقد أدركه الهرم وبلغ من العمر عشرين ومائة سنة . وهل يغنينا ذكر ما يتعلق بحياته الخاصة مما يمر بكل إنسان في حياته وبيئته العادية ؟ إن الأمور التي كان يحتاج البشر الى معرفتها من حياة موسى الاجتماعية هي الأخلاق والعادات والهدى ، وكل ذلك لا نجده في سيرته . أما ذكر اسماء الرجال وأنسابهم وأماكنهم وبلادهم وعددهم فمما لا يهمنا علمه في مقام القدوة والاسوة والهداية ، مع أنه هو الذي نراه مفصلا في التوراة . وكذلك نرى فيها شيئا كثيرا من القوانين والمبادىء والأصول ، لكن هذه الأمور والتي سبقتها مهما تكن أهميتها عند علماء الجغرافيا والأنساب والحقوق فانها لا تعنينا نحن من جهة الأسوة والقدوة في الحياة ولا تسد الخلل الواقع في سيرة موسى عليه السلام من هذه الناحية التي لا يكمل بيانها إلا بذكر أخلاقه وشئون حياته وأحواله في معاشرته ، وهو ما لا بد منه ليتخذه البشر مثالا يعمل به .

ومن أقرب الأنبياء عهدا بالاسلام عيسى عليه السلام الذي يزيد عدد المنتسبين اليه بحسب إحصاءات الاوربيين على عدد المنتسبين الى الديانات الاخرى ، وإن المرء ليستغرب حين يعلم ان شئون حياته وأحوال معيشته أخفى من غيره وأغمض ، وقد أسدل الزمان عليها حجابا أكثف مما نراه في حياة العظماء الآخرين من الرسل الذي يعدون من أصحاب الأديان المشهورة . وإن اوربا المسيحية قد حملها حافز البحث والكشف على أن تستثير بطون الصحارى وقلل الجبال وأطراف الصخور والاطلال الدارسة ومظان الآثار ومجالات الحوادث التي مرت عليها الأحقاب الطويلة ، فكتب المستشرقون التاريخ القديم لبابل وأشور والعرب والشام ومصر وافريقية والهند وتركستان وأخذوا يلائمون بين الحوادث القديمة المجهولة الزمن ويعرضونها على الناس واضحة نقية

منسقة مرتبطا بعضها ببعض ، وطفقوا يعثرون على الصفحات المفقودة من كتاب التاريخ القديم للبشر ، إلا انهم قد أعياهم البحث والفحص فلم يجدوا الصفحات المفقودة عن حياة نبيهم . وقد استفرغ العلامة ريتان جهده ولقي من العناء والنصب مبلغا عظيما ليقف على حياة عيسى كاملة تامة ، ومع ذلك فان شئون عيسى عليه السلام وأحواله لا تزال سرا مكنونا في ضمير الزمن لم يبح به لسانه بعد .

إن عيسى عليه السلام عاش في هذه الدنيا ثلاثا وثلاثين سنة كما يروي الانجيل ، والأناجيل الموجودة في الايدي - على ما في رواياتها من ضعف ولبس - مقصورة على ذكر أحواله لمدة ثلاث سنوات من أواخر حياته وحسب ، فنحن لا نعلم عن حياته علم اليقين إلا أنه ولد ، وجيء به الى مصر ، وأراه الله آية أو آيتين في صباه ، ثم غاب عن الناس وظهر لهم وهو في الثلاثين من عمره ، فنراه قائما يعظ الملاحين وصيادي السمك على الشواطىء وفي بعض الربوات ، فصحبه جماعة من حوارييه وقد جادل اليهود وناظرهم في بعض الأحيان ، الى أن حمل اليهود الحكام الروميين على القبض عليه ورفع أمره الى محكمة يرأسها قاض من الروم فقضى عليه بالصلب ، وبعد ثلاثة أيام وجد قبره خاليا من جسده عليه السلام .

أين قضى عيسى عليه السلام الثلاثين أو الخمس والعشرين سنة على الاقل من حياته ؟ وفيم قضاها ؟ وبأي الأعمال شغل هذا الفراغ الواسع من عمره ؟ إن الدنيا لا تعلم عن ذلك شيئا ولن تعلم . والسنوات الثلاث الأخيرة ماذا نجد فيها ؟ آيات ومعجزات معدودات ، وبعض العظات ، ثم قيل إنه صلب فانطوت صحيفة حياته .

من الشروط المحتمة التي لا بد منها لكل من يرجى أن تكون سيرته وهدايته أسوة للبشر : الكمال ، والتمام ، والجمع . والمراد بالكمال والتمام والجمع أن الطوائف الانسانية المتفرقة والطبقات البشرية المختلفة تحتاج الى أمثلة كثيرة ومتنوعة تتخذها منهاجا لحياتها الاجتماعية . وكذلك الافراد

في المجتمع البشري هم في حاجة الى مثل عليا يقتدون بها في مناحي حياتهم البيتية لتتوثق الروابط بين الافراد ، وتحسن العلاقات بين شتى الطوائف في داخل الاسرة وخارجها . لذلك ينبغي ان تكون تلك المثل كلها واضحة في حياة الانسان العظيم الذي يتخذ مثالا في الحياة . واذا صحت هذه النظرة ـ وهي صحيحة ـ لم نجد في سالف الايام قدوة واضح الحياة غير محمد خاتم النبيين عليه وعليهم السلام . والدين هو طاعة المخلوق للخالق ، وبالدين يتعلم المرء ما فرضه الخالق على خلقه من فرائض وما أوجبه من واجبات ، فيؤمن بها ويحققها بالعمل . واذا اردنا أن نعبر عن الدين بعبارة أخرى قلنا هو القيام بحقوق الله وحقوق خلقه ، إذن فيجب على كل متتبع لدين أن يتعرف هذه الحقوق والفرائض والواجبات من سيرة نبيه والأحوال التي كان عليها صاحب ملته ثم يقتدي بها ويفرغ حياته في قالبها . واذا نظرنا الى سير الأنبياء هذه النظرة وحاولنا معرفة حقوق الله وحقوق خلقه كاملة تامة من سيرتهم ، لم نجد ذلك الا في سيرة محمد ﷺ المبعوث الى الناس كافة .

والديانات اذا تأملناها يبدو لنا أنها على نوعين : نوع لا نجد فيه ذكر الله تعالى البتة ، ومن هذا النوع دين بوذا ودين الصين ، فليس فيهما ذكر لله تعالى ولا لصفاته ، وليس فيهما فرائض وواجبات على الانسان ، ومن باب أولى ليس فيهما ذكر للحب في الله وتوحيده والاخلاص له ، فالذي يبحث فيهما عن هذه الأمور لا يخرج من بحثه بشيء .

ونوع آخر ورد فيه ذكر الله عز وجل ، وسلموا فيه بوجوده على وجه ما ، وآمنوا به إيمانا بالجملة ، لكنك لا ترى في سير أنبيائه أو في تعاليم دعاته ما يعرف منه الانسان كيف يعتقد بربه ، وكيف يؤمن به ، وبأي الأوصاف يصفه ، وكيف كان هؤلاء يعتقدون بالله والى أي حد تأثروا بتلك العقائد في أعمالهم وأخلاقهم ، وفي أي صورة من صور الاعمال تجلت عقائدهم وبرزت للوجود . كل هذا لا نرى له أثرا في سير هؤلاء .

اقرأ التوراة واستقص النظر في فصولها وفقراتها وتدبر ذلك ما استطعت فانك لن تجد فيها إلا توحيد الله وشرائط القربان وشيئا من الاحكام ، اما اذا اردت أن تعرف من الاسفار الخمسة التي تتألف منها التوراة شيئا عما كان في قلب موسى عليه السلام من الحب لله والشوق للقائه ، وكيف كان يطيع الله ويعبده . وكيف كان توكلـه على الله ويقينـه به ، وكم أثـرت الصفات الالهية على قلبه ، فانك لا تجد فيها شيئا من ذلك . ولو كانت الشريعة الموسوية وأحكامها عامة للبشر دائمة بدوام الدهر لكان واجبا على أتباع موسى عليه السلام أن يقيدوها بالحفظ والكتابـة وأن يصونوهـا من عبث الدهر بها ، لكن الله عز وجل لما لم يرد أن تكون شريعتـه عامـة خالدة لم يتح لها هذه العناية في الحفظ والتخليد .

والانجيل مرآة صافية تجلت فيها حياة عيسى عليه السلام ، لكننا نجد فيه أن الله (تعالى عما يقول الظالمون علـوا كبـيرا) هو ابـو عيسى عليه السلام . أما كيف كانت رابطة الابوة بين هذا الولد المقدس ووالده ، فان الولد يخبرنا بأن أباه كان يحبه حبا جما ، لكننا لم نعلم الى أي حد بلغ حب الولد لوالده وكيف كانت طاعة الابن لأبيه ، وهل كان يركع له ويسجد في النهار او في الليل ، وهل سأله شيئا غير خبز يومه ، وهل دعا أباه بدعوة في ليلة من الليالي قبل الليلة التي اعتقل في نهارها ؟ إننا لا نعلم هذا ولا ذاك .

ولو أن سيرة سيدنا عيسى عليه السلام المذكورة في الانجيل تحتوي على بيان العلاقة بين المخلوق وخالقه وتهدي المرء الى ذلك هداية تامة لما احتاج أول ملوك المسيحية أن يعقد مجلسا شهده ثلاثمائة حبر من أحبار الكنيسة بعد ثلاثة قرون ونصف قرن من المسيح ، ليبتوا الحكم في أمر المسيحية . ومع ذلك بقي أمر سيدنا عيسى عليه السلام سراً من أسرار الزمان ، وسيبقى سراً في ضمير الزمان لا يعرب عنه لسان البحث .

هذا فيما يتعلق بحقوق الله ، أما حقوق الخلق فلا تراها مفصلة

احكامها ، محكمـة أصولهـا وأركانهـا ، في سـيرة أحـد من الأنبياء وتعاليمهم ، غير محمدﷺ .

أما بوذا فانه منذ هجر أهله وعياله الى الصحاري والغابات لم يرجع قط الى خليلته التي كانت حبيبة الى قلبه ، ولـم ير ولـده الـوحيد مرة اخرى ، وتـرك خلانـه وأحبـاءه ، فخفف عن كاهلـه أعبـاء الحـكم ، وارتضى الموت آخر وسيلـة له الى النجـاة فكان الاجـل المحتـوم الغـاية القصوى للحياة البشرية عنده . فمن ذا الذي يرضى بأن يتخذ من حياة بوذا أسوة في هذه الدنيا التي لا بقاء لها ولا عمران الا بالحياة الاجتماعية والروابـط العمـرانية والاواصر الانسـانية ، ولا بد فيهـا من راع يرعـى رعيته ، وصديق يألف صديقه ، ووالد يشفق على ولده ، وأم تحن على فلذة كبدها . وهل في حياة بوذا شيء من ذلك يكون به أسوة للجميع : من الرهبان الذين انقطعوا للاخرة ، الى الآبـاء ذوي العيال وأصحـاب الضياع والمزارع والمصانع والاموال ؟ كلا ثم كلا ، لم تكن سيرة بوذا قط أسوة للهناء العائلي ، ولا لأهل الصناعات والمتاجر ، ولو اتخذ اتباع بوذا قدوة لهم من حياة بوذا لما قامت لهم هذه الدول في الصين واليابان وسيام وتبت وبورما، ولما عمرت للتجارة في بلادهم سوق ، ولا دبت الحياة في صناعاتهم ومصانعهم . ولو اختار أهل تلك البلاد سيرة متبوعهم سـيرة لهم وساروا عليها لاقفرت الأرض العامرة وتحولت الى صحاري قاحلة ، ولأصبحت المدن خرابا أو ارضا جرداء .

وأما موسى عليه السلام فلا نعلم عن حياته ـ حسب الاسفار الخمسة من التوراة ـ الا قتاله وقيادته في الحـرب وبسالتـه فيهـا . أمـا النواحـي الأخرى من حياته كالحقوق في أمور الـدنيا والفـرائض والواجبـات فلا نتبينها بوضوح وجلاء ، لذلك يتعذر على المرء أن يتخذ منهـا أسـوة في أعماله ، ومن يحاول ان يقف على ما ينبغي أن تكون عليه العلاقـة بـين الـزوج وزوجـه ،والولـد ووالـده ، وشروط الصداقـة بـين الصديقـين

وأساليب الهدنة بين الفريقين المتقاتلين وكيف ينفق المرء أمواله وفيم ينفقها ، وكيف يعامل اليتامى والفقراء والمساكين ، فان من يحاول معرفة ذلك من سيرة موسى عليه السلام فسيرى أن صحيفة حياته قد خلت من ذكر هذه الامور ، مع ان موسى كان له زوج وإخوة وأقارب ، ولا ريب أن موسى كان يعاشرهم أحسن معاشرة فكان خير زوج لاهله وأفضل أخ لاخوته وأوفى صديق لاصدقائه ، والاسوة به في ذلك كله مرغوب فيها محمود أثرها ، لكن كتبهم التي استعرضت سيرته خالية من ذلك . والتاريخ لم يطرق سمعه شيء عن هذه الانباء من حياة موسى ليتسنى للناس ان يتخذوا منها أسوة في الحياة .

وكان لعيسى عليه السلام أم ، والانجيل يخبرنا بأنه كان له أخ وأخت بل إنه كان له والد ايضا كما يكون لعامة الابناء آباء وأمهات ، لكن قصة حياته لا تدلنا على كيفية معاملته لذويه وكيف كان يعاشرهم ، مع ان الدنيا معمورة بالاخوة والخلان وذوي القربى ، وستبقى حافلة بهم ، وقد اعتنت الديانات بحقوق هؤلاء وأولئك وفرضت كثيرا من فرائضها المتعلقة بحقوق الاسرة والعائلة ، وحثت على القيام بتلك الفرائض .

إن عيسى عليه السلام عاش عيشة المغلوبين المحكومين ، فلا غرو اذا لم نجد في حياته مثالا من واجبات الحاكم الغالب . ولم يكن له عليه السلام زوجة ، لذلك لا نرى في حياته مثالا لما ينبغي ان يتبادله الزوج والزوجة من واجبات وحقوق ، خصوصا وأن الذي بين الزوجين من الصلة أوثق وأشد من الذي بين الاولاد وآبائهم كما جاء في سفر التكوين من التوراة[1] أن هذه الدنيا معظم سكانها يعيش عيشة الزواج والمناكحة فليس له في حياة عيسى عليه السلام مثال . وان العالم الذي يحتاج سكانه في حياتهم الى أسوة تامة ليعلموا كيف تكون الرابطة بين الزوج وزوجه ،

---

(١) لعل المؤلف يشير الى ما جاء في سفر التكوين (١ : ٢٧ و٨ : ١٥ ـ ١٩) .

وبين الصديق وأصدقائه ، والأب وبنيه والمقاتل وأعدائه ، والهدنة بين المتحاربين وكيف تنعقد لا يستطيع أن يجد له أسوة في حياة من لا يجد لهذه الامور ذكرا في سيرته . ولو أن الناس في أيامنا هذه آثروا التأسي بحياة عيسى عليه السلام وأرادوا أن يعيشوا كما عاش لخربت الدنيا واستحال عمرانها خرابا يبابا ولأصبحت القرى مقابر تتردد في انحائها اصوات البوم . أما الحضارة وتقدمها فسرعان ما يعتريها الزوال ويمحي اسمها ، وأوربا المسيحية لن تبقى بعد ذلك يوما واحدا .

ان الحياة المثالية لن تكون أسوة للناس ما لم تكن أعمال صاحبها ـ الذي يؤسس دينا ويدعو الناس اليه ـ مثالا وأنموذجا لمن يدعو اليه ، ولا يتطرق الشك الى الناس بأن ما يدعو اليه هو مما يعمل به . ومن السهل أن يدعو الداعي الى فلسفة تحظى بإعجاب الناس ، والى فكرة يستحسنونها أو نظرية جديدة في الحياة تروق لهم . وكل ذلك مما يقدر عليه كثير من الناس متى شاءوا وأين شاءوا . أما الذي لا يستطاع دائما فهو عمل الدعاة بما يدعون اليه وليست الافكار الصحيحة والنظريات الشائقة والاقوال الحسنة هي التي تجعل الانسان انسانا كاملا وتجعل من حياته أسوة للناس ومثلا أعلى في الحياة بل أعمال الداعي وأخلاقه هي التي تجعله كذلك . ولولا ذلك لما كان هناك فرق بين الخير والشر ، ولما تميز المصلح عن غيره ، ولامتلأت الدنيا بالثرثارين والمتفيهقين الذين يقولون ما لا يفعلون .

وهنا ينبغي لنا توجيه السؤال الى العالم أجمع : من ذا الذي تعد حياته أسوة للبشر ، وفيها المثل الاعلى للبشر ، من بين مئات الالوف من الرسل والانبياء وعظماء المصلحين ممن شرعوا للانسانية دياناتها وسنوا السنن للناس ؟

« تحب الربّ إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك . أحبب اعداءك . من لطمك على خدك الايمن فحول له الآخر ايضا . من سخّرك ميلا فاذهب معه ميلين . من أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك

فاترك له الرداء أيضا . اذهب وبع املاكك واعط الفقراء . واعف عن أخيك سبعين مرة . يعسر أن يدخل غني الى ملكوت السماوات » .

ان هذا وامثاله لا شك أنه من الموعظة الحسنة المحببة الى النفوس ، لكنها لا تعد سيرة ما لم يقترن بها العمل . نعم انها قول لين وحديث لذيذ ، ولكن الذي لا يغلب عدوه كيف يتسنى له العفو ، ومن لا يملك أو من لا يكون له مال كيف يتصدق على الفقراء والمساكين واليتامى ، وكيف يقضي لهم حاجاتهم ؟ ومن لا زوج له ولا ولد ولا أهل كيف تكون حياته أسوة للأزواج وذوي البنين والمتأهلين وهم الناس الذين تعمر الدنيا بهم ؟ ومن لم يتفق له أن يصفح عن أحد في حياته كيف يقتدي به من كان شديد الغضب سريع البادرة ؟

الحسنات قسمان : قسم سلبي وآخر ايجابي . وأنت اذا اعتزلت الدنيا في غار بسفح جبل تعبد فيه ربك ولم تبرحه طول حياتك ، تصرف فيه أوقاتك بالتبتل الى الله ، فان احسن ما يقال في مدحك انك اتقيت الشر ولم تقترف سيئة تلم عليها . وذلك من الحسنات ، الا انها حسنات سلبية . ولكن ماذا فعلت من الناحية الايجابية من خير : هل حملت كلاً ، أو نصرت مظلوما ، أو كسبت معدما ، أو اطعمت جائعا ، أو كسوت عاريا ، أو ساعدت فقيرا ، أو ذدت عن ضعيف ، أو هديت ضالا ؟ ان الأخلاق الحسنة ومكارمها من العفو والسماحة والقرى وبذل المال والصدع بالحق والحمية في قمع الباطل والجهاد في أداء الواجب لا تعد مكارم أخلاق لأجل ترك الدنيا والتبتل في عزلة عن المجتمع ، وليست الحسنات من الامور السلبية فحسب ، بل معظم الحسنات ترجع الى العمل الايجابي الذي يقوم به المرء ، ولا يكفي فيها ترك المعاصي واجتناب السوء . وهذا كله يدل على أن حياة العظيم لا تكون فيها الاسوة للناس ما لم تصدر عن صاحبها الأعمال الايجابية المحمودة والأخلاق النافعة الكريمة مما يوافق الحياة المثالية Idial- Life ، وأى عمل يعمله المتأسي ان لم ير لمن يأتسي به

أعمالا ايجابية تتم بها الحياة الصالحة في شتى أطوارها . ان الانسان ينشد مثالا يقتدي به في كل عمل يقدم عليه في غناه وفقره وفي سلمه وحربه ، ويتحرى السبيل الذي يسلكه اذا تزوج أو بقي عزبا ، ويريد انموذجا عاليا يأتمُّ به اذا عبد ربه أو عاشر الناس ، ويحاول أن يلم بالقوانين التي ينبغي العمل بها بالنسبة الى الراعي والرعية والحكام والمحكومين . جميع هذه الامور ينبغي للمرء أن يتخذ لنفسه القدوة فيها ، لأن الامم قد التوت عليها هذه المسألة فأهمها التماس الطريق الموصل الى حل هذه المعضلات وتذليل هذه المصاعب ومعظم الشعوب تشعر بالحاجة الشديدة الى المثل العليا في ذلك لتخفف عن الانسانية آلامها وتأسو جراحها ، وهي متلهفة على مثال لذلك من الاعمال ، لا على مثال عليه من الاقوال .

ولست بمبالغ اذا قلت : ان التاريخ أصدق شاهد على أنه ليس في الدنيا أحد يصح أن تكون للانسانية أسوة من سيرته وحياته غير سيرة محمد ﷺ وحياته .

وليكن على ذكر منكم ما تحدثت به اليكم من قبل ، وهو أن حياة العظيم التي يجدر بالناس أن يتخذوا منها قدوة لهم في الحياة . ينبغي أن تتوفر فيها أربع خصال :

١ ـ أن تكون « تاريخية » ، أي ان التاريخ الصحيح الممحص يصدِّقها ويشهد لها .

٢ ـ أن تكون « جامعة » أي محيطة بأطوار الحياة ومناحيها وجميع شئونها .

٣ ـ أن تكون « كاملة » أي أن تكون متسلسلة لا تنقص شيئا من حلقات الحياة .

٤ ـ أن تكون « عملية » أي أن تكون الدعوة الى المبادىء والفضائل والواجبات بعمل الداعي وأخلاقه ، وأن يكون كل ما دعا اليه بلسانه قد حققه بسيرته وعمل به في حياته الشخصية والعائلية والاجتماعية ،

فأصبحت أعماله مثلا عليا للناس يأتسون بها . وأنا لا أقول إن الانبياء صفرت صحائف حياتهم من هذه الميزة مدة وجودهم في الحياة الدنيا ، بل أقول أن سيرتهم التي توجد الآن بين أيدي الناس لا تنص على هذه الامور ، ويخيل الي ان الحكمة الالهية في ذلك ترجع الى أن اولئك الانبياء انما بعثوا لأزمانهم وشعوبهم ، فكان الموفقون للخير من شعوبهم في أزمانهم يرون سيرتهم فيأتسون بها ، ولم يكن هنالك حاجة الى أن تبقى سيرتهم معلومة للاجيال التالية بعدهم لأن النبوات ستختم برسالة محمد ﷺ الكاملة الى الناس كافة في كل زمان ومكان ، فمست الحاجة الى أن تكون سيرته ﷺ معلومة على حقيقتها في كل زمان ومكان الى يوم القيامة ، ليتيسر التأسي بها لجميع أمم الأرض . وهذا من اصدق البراهين على كون محمد ﷺ خاتم النبيين ولا نبي بعده (ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتمَ النبيين) الاحزاب : ٤٠ .

***

المحاضرة الثالثة

السيرة النبوية من الناحية التاريخية

أيها السادة : قلنا فيما سبق إن الحياة المثالية جدير بها أن تكون مشتملة على خصال أربع . وسننظر الآن الى سيرة محمد صلى الله عليه وسلم من هذه النواحي ، وأولها أن تكون سيرة « تاريخية » .

لقد شهدت الدنيا أصدق شهادة ، ثم ازداد ذلك ثبوتا على الايام ، بأن الاسلام لم يقتصر على حفظ سيرته صلى الله عليه وسلم ، بل توسع في ذلك الى ما يتعلق بها من كل النواحي ، وصان هذه الامانة القدسية فلم تلمسها يد الضياع ، ولم تعبث بها عوامل الدهر ، الى درجة أن العالم كله يقف من ذلك موقف العجب والاستغراب . والذين وقفوا حياتهم منذ العصر النبوي على حفظ اقوال النبي صلى الله عليه وسلم ورواية أحاديثه وكل ما يتعلق بحياته أدّوْها الى من ضبطوها بعدهم وكتبوها وصاروا يسمون « رواة الحديث » أو « المحدثين » و « أصحاب السير » ، وهم طبقات متسلسلة من « الصحابة » و « التابعين » و « تابعي التابعين » حتى وافى القرن الرابع . فلما كملت هذه الذخيرة التاريخية جمعا وكتابة وتدوينا جعل العلماء يكتبون سير هؤلاء الرواة من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من العلماء الذين رووا شيئا مما يتعلق بحياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكتبوا أسماءهم وكناهم وأنسابهم ومنشأهم وأخلاقهم

وعاداتهم ، وبالجملة أحصوا شئون حياتهم كلها حتى أصبح ما كتبوا في هذا الباب علما مستقلا سمي فيما بعد علم أسماء الرجال[1] .

وقد بلغ عدد الصحابة رضي الله عنهم في آخر حياة النبي صلى الله عليه وسلم ـ عندما حج حجة الوداع ـ مائة ألف ، ومن هؤلاء عشرة آلاف صحابي مذكورة اسماؤهم وأحوالهم في كتب التاريخ التي أفردت لتدوين أحوالهم خاصة . وان التاريخ لم يهتم بتدوين أحوالهم ولم يحفظ لنا شئونهم الا لان كل واحد منهم حفظ شيئا من أقوال النبي صلى الله عليه وسلم وأفعاله وتصرفاته وهديه وسيرته .

لقد توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم سنة ١١ من الهجرة النبوية ، وبقي فريق من كبار الصحابة بعده الى سنة ٤٠ ، وبقي بعد ذلك من الصحابة الذين كانوا أحداثا في حياة النبي صلى الله عليه وسلم عدد غير قليل . فلما انقرض ذلك الجيل لم يبق من الصحابة أحد ، وانطفأ كل

---

(١) ان العالم الالماني المعروف الدكتور سبرنكر كان في سنة ١٨٥٤ وما بعدها موظفا في ديوان من دواوين المعارف في ايالة البنغال وأمين السر للجمعية الاسيوية فيها . وقد عني بكتاب المغازي للواقدي ، ونشر بعناية فان كرامر وتصحيحه سنة ١٩٥٦ ، وبعنايته طبع كتاب الاصابة في أحوال الصحابة للحافظ ابن حجر العسقلاني . وقد ادعى أنه اول اوربي كتب في سيرة محمدﷺ معتمدا على المصادر العربية الاولى ولم يعتمد في تاليفه الا عليها . ومع أنه ـ في الحقيقة ـ لم يكتب كتابه دفاعا عن صاحب الرسالةﷺ بل كان متحاملا عليه ومخالفا له ، الا انه قال في مقدمته بالانجليزية على كتاب الاصابة المطبوع في كلكوتا سنة ١٨٥٣ ـ ١٨٦٤ : « لم تكن فيما مضى أمة من الأمم السالفة ، كما انه لا يوجد الآن أمة من الأمم المعاصرة ، أتت في علم اسماء الرجال بمثل ما جاء به المسلمون في هذا العلم العظيم الخطر الذي يتناول أحوال خمسمائة الف رجل وشئونهم » .

سراج أوقد بنـور النبوة . واليكم أسماء آخر من مات من الصحابـة ، والبلاد التي ماتوا فيها ، وسنوات وفاتهم :

اخر الصحابة موتا	المدن التي توفوا فيها	سنة الوفاة
١ ـ أبو أمامة	الشام	٨٦ هـ
٢ ـ عبد الله بن الحارث بن جزء	مصر	٨٦ هـ
٣ ـ عبد الله بن أبي أوفى	الكوفة	٨٧ هـ
٤ ـ السائب بن يزيد	المدينة	٩١ هـ
٥ ـ أنس بن مالك	البصرة	٩٣ هـ

وأنس بن مالك هذا الذي كان آخر من بقي من الصحابة كان الخادم الخاص لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، استمر في خدمته عشر سنوات متوالية .

أما التابعون الذين هم تلاميذ الصحابة فيبدأ تاريخ طبقتهم من السنة الاولى للهجرة ، ومنهم من ولد في عهد النبي صلى الله عليه وسلم لكنه لم يتشرّف برؤ يته ، أو كان في العهد النبوي صغير السن فلم يحظ بالصحبة ولم يقدر له أن ينال قبسا من مشكاة النبوة ، كعبد الرحمن بن الحـارث المولود سنة ٣هـ ،وقيس بن أبي حازم المولود سنة ٤هـ ،وسعيد بن المسيب المولود سنة ١٤هـ .وهؤلاء التابعون الـذين ينزلـون المنزلـة الثـانية بعـد الصحابة في نشر الاسلام وتبليغ دعوته وقد حملوا الرسالـة المحمـدية الى الانحاء النائية والبلاد المترامية الاطراف ، ولم يكن لهم همّ في الدنيا الا حفـظ الـدين ونشر أحكامـه ، وتبليغ الاسـلام وتعميم سننـه وآدابـه ،

والتعريف بسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وهديه . وقد ذكر ابن سعد في الطبقات ١٣٩ من التابعين أهل الطبقة الاولى الذين كانوا في المدينة وأدركوا كبار الصحابة وسمعوا منهم أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم ورووها عنهم . وذكر ١٢٩ من الطبقة الثانية لقوا عامة الصحابة ورووا عنهم . أما الطبقة الثالثة من التابعين فهم الذين حظي الواحد منهم برؤية صحابي واحد أو عدة من الصحابة ، وعدد هؤلاء ٨٧ ، فمجموع عدد التابعين ٣٥٥ في مدينة واحدة وهي مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقيسوا على ذلك عدد الذين أخذوا عن الصحابة في بقية المدن الاسلامية التي انتشر الصحابة فيها من مكة الى الطائف والبصرة والكوفة ودمشق واليمن ومصر وغيرها . وهؤلاء ـ كما علمتم ـ لم يكن لهم الا نشر رسالة الاسلام وتبليغ اقوال النبي صلى الله عليه وسلم وهديه وسيرته . وانظروا الى اهتمام المؤرخين باستيعابهم واستقصاء أحوالهم في احصاء الاحاديث المروية عن الصحابة . واليكم أسماء بعض الصحابة الذين امتازوا بكثرة ما يحفظونه من الحديث النبوي وعدد ما روي عنهم منه :

اسماء الرواة من الصحابة	عدد مروياتهم	سنة وفاتهم
١ ـ ابو هريرة	٥٣٧٤	٥٩ هـ
٢ ـ عبد الله بن عباس	٢٦٦٠	٦٨ هـ
٣ ـ عائشة الصديقة	٢٢١٠	٥٨ هـ

اسماء الرواة من الصحابة	عدد مروياتهم	سنة وفاتهم
٤ ـ عبد الله بن عمر	١٣٦٠	٧٣ هـ
٥ ـ جابر بن عبد الله	١٥٦٠	٧٨ هـ
٦ ـ أنس بن مالك	١٢٨٦	٩٣ هـ
٧ ـ ابو سعيد الخدري	١١٧٠	٧٤ هـ

وعلى هؤلاء يعتمد في نقل السنة النبوية . والى هؤلاء يرجع الفضل في حفظ الرسالة المحمدية . وان رواياتهم هي التي تدل على النبوة الواضحة والمحجة البيضاء ، فاذا نظرنا الى أعوام وفاتهم بدا لنا أن الله عز وجل قد نسأ في آجالهم وأطال حياتهم وأخر موتهم ، حتى تسنى لكثير من الناس أن يتلقوا عنهم ما حفظوا من أمانات الحديث النبوي ، ويعوا أقوالهم ، وينشروا رواياتهم . ولم يكن العلم يومئذ الا معرفة هذه الامور . وبه كانوا ينالون شرف الدين وعزة الدنيا . فكان الآلاف من الصحابة يبلغون الى الجيل الذي بعدهم ما رأوه بأعينهم وسمعوه بآذانهم من أحوال النبي صلى الله عليه وسلم وأقواله وتشريعه ، لانه صلى الله عليه وسلم هو الذي أمرهم بذلك فقال : « بلغوا عني » و « ليبلغ الشاهد الغائب » ، فكانوا يعلمون أولادهم واخوانهم وأصحابهم وأقرباءهم من الدين والعلم كل ما كانوا يعلمونه ، فكان ذلك شغلهم وهمهم أناء الليل وأطراف النهار وفي الغدو والآصال ، فتعلم النشء الاسلامي الاول حقائق رسالة الاسلام وتفاصيل حياة الرسول منذ ترعرعوا في بيئاتهم التي كانت ساحات للعلم ومدارس يتقلبون في حجرها ، وما لبثوا أن قاموا

مقام الصحابة وسدُّوا مسدَّهم في حفظ هذه الاحاديث ووعي هذه المرويات ، فكان هؤلاء التابعون يحفظونها كلمة كلمة ، ويعيدون روايتها بألفاظها دون أن يخرموا منها كلمة . وكما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحرّض الصحابة على أن يبلغوا عنه ويفقهوا تشريعه وينشروا دعوته وأحكامه ، كان ينهى الناس عن أن يتقولوا عليه ما لم يقل ، أو ينسبوا اليه ما لم يفعل ، وكان ينذر من يتعمد الكذب عليه بأنه سيتبوأ نار جهنم ، لذلك كان كبار الصحابة ترتعد فرائصهم وتمتقع وجوههم عند رواية أحاديث الرسول خوفا من أن يكذبوا عليه أو ينحلوه ما لم يقل . وكان عبد الله بن مسعود اذا قال « قال رسول الله صلى عليه وسلم » استقلته الرعدة وقال « هكذا » أو « نحو ذا » أو « قريب من ذا » .

ومن المعلوم أن ذاكرة العرب كانت قوية ، وكانوا يحفظون آلافا من الشعر ، وينشدونها عن ظهر قلب بلا زيادة ولا نقص . ومن طبيعة البشر انهم اذا أكثروا استعمال قوة من قواهم تزداد هذه القوة قوة وحيوية . وقد مرن الصحابة والتابعون على حفظ الاحاديث حتى بلغوا في ذلك شأواً بعيدا ، وكانوا اذا سمعوا حديثا وعوه وحفظوه كما يحفظ الصبيان سورة الفاتحة في هذه الايام . والمحدّثون كانوا يحفظون ألوفا من أحاديث الرسول بل مئات الالوف ويكتبون بعد ذلك ما كانوا يسمعون ويحفظون ، لكنهم لا يبلغون منزلة الاجلال والاكرام بين العلماء وعند الناس الا بما يحفظونه من المرويات عن ظهر قلب ، ولذلك كانوا يخفون كراريسهم وصحائفهم عن الناس ويكتمونها لئلا يظن الناس بهم أنهم يعتمدون في علمهم على هذه الصحائف ولا يحفظون محتوياتها في صدورهم .

سادتي . ان بعض المستشرقين ودعاة المسيحية ـ وفي مقدمتهم السير

وليم ميور وغولد زيهير- أرادوا أن يشككوا الناس في رواية الحديث عما زعموه من أن تدوين السنّة بدأ بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم بتسعين سنة ، وقد ذكرت لكم فيما سلف كيف كان الصحابة والتابعون يعنون بالاحاديث ويحفظونها ويحتاطون في روايتها حتى لا يبقى مجال للشك في صحتها وصدقها .

والذي دعا الصحابة الى أن لا يقيدوا الاحاديث بالكتابة ثلاثة امور :

اولها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهاهم في بداية الامر عن أن يكتبوا عنه غير القرآن لكيلا يلتبس القرآن بغيره ، فلما حفظ القرآن وصار معروفا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه أذن للصحابة بأن يكتبوا ما يسمعون منه ، ومع ذلك بقي الصحابة يحتاطون في ذلك احتياطا شديدا وكان معظمهم يتحرّجون من كتابة الحديث . وثانيها أن الصحابة كانوا يخشون أن يعتمد الناس في الحديث على الكتابة فيقصرون في حفظها وتدبرها مرتكنين على أنها مكتوبة عندهم ويمكنهم الرجوع اليها عند الحاجة . وقد وقع الذي ظنوه ، فانه كلما ازداد الاهتمام بالكتابة والتدوين قلت العناية بالحفظ . وكذلك كان الصحابة يخشون أن يدعي كل من تكون الأحاديث المكتوبة في متناول يده بأنه عالم ، وقد وقع ما كانوا يحذرون . وثالثها أن العرب كانوا يعدون الاعتماد على الكتابة اعترافا بنقص مواهبهم وضعف حفظهم وفي ذلك غض من شرفهم ، فكانوا يعتمدون على حفظهم ،واذا كتبوا شيئا مما يحفظون كتموا أمره .

كان المحدثون يرون ان الحفظ في الصدور أصون من التدوين في السطور لأن ما يتناقله الناسخون بالكتابة معرّض للتحريف ، واما ما يتلقاه الحافظون الضابطون عن الحافظين الضابطين فانه لا يتطرق اليه

الخطأ ولا يصيبه أي تحريف .

وإنـي لأكشف القنـاع لاول مرة في ناديكم هذا بأن من زعـم أن الاحاديث النبوية لم تدوَّن الى مائـة سنـة أو تسعـين سنـة قد أخطـأ ، والتاريخ يعارضه . والسبب في هذا الخطـأ أن أول كتـاب في الحـديث النبوي كتاب الموطأ لمالك بن أنس ، وأول كتاب في السيرة كتاب المغازي لابن اسحاق ، وهذان الامامان الجليلان كانا متعاصرين وتوفي الأول سنة ١٧٩هـ والثاني سنة ١٥١ هـ ، فاعتبروا العقود الأولى من القرن الثاني بداية تدوين الاخبار والسير ، والأمر ليس كذلك ، فان بواكير التدوين ابتدأت قبل ذلك بكثير ، وقد كان أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز المتوفى سنة ١٠١ هـ عالما جليلاً ولي إمارة المدينة ثم استخلف سنة ٩٩هـ وقـد عهد الى القاضي أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم ـ الذي كان إماماً في الحديث والخبر ـ أن يبـدأ في تدوين سنـن النبـي صلى الله عليه وسلـم وأخباره ، لأنه خاف على العلم ان يرفع شيئاً فشيئـاً خاف درس العلـم وعفـاءه ، وقـد ذكر هذا في تعليقـات البخـاري والموطـأ لمالك والمسنـد للدارمي . فقام بذلك ابو بكر بن حزم ، وكتبـت الاحـاديث والأخبـار والسنن في القراطيس ، وأرسلت الى دار الخلافـة بدمشـق ونسخـت في الصـحف والكتـب وبعـث بها الى البـلاد الاسـلامية وكبـريات المدن يومئذ[1] . فأبو بكر هذا الذي علمتم مكانته من العلـم والفضـل وكان قاضيا بالمدينة المنورة ، هو الذي اختاره عمر بن عبد العزيز لهذا العمل الجليل ، لعلمه وفضله ولأن خالته عمرة كانـت من كبـريات تلاميذ أم المؤمنين عائشة ، وكان ما روته خالته عمرة عن أم المؤمنين عائشة محفوظاً عنده ، فأوعز اليه عمر بن عبـد العـزيز بتـدوين مرويات خالتـه وقـد اختصها بالذكر في كتابه اليه .

---

(١) مختصر جامع بيان العلم للحافظ بن عبد البرص ١٣٨ طبع مصر .

كتابة الحديث في العهد النبوي

وإني لا أعدو الحقَّ اذا قلت : ان كتابة الحديث والسنن والاخبار والسيرة قد بديء بها في عهد النبيﷺ ، فقد جاء في باب كتابة العلم من صحيح البخاري أن رسول الله -ﷺ أمر فكتبت خطبته التي خطبها يوم فتح مكة إجابة لسؤال صحابي من اليمن يدعى أبا شاه . وقد أرسل رسول الله ﷺ رسائله الى الملوك التي يدعوهم فيها الى الاسلام وكلها كانت مكتوبة . والكتاب الذي أرسله الى المقوقس ملك مصر قد وجد ملصقا بدفة كتاب في أحد الأديرة المسيحية في مصر ، ويغلب على الظن أنه هو أصل الكتاب المرسل من النبيﷺ وخطه عربي قديم وعبارته وترتيب كلماته التي تم في الخاتم هي عين ما يروى في الأحاديث ، وهذا من أصدق الأدلة على صدق الأحاديث المروية وصحتها . ويقول أبو هريرة : ما من أحد أحفظ مني لحديث رسول الله ﷺ ولا أكثر مني رواية له ، غير عبد الله بن عمرو بن العاص لأنه كان يكتب كل ما يسمع من النبيﷺ ولم أكن أكتب (صحيح البخاري : باب كتابة العلم) . وفي سنن أبي داود ومسند الامام أحمد ان عبد الله بن عمرو بن العاص قال : كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله ﷺ أريد حفظه ، فنهتني قريش عن ذلك وقالوا : تكتب ورسول الله ﷺ يقول في الغضب والرضا ! فأمسكت ، حتى ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال : « اكتب . فوالذي نفسي بيده ما خرج منه الا حق » . وأومأ بأصبعه الى فيه حين قال ذلك[1] . وسمى عبد

---

(١) مسند أحمد ٢ : ١٦٢ و١٩٢ وسنن أبي داود ٢ : ٢٢ وجامع بيان العلم ٧١ .

الله بن عمرو بن العاص صحيفته هذه (الصادقة) وكان يقول : لقد حبب الحياة إليّ أمران : أحدهما هذه « الصادقة » . . ثم قال : وأما الصادقة فهي صحيفة ما كتبت فيها الا ما سمعت أذناي من رسول الله ﷺ ويقول مجاهد : رأيت عند عبد الله بن عمرو كتابا ، فسألته : ما هذا ! فقال : هذه « الصادقة » فيها ما سمعته من رسول الله ﷺ ليس في ذلك بيني وبين رسول الله ﷺ أحد[1] .

وفي صحيح البخاري أن النبي ﷺ أمر بعد هجرته الى المدينة أن يحصى له كم عدد الذين يلفظون بالاسلام فأحصوا فكان عددهم خمسمائة والفا . وأمر ﷺ فكتبت أحكام الزكاة وما تجب فيه ومقادير ذلك فكتبت مشروحة مفصلة في صفحتين ، وبعث بصورة ذلك الى أمراء البلاد وولاتها ، وبقيت محفوظة في بيت أبي بكر الصديق وأبي بكر بن عمرو ابن حزم[1] . وكان عند عمال الزكاة رسائل فيها أحكام الزكاة . وكان عند عليّ صحيفة في قراب سيفه كتبت فيها أحاديث تتعلق بالأحكام ورآها الناس لما سألوه عن ذلك (صحيح البخاري ٢ : ١٠٨٤ و١٠٢٠) . وفي هدنة الحديبية التي كانت بين المسلمين ومشركي قريش أمر رسول الله ﷺ عليا فكتب كتاب الهدنة في نسختين أعطى المشركين نسخة منها وبقيت النسخة الأخرى عند النبي ﷺ (ابن سعد في المغازي ص٧١) . ولما ولى رسول الله ﷺ عمرو بن حزم اليمن وبعثه اليها اعطاه أحكاما مكتوبة في الفرائض والصدقات والديات (كنز العمال ٣ : ١٨٦) . وتلقى عبد الله بن حكيم كتابا من رسول الله ﷺ فيه أحكام

---

(١) طبقات ابن سعد ٢/٢ ـ ١٢٥

(٢) الدار قطني في كتاب الزكاة ٢٠٩

الحيوانات الميتة (المعجم الصغير للطبراني ص ٢١٧) . ولما أراد وائل بن حجر أن يرجع الى بلاده حضرموت ناوله رسول الله ﷺ كتابا فيه أحكام الصلاة والصوم والربا والخمر وغير ذلك (الطبراني في الصغير ص ٢٤٢) . ولما وجه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب السؤال الى أصحاب رسول الله ﷺ إن كان عند أحد منهم سنة عن النبي ﷺ في نصيب المرأة من دية زوجها قام الضحاك بن سفيان فقال : نعم عندنا كتاب من رسول الله ﷺ يبين فيه ذلك (الدارقطني ٢ : ٤٨٥) .

وكتب عمر بن عبد العزيز في خلافته الى المدينة يسأل عن كتاب رسول الله ﷺ في أحكام الصدقات فوجدت نسخته عند آل عمرو بن حزم (الدار قطني ٤٥١) .

وكان مروان قد خطب في الناس فذكر مكة وحرمتها ، فقال رافع بن خديج بصوت يسمعه الناس : والمدينة حرم حرمها رسول الله ﷺ ، وهو مكتوب عندنا في أديم خولاني إن شئت نقرئكه فعلنا . فناداه مروان : أجل قد بلغنا ذلك (مسند الامام أحمد بن حنبل : ١٤١) . وأرسل الضحاك بن قيس كتابا الى النعمان بن بشير يسأله فيه عن السورة التي كان رسول الله ﷺ يقرأها في صلاة الجمعة غير سورة الجمعة فكتب اليه يقول كان يقرأ « هل أتاك » (صحيح مسلم) . وكتب عمر بن الخطاب الى عتبة بن فرقد كتابا ذكر فيه أن رسول الله ﷺ نهى عن لبس الحرير (صحيح مسلم) . وقد ثبت عندي بالدلائل الواضحة أن كبار الصحابة رضي الله عنهم أرادوا ان يدونوا السنن والاحكام ، بل قد فعل ذلك بعضهم ، وقد جمع أبو بكر في خلافته الاحكام والسنن في كتاب ثم بدا له أن يمحوه (تذكرة الحفاظ للذهبي) ، وعزم عمر بن الخطاب أيام خلافته على جمع السنن ثم بدا له ألا يفعل ، وقد ذكرنا آنفا أن عبد الله بن عمرو بن

العاص جمع باذن رسول الله ﷺ ما كان يسمعه منه في صحيفة وكان الناس يقصدونه ليروها فيطلعهم عليها (سنن الترمذي ٥٨٦) وأتى عبد الله بن عباس بسجل فيه فتاوي علي بن أبي طالب (مقدمة صحيح مسلم) وكان لمرويات عبد الله بن عباس كراريس عدة ، وجاء قوم من أهل الطائف بكراسة منها ليرووها عنه (العلل للترمذي ص ٦٩١) . وكان سعيد بن جبير يكتب روايات عبد الله بن عباس (الدارمي ٦٩) وبقيت صحيفة عبد الله بن عمرو (الصادقة) موجودة عند حفيده عمرو بن شعيب (سنن الترمذي ٦١ و١١٣) وكانوا يضعفون عمرو بن شعيب لأنه يروي من الصحيفة وكان ينبغي له ان يروي من حفظه . وجمع وهب التابعي روايات جابر بن عبد الله وكانت عند اسماعيل بن عبد الكريم وضعفوه لاجل ذلك (تهذيب التهذيب لابن حجر ١ : ٣١٦) . وروى سليمان بن سمرة بن جندب أنه كان عند أبيه صحيفة فيها أحاديث . وكذلك روى ابنه حبيب بن سليمان (تهذيب التهذيب ٤ : ١٩٨) وجمع همام بن منبه روايات أبي هريرة ، وهو أكثر الصحابة رواية وأوعاهم حفظا لاحاديث الرسول ﷺ ، فصارت تعرف صحيفته بين المحدثين بصحيفة همام ، وقد اوردها الامام أحمد بن حنبل في الجزء الثاني من مسنده (ص ٣١٢ - ٣١٨ الطبعة الاولى) . وكذلك بشير بن نهيك كتب مروياته عن أبي هريرة في كتاب وقرأه عليه (كتاب العلل للترمذي ص ٦٩١ . والدارمي ص ٦٨[1]) وذكر ابن حجر في كتابه فتح الباري أن ابي هريرة جاء برجل الى بيته وأراه أوراقا وقال : هذه رواياتي . وقال الذي روى ذلك انها لم تكن مكتوبة بيده (فتح الباري ١ : ١٨٤ - ١٨٥) وكان أنس بن مالك - وهو معروف بكثرة الرواية - يقول لأولاده :

---

(١) والسنن الكبرى للبيهقي ١٠ : ٢٨١

يا بني اكتبوا العلم وقيدوه بالكتابة (الدارمي ص ٦٨) . وكان تلميذه أبان يكتب رواياته بين يديه (الدارمي ص ٦٨) . وروي عن سلمى قالت : رأيت عبد الله بن عباس يستملي أبا رافع خادم رسول الله ﷺ ما كان ﷺ يفعل أو يقول (طبقات ابن سعد ٢/٢ : ١٢٣) . والواقدي وهو من متقدمي المصنفين في السيرة النبوية يقول : رأيت عند عبد الله بن عباس الكتاب الذي أرسله رسول الله ﷺ الى المنذر بن ساوى سيد عمان مع كتب أخرى (زاد المعاد ٢ : ٥٧) . وفي تاريخ الطبري أن عروة بن الزبير كتب جميع ما كان في غزوة بدر مفصلا الى عبد الملك الخليفة الأموي (الطبري ١٢٨٥) .

وكان عبد الله بن مسعود ـ وهو الذي كان يكثر الدخول على رسول الله ﷺ ليلا ونهارا حتى خيل الى الناس أنه من أهل البيت ـ يشكو الناس أنهم يكتبون منه عن رسول الله ﷺ ، لأنه كان لا يستحل أن يكتب غير القرآن حرصا منه على القرآن أن يلتبس به غيره (الدارمي ص ٦٧) . ويقول سعيد بن جبير التابعي كنت أكتب على الأقتاب ما أسمعه في الليل من عبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس ، فإذا أصبحت كتبته واضحا (الدارمي ص ٦٩) . وكان أصحاب البراء بن عازب يكتبون عنده رواياته (الدارمي ص ٦٩) . وكان نافع ـ وقد صحب ابن عمر ثلاثين سنة ـ يملي على الناس (الدارمي ص ٦٩) . وعبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود أخرج كتابا وقال : وايم الله هذا ما كتبته يد ابن مسعود (جامع بيان العلم لابن عبد البر ص ١٧) . وقال سعيد بن جبير : كنا نختلف في بعض الامور فنكتب ذلك ثم نأتي عبد الله بن عمر فنعرضه عليه ونخفي عنه ما كتبنا ولو علم به لكانت الفيصل بيننا وبينه . أي انه لا يأذن لهم بحضور مجلسه (جامع بيان العلم ٣٣) ويقول الأسود التابعي :

وقعت أنا وعلقمة على صحيفة جئنا بها الى ابن عمر فمحاها (جامع بيان العلم ٣٣) . وأن زيد بن ثابت ـ وهو من كتبة الوحي ـ كان لا يرى كتابة شيء إلا القرآن ، فاحتال مروان على أن أجلسه بين يديه وأجلس كاتبا من وراء الستر يكتب ما يقول . وفعل مثل ذلك معاوية بن ابي سفيان رضي الله عنه فاستملاه حديثا ، ولكن زيد بن ثابت فطن لذلك ، فألحّ بمحوه حتى محي (مسند أحمد ٥ : ١٨٢) .

سادتي . لعلكم سئمتم سماع الاسماء ، وضجرتم بهذه الاخبار ، ومللتم ما اقتبسته لكم من هذه النصوص ، فمعذرة وعفوا . ولكننا قد بلغنا الى حيث يتبين لنا الطريق واضحا ، وتبدو لنا الحقيقة جلية .

لقد حاولت أن اثبت لكم هذه الحقيقة الراهنة ، وهي أنه اذا كان لا يوثق الا بما كتب ودوّن ، فأصحاب النبي ﷺ كتبوا بأيديهم في عهده ﷺ ، وجمعوا من أحاديثه في حياته ، وتركوا ذلك لمن بعدهم والذين جاءوا بعدهم أدخلوا في كتبهم . ولا أعدو الحقيقة اذا قلت : ان التابعين رضي الله عنهم جمعوا جميع المرويات في عهد الصحابة ، وكتبوا في حياتهم ما وصل الى علمهم من الاخبار والشئون وبحثوا عن ذلك بحثا طويلا ، وبذلوا فيه جهودهم وسافروا له ، وطرقوا أبواب العلماء والمحدثين ، حتى لقد كانوا يطوون لاجل الحديث الواحد مسافة طويلة وشقة بعيدة . ومن أشهرهم محمد بن شهاب الزهري ، وهشام بن عروة بن الزبير ، وقيس بن أبي حازم ، وعطاء بن أبي رباح ، وسعيد بن جبير ، وأبو الزناد وغيرهم . إن علماء التابعين ـ وكانوا يعدُّون بالمئات ـ جابوا البلاد ، وجالوا خلال الديار وطووا الصحاري والمفاوز وشدوا الرحال الى أصحاب النبي ﷺ ، وكذلك فعل تلاميذهم ، ليرووا أحاديث رسول الله ﷺ ، فجمعوا لنا هذه الذخيرة العلمية ، وربما سافروا وقطعوا مئات

الاميال لحديث واحد . وان محمد بن شهاب الزهري ـ وهـو الامـام في الحديث والسيرة ـ كتب كل ما سمع مما يتعلق برسول الله ﷺ حتى قال عنه أبو الزناد : كنا نكتب الحلال والحرام وكان الزهري يكتب كل شيء (جامع بيان العلم ص ٣٧) . ويقول طاوس بن كيسـان : كنـت أنـا والزهري رفيقين في طلب العلم ، فقلت : لا أكتب إلا السنن ، فكتبت ما يتعلق برسول الله ﷺ ، وقال الزهـري : أكتـب هذا وكل ما يتعلـق بأصحاب النبي ﷺ فانه من السنة . فقلت : ليس ذلك من السنة ، ولم أكتب ذلك وكتبه الزهـري ففـاز وخسرت (طبقـات بن سعـد ٢/٢ : ١٣٥) . وهذا قطرة من بحر . وان المئين من التابعين كانـوا يكتبـون الاحاديث والاخبار ، والزهري واحد منهم ، وان ما كتبه الزهري وحده بلغ فيما رواه معمر أن الدفاتر من علم الزهري حملت على الدواب بعد قتل الوليد وكانت في خزانته .

ولد الزهري سنة ٥٠ للهجرة وتوفي سنة ١٢٤ ، وهو قرشي نسبا ، وقد بذل جهده في جمع الروايات عن سير النبي ﷺ وهديه وأحاديثه حتى لقي في طلب العلم عناء ونصبا ، كما يدل عليه قول المؤ رخين : انه كان يطوف على بيوت الانصار في المدينة ، ويغشى كل بيت منها ، ويسأل عن أحاديث النبي ﷺ وهديه وسيرته كل من يلقاه من نساء ورجال وشيوخ وشباب ، حتى كان يسأل العواتق في خدورهـن عن أحـوال النبـي ﷺ وأقواله ويكتبه (تهذيب التهذيب . في ترجمة الزهري) . وكان لا يزال بعض الصحابة أحياء في حياة الزهري . ثم تلقى عن الزهري كثير من تلاميذه العلماء ويبلغ عددهم المئات ، ولـم يكن لهـم شغـل إلا جمـع الاحاديث وأقوال الصحابة وتعليم الامة الاسلامية الدين ونشر السنة ، وقد انقطعوا كلهم لهذا العمل وفرّغوا أنفسهم له .

ومن أعظم الخطأ في تاريخ تدوين الحديث دعوى بعض الناس أنه بدأ بعد المائة ، وذلك تبعا لخطأهم في تحديد زمن التابعين . فانه لما بلغهم أن التدوين بدأ في عهد التابعين ، وهم يعلمون أن بعض الصحابة امتد بهم العمر الى أواخر المائة الاولى للهجرة ، ظنوا أن عهد التابعين يبدأ بعد انقضاء زمن الصحابة ، فذهبوا الى أن التدوين بدأ بعد المائة ، وهذا كله خطأ . والحق أن عنوان « التابعين » يطلق على الذين لم يدركوا النبيﷺ أو ولدوا في أواخر عهده فلم يروه وانما رأوا أصحابه وأخذوا عنهم ، وعلى أقل تقدير يعد تابعيا من ولد بعد وفاة النبيﷺ (ربيع الاول سنة ١١) ، وأعمال التابعين التي تنسب اليهم يبدأ عهدها من سنة ١١ هـ ، وليس من المحتم أن لا ينسب الى التابعين الا ما صدر عنهم بعد وفاة آخر الصحابة بقاء على قيد الحياة ، فآخر الصحابة بقاء على قيد الحياة امتد زمنه الى أواخر المائة الاولى للهجرة ، وأعمال التابعين ـ ومنها البدء بتدوين الحديث ـ ينبغي أن تنسب الى زمنهم الذي يبدأ من بعد سنة ١١ التي انتقل فيها النبيﷺ الى الرفيق الاعلى .

والحق ان جمع الاحاديث والاحكام والاخبار وتدوينها عند المسلمين له ثلاثة أطوار : الطور الاول هو الذي جمع فيه الرجال ما عندهم من العلم . والطور الثاني هو الذي قام فيه أهل كل مصر من الامصار الاسلامية بتدوين ما عند علماء ذلك المصر من العلم في كتب خاصة بأهل مصرهم . والطور الثالث هو الذي جمعت فيه علوم الدين الاسلامي كلها من جميع الامصار ، ودونت في الدواوين الكبرى والمصنفات الجليلة وهي التي صارت الينا ، ولا تزال بين أيدينا .

والطور الاول استمر الى سنة ١٠٠ هـ وامتد الطور الثاني الى سنة ١٥٠ هـ ، وبدأ الطور الثالث من سنة ١٥٠ هـ الى القرن الثالث للهجرة

أو بعده بقليل . وان الطور الاول هو الذي كان فيه الصحابة وكبار التابعين . والطور الثاني هو الذي كان فيه صغار التابعين وتابعو التابعين . والطور الثالث هو عهد المحدثين وأئمة السنة كالامام محمد بن اسماعيل البخاري ، والامام مسلم صاحب الجامع الصحيح ، والامام الترمذي ، والامام أحمد بن حنبل وغيرهم من المحدثين وما جمع في الطور الاول دوّن في كتب الطور الثاني ، وما دوّن في الطور الثاني جمع ونظم في كتب الطور الثالث . ونرى أمامنا أكثر ما جمع في الطورين الثاني والثالث مدونا في كتب كثيرة تشتمل على آلاف من الاوراق هي في الواقع من أثمن الذخائر العلمية في العالم ، بل لا يوجد في جميع ذخائر الدنيا العلمية أوثق منها سندا وأصح تاريخا ورواية . ولقد صدق الاستاذ العلامة الكبير الشيخ شبلي النعماني حين قال : « لما أرادت الامم الاخرى من غير المسلمين أن تجمع في أطوار نهضتها أقوال رجالها ورواياتهم كان قد فات عليهم زمن طويل ، وانقضى بينها وبينهم عهد بعيد ، فحاولوا كتابة شئون أمة قد خلت ، ولم يميزوا بين غث ذلك الماضي وسمينه ، وصحيحه وسقيمه ، بل لم يعلموا أحوال رواة تلك الاخبار ولا اسماءهم ولا تواريخ ولادتهم ، فاكتفوا بأن اصطفوا من أخبار هؤلاء الرواة المجهولين ورواياتهم ما يوافق هواهم ويلائم بيئتهم وينطبق على مقاييسهم . ثم لم يمض غير زمن يسير حتى صارت تلك الخرافات معدودة كالحقائق التاريخية المدونة في الكتب وعلى هذا المنهاج السقيم صنفت أكثر الكتب الاوربية مما يتعلق بالأمم الخوالي وشئونها ، والأقوام القديمة وأخبارها ، والاديان السالفة ومذاهبها ورجالها . أما المسلمون فقد جعلوا لرواية الاخبار والسير قواعد محكمة يرجعون اليها وأصولا متقنة يتمسكون بها وأعلاها أن لا تروى واقعة من الوقائع الا عن الذي شهدها ، وكلما بعد العهد على هذه الواقعة فمن الواجب تسمية من نقل

ذلك الخبر عن الذي نقله عمن شهد ، وهكذا بالتسلسل من وقت الاستشهاد بالواقعة والتحدث عنها الى زمن وقوعها ، والتثبت من أمانة هؤلاء الرواة وفقههم وعدالتهم وحسن تحملهم للخبر الذي يروونه ، واذا كانوا على خلاف ذلك وجب تبيينه أيضا . وهذه المهمة من أشق الامور ، ومع ذلك فان مئات من المحدثين تفرغوا لها ووقفوا أعمارهم على تحري ذلك واستقصائه وتدوينه ، وطافوا لاجله البلاد ، ورحلوا بين الاقطار ، باحثين دارسين لاحوال الرواة وكانوا يلقون المعاصرين لهم من الرواة لينقدوا أحوالهم ، واذا اطمئنوا الى سيرة فريق منهم سألوهم عما يعرفونه من أحوال الطبقة التي كانت قبلهم ، وقد اجتمع من هذا المجهود العلمي العظيم علم مستقل من العلوم الاسلامية اطلق عليه فيما بعد عنوان (اسماء الرجال) فتيسر لمن أتى بعدهم أن يقفوا على اقدار مئات الالوف من الحفاظ والعلماء والرواة وغيرهم .

هذا فيما يتعلق بالرواية وحملتها ، وهنالك علم نقد الحديث من جهة الدراية والفهم ، وإن له اصولا محكمة وقواعد متقنة اتخذوها لنقد المرويات وتمييز صحيحها من سقيمها وغثها من السمين والراجح من المرجوح ، وقد تحرّى علماء السنة في هذا الامر الحق وحده وتمسكوا فيه بالمحجة البيضاء وكل ما يؤدي اليه الصدق ، فكان عملهم هذا من مفاخر الاسلام . وانت تعلم أن ممن تحمل الرواية رجالا من الولاة والحكام والامراء الذين يخشى جانبهم ويحذر الناس بطشهم وجبروتهم ، فكان المحدثون يلتزمون فيهم قول الحق وينزلونهم في المنازل التي يستحقونها ، ولا يبالون ما ربما يصيبهم من مكروه بسبب هذه المصارحة بما يرضي الله ويصون أمانات الاسلام . وكان وكيع محدثا كبيرا ، وكان أبوه عاملا للدولة على بيت المال ، فكان اذا روى عن أبيه شيئا عضده برواية راو

آخر ، فاذا انفرد ابوه برواية خبر توقف وكيع عن الاخذ بذلك حتى تعضده رواية أخرى . فهل رأيت مثل هذا الاحتياط ومثل هذه المبالغة في التثبت عند أهل ملة أخرى غير ملة الاسلام ؟ ويقول الامام معاذ بن معاذ رأيت المسعودي في سنة ١٥٤[1] يطالع كتاب . يعني أنه قد تغير حفظه[2] ، ومما يثير العجب والاستغراب ان الامام معاذ بن معاذ تقدم إليه رجل بألف دينار على أن لا يكتب في كتابه شيئا عن رجل سماه فلا يوثقه ولا يجرحه بل يسكت عنه ، فرفض الامام ذلك المال بشدة وقال اني لا أكتم الحق[3] فهل يعرف أحد في تاريخ البشر مثالا للاحتياط في العلم والامانة للحق والاستقامة على منهج الصدق أعلى من هذا المثال ؟ على أن جميع مرويات السنة لا تزال محفوظة كما هي الى زماننا هذا ، وان قواعد النقد الموضوعة ، وأحوال الرواة الممحصة ، قد يسرت لكل من شاء حتى في زماننا هذا وفي كل زمان أن يميز بها بين الصحيح والسقيم والغث والسمين والراجح والمرجوح والقوي والضعيف .

سادتي . لقد شغلت شطرا من وقتكم الثمين بايراد هذه الامور العلمية التي قلما يستطيبها السامعون ، لكنني فيما أظن قد استعرضت لكم انحاء مختلفة من السيرة النبوية ومثلت أمامكم جوانبها التاريخية المتنوعة . وأريد أن الفت أنظاركم الى المصادر التي أخذت عنها سيرة النبي ﷺ وهديه ، وكيف دونت تلك المصادر وجمعت . وان أهم ما في سيرته ﷺ وأوثقها وأكثرها صحة هو ما اقتبس من القرآن الحكيم الذي لا يأتيه

---

(١) هو عبد الرحمن بن عبد الله بن عتبة بن عبد الملك بن مسعود . توفي سنة ١٦٥ هـ .

(٢) تهذيب التهذيب ٦ : ٢١١

(٣) تهذيب التهذيب

الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من عزيز حميد ، وهو الذي لم يشك في صحته العدو اللدود فضلا عن الحبيب الودود . والقرآن يقص علينا جميع مناحي السيرة النبوية وطرفا من حياته ﷺ قبل النبوة ، فيذكر لنا يتمه وفقره وتحنثه ، كما يذكر لنا شئونه بعد النبوة من هبوط الوحي الالهي عليه وتبليغه اياه والعروج به وعداوة الاعداء وهجرته وغزواته ، وفي القرآن الكريم ذكر أخلاقه ﷺ ، كل ذلك تراه مذكورا في القرآن ببيان واضح وأسلوب متين رائق ، ومن ذلك تعلمون انه لم تطرق اذن التاريخ سيرة رجل بأحسن ولا أصح ولا أوثق من سيرة محمد ﷺ .

والمصدر الثاني من مصادر السيرة النبوية كتب الحديث ، وهي كتب حفظت لنا من أقوال النبي ﷺ وأفعاله وأحواله ما يبلغ مائة ألف حديث ، وقد امتاز الصحيح منها عن الضعيف والموضوع ، والقوي منها عن غير القوي . ومن الكتب المصنفة في الحديث الكتب الستة الصحاح التي محص العلماء كل ما ورد فيها وذكروا شواهده ومتابعاته حتى لم يتركوا في النفوس منزع ظفر لمحقق منصف بل ولا لمدقق جائر . ويتلو الكتب الستة كتب المسانيد ، واعظمها مسند الامام احمد بن حنبل في ستة مجلدات كبار كل مجلد منها يحتوي على نحو خمسمائة صفحة من القطع الكبير بحروف دقيقة . وقد تضمن هذا المسند مرويات كل صحابي مجموعة ومذكورة على حدة ، وفي هذه المجموعات جميع تعاليم الرسول ﷺ وأحواله وسيرته غير مرتبة على المواضيع .

والمصدر الثالث كتب المغازي ، ومعظم ما فيها ذكر الغزوات النبوية ، وقد تتضمن امورا اخرى . ومن المصنفات القديمة في المغازي مغازي عروة بن الزبير المتوفي سنة ٩٤ هـ ، ومغازي الزهري المتوفي سنة ١٢٤ ، ومغازي موسى بن عقبة المتوفي سنة ١٤١ هـ ، ومغازي ابن

اسحاق المتوفي سنة ١٥٠ هـ ، ومغازي زياد البكائي المتوفي سنة ١٨٢ ، ومغازي الواقدي المتوفي سنة ٢٠٧ وغيرهم .

والمصدر الرابع كتب التاريخ الاسلامي العام التي تبتدىء بالسيرة النبوية ومن أوثقها واصحها وأطولها وأضخمها طبقات ابن سعد ، وتاريخ الرسل والملوك للامام أبي جعفر الطبري ، والتاريخ الصغير والتاريخ الكبير لمحمد بن اسماعيل البخاري ، وتاريخ ابن حيان ، وتاريخ ابن ابي خيثمة البغدادي المتوفي سنة ٢٩٩ هـ وغيرهم .

والمصدر الخامس الكتب التي ألفت في المعجزات ، وتسمى بكتب الدلائل ومنها دلائل النبوة لأبي اسحاق الحربي المتوفي سنة ٢٥٥ هـ ودلائل النبوة لابن قتيبة المتوفي سنة ٢٧٦ هـ ، ودلائل النبوة للامام البيهقي المتوفي سنة ٤٣٠ هـ ، ودلائل النبوة لأبي نعيم الاصفهاني المتوفى سنة ٤٣٠هـ، ودلائل النبوة للمستغفري المتوفي سنة ٤٣٢هـ، ودلائل أبي القاسم اسماعيل الاصفهاني المتوفي سنة ٥٣٥ هـ ، وأضخمها وأبسطها كتاب الخصائص الكبرى للجلال السيوطي المتوفي سنة ٩١١ هـ .

والمصدر السادس كتب الشمائل ، وهي مقصورة على ذكر اخلاق النبيﷺ وعاداته وفضائله ، وما كان يعمل في يومه من الصباح الى المساء ، وفي ليله من المساء الى الصباح . وأشهر هذه الكتب وأولها (كتاب الشمائل) للحافظ الترمذي . وقد كتب كبار العلماء زيادات عليه أهمها وأضخمها وأطولها (كتاب الشفا في حقوق المصطفى) للقاضي عياض ، وقد شرحه الشهاب الخفاجي وسماه نسيم الرياض ، وصنف في هذا الموضوع علماء آخرون ، منها كتاب (شمائل النبيﷺ) لأبي العباس المستغفري المتوفي سنة ٤٣٢ هـ ، و(النور الساطع) لابن المقرى

الغرناطـي المتـوفي سنـة ٥٥٢ هـ ، و(سفـر السعـادة) لمجـد الـدين الفيروزابادي المتوفي سنة ٨١٢ هـ .

يضاف الى ما ذكرناه الكتب التي صنفها بعض العلماء المتقدمين في أحوال مكة المعظمة والمدينـة المنـورة وذكروا فيهـا ما في هذين البلـدين الطيبين من بقاع وأماكن وأودية وجبال وخطط ، وذكروا من تولى إماراتها بادئين بكل ما له علاقة بالنبي ﷺ . وأقدم كتاب في هذا الموضوع (أخبار مكة) للازرقي المتوفي سنة ٢٢٣ هـ ، و(أخبار المدينة) لعمـر بن شبـة المتوفي سنة ٢٦٨ هـ ثم أخبار مكة للفاكهي وأخبار المدينة لابن زبالة .

سادتي : لقد عرضت عليكم أسماء الكتب في السيرة النبوية وذكرت لكم ما صنف في هذا الباب من قديم الزمان ، ومنه يعلم القارىء مكانة السيرة المحمدية من التاريخ ، وأن هؤلاء المحدثين والخلفاء الاسلاميين لم يقتصروا على حفـظ الـروايات عن ظهـر قلـب وتقييدهـا بالكتابـة وحسب ، بل اتخذ الولاة والخلفاء معاهد لكبار العلماء والأئمـة يتولـون التدريس فيهـا ، وأقامـوا المباني في المسـاجـد ليشتغـل فيهـا المعلمـون والمدرسون من كبار العلماء بتعليم المغازي ، وكان عاصم بن عمر المتوفي سنة ١٢١ هـ - وهو حفيد قتادة الصحابي - يدرس في المسجـد الجامع بدمشق بأمر الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه .

والذي ألفه الناس في سيرة النبي ﷺ من عهد الرسالة إلى يومنا هذا في مختلف الأوطان الاسلامية والأجنبية في معظم لغات العالم يعد بالألوف ، واعتبر ذلك بما صنف باللغة الأوردية الحديثة وحدها في موضوع السيرة النبوية ، مع أن الاوردية لم تصر لغة تاليف إلا منذ قرنين على الأكثر ، وفي تقديري أن ما صنف بها وحدها في السيرة النبوية يبلغ الفا إن لم يزد عليه .

ودع عنك المسلمين وما صنفوا في سيرة نبيهم ﷺ فانهم يحبونه حبا عظيما ويقدمون ذلك بين يدي الله فرطا وذخرا لهم يوم القيامة . وتعال ننظر الى من ألف في سيرته ممن لا يؤمنون بنبوته ، ولا يوقنون برسالته ، فاننا نجد في الهند نفسها على اختلاف مللها : من الهنادك والسيخ والبرهمو سماج كثيرا من علمائهم قد ألفوا في سيرته ﷺ ، أما الأوربيون الذين لا يدينون بالاسلام ولا يؤمنون بالرسالة المحمدية فقد صنف منهم في سيرة النبي ﷺ حتى المبشرون من دعاة النصرانية والمستشرقون ، عناية منهم بالتاريخ وإرواء لظمأهم العلمي ، ويعد ما ألفوه في ذلك بالمئات . وكنت قرأت في مجلة المقتبس التي كانت تصدر في دمشق قبل نحو أربعين سنة إحصاء لما صنف في السيرة النبوية بمختلف اللغات الاوربية فبلغ نحو ثلاثمائة كتاب وألف كتاب ، ولو أضفنا إلى هذا العدد ما صدر من المطابع الاوربية في السيرة النبوية خلال الاربعين سنة بعد ذلك الاحصاء الذي نشرته مجلة المقتبس لأربى على ذلك كثيرا . وإن مرجوليوث الذي كان استاذا للغة العربية في جامعة أوكسفورد أصدر في سنة ١٩٠٥ كتابه (محمد) وجعله حلقة في سلسلة « عظماء الامم » وهو لم يكتب كتابه هذا ليثني فيه على رسول الله محمد ﷺ ، بل لعله لم يؤلف كاتب بالانجليزية كتابا أشد تحاملا على النبي ﷺ مما جاء في هذا الكتاب ، وقد حاول مرجليوث أن يشوه كل ما يتعلق بالسيرة الشريفة وأن يشكك في أسانيدها ولم يأل جهدا في نقض ما أبرمه التاريخ ومعارضة ما حققه المحققون من المنصفين ، لكنه مع كل هذا لم يتمالك عن الاعتراف في مقدمة كتابه بأن الذين كتبوا في سيرة محمد ﷺ لا ينتهي ذكر اسمائهم ، وأنهم يرون أن من الشرف للكاتب أن ينال المجد بتبوئه مجلسا بين الذين كتبوا في السيرة المحمدية .

The Biographers of the Prophet Mohammad from a long series it is impossible to end, but in which Would be honourable to find a place.

وقد كتب جون ديون بورت في سنة ١٨٧٠ كتابا بالانجليزية في السيرة المحمدية عنوانه (اعتذار من محمد والقرآن Appologey for Mohammad and Quran) والذي يقرأه يخيل اليه أنه كتبه بنزعة الاخلاص والانصاف ، ويقول في مقدمته : لا ريب أنه لا يوجد في الفاتحين والمشرعين والذين سنوا السنن من يعرف الناس حياته وأحواله بأكثر تفصيلا واشمل بيانا مما يعرفون من سيرة محمدﷺ وأحواله .

وألقى ريورند باسورث سميث Basworth Smith عضو كلية التثليث في أوكسفورد سنة ١٨٧٤ محاضرات عن (محمد والمحمدية) في الجمعية الملكية لبريطانيا العظمى طبعت فيما بعد في كتاب ، وقد قال في احدى هذه المحاضرات وأحسن فيما قال وأجاد « كل ما يقال في الدين يغلب فيه الجهل ببدايته ، ومما يؤسف له أن هذا يصح اطلاقه على الديانات الثلاث[1] وعلى أصحابها الذين نعدهم تاريخيين لاننا لا نعلم لهم وصفا أحسن من هذا الوصف ، فاننا قلما نعلم عن الذين كانوا في طلائع الدعوة ، والذي نعلمه عن الذين جاءوا بعدهم واجتهدوا في نشر عقائدهم أكثر من الذي نعلمه عن اصحاب الدعوة الاولين . فالذي نعلمه من شئون زردشت وكونفوشيوس اقل من الذي نعلمه عن سولون وسقراط . والذي نعلمه عن موسى ، وبوذا أقل مما نعلمه عن أمبرس Ambrase وقيصر . ولا نعلم من سيرة عيسى الا شذرات تتناول شُعبا قليلة من شعب حياته المتنوعة والكثيرة . ومن ذا الذي يستطيع أن يكشف

---

(١) يريد ديانات بوذا وكونفوشيوس وزردشت .

لنا الستار عن شئون ثلاثين عاما هي تمهيد واستعداد للثلاثة أعوام التي علم بها من حياته . انه بعث ثلث العالم من رقدته ، ولعله يحيي أكثر مم أحيا ، وحياته المثالية بعيدة عنا مع قربها منا ، وانها تتراوح بين الممكن والمستحيل . بيد أن كثيرا من صفحاتها لا نعلم عنها شيئا أبدا ، وما الذي نعلمه عن أم المسيح ، وعن حياته في بيته ، وعيشته العائلية . وما الذي نعلمه عن أصحابه الاولين ، وحواريه ، وكيف كان يعاملهم ، وكيف تدرجت رسالته الروحية في الظهور ، وكيف فاجأ الناس بدعوته ورسالته ، وكم وكم من اسئلة تجيش في نفوسنا ولن يستطيع أحد ان يجيب عليها الى يوم القيامة ؟!

أما الاسلام فأمره واضح كله ، ليس فيه سر مكتوم عن أحد ، ولا غمة ينبهم أمرها على التاريخ . ففي أيدي الناس تاريخه الصحيح ، وهم يعلمون من أمر محمد ﷺ كالذي يعلمونه من أمر لوثر وملتن . وانك لا تجد فيما كتبه عنه المؤرخون الاولون أساطير ولا أوهاما ولا مستحيلات واذا عرض لك طرف من ذلك أمكنك تمييزه عن الحقائق التاريخية الراهنة ، فليس لأحد هنا أن يخدع نفسه أو يخدع غيره ، والامر كله واضح وضوح النهار ، كأنه الشمس رأد الضحى يتبين تحت أشعة نورها كل شيء » .

لقد ألف المسلمون في السيرة النبوية ألوف الكتب بل أكثر من ذلك ، ولا يزالون ماضين في التأليف فيها ، وكل كتاب في السيرة المحمدية مهما كان لا ريب إنه اوضح بيانا وأوثق رواية واكثر صحة من كل ما كتبه الناس في قصص النبيين وسيرهم عليهم السلام . والكتب الاولى في السيرة المحمدية تلقاها عن أصحابها مئون وآلاف من تلاميذهم واتقنوها فهما وأحكموها فقها ولم يتركوا فيها كلمة غامضة ولا عبارة معضلة الا

أوضحوا مبهمها وحلوا معضلها . وأول كتاب عندنا في الحديث النبوي كتاب الموطأ للامام مالك بن أنس ، وقد سمعه من مؤلفه ستمائة من تلاميذه فيهم الخلفاء والولاة والعلماء والفقهاء والادباء والزهاد والنساك . والجامع الصحيح لأبي عبدبن اسماعيل البخاري تلقاه ستون الفا من أهل العلم عن تلميذ واحد من تلاميذه وهو الامام الفربري . فهل في العالم دين احتاط أهله مثل هذا الاحتياط واهتموا مثل هذا الاهتمام في كل ما يتعلق بأمر نبيهم وهدايته ، وهل ألف في هذا الباب تأليف أكثر صحة وأعظم ثقة وثبتا ، وهل نال مثل هذه الصحة التاريخية دين غيره ، وهل حفظ التاريخ من تفاصيل حياة نبي من الأنبياء عليهم السلام مثل الذي حفظه من سيرة محمد ﷺ ؟

المحاضرة الرابعة

في السيرة المحمدية من ناحية كمالها وتمامها واحاطتها بشؤون الحياة البشرية

سادتي واخواني . موضوع كلامنا اليوم في ان السيرة المحمدية هي السيرة التامة الكاملة الشاملة لجميع أطوار الحياة . وما من حياة أحد - مهما بلغت من صحة التاريخ وثبوت الرواية - يصح أن يكون منها للناس اسوة تتبع ومثال يقتدى به الا اذا كانت متصفة بالكمال ، ولا تكون حياة أحد كاملة ومنزهة عن العيوب والمثالب الا اذا كانت معلومة للناس بجميع أطوارها ومتجلية لهم دخائلها من كل مناحيها . وحياة محمد ﷺ من ميلاده الى ساعة وفاته معلومة للذين عاصروه وشهدوا عهده ، وقد حفظها التاريخ عنهم لمن بعدهم ، وهو في حياته لم يحتجب عن عيون قومه الا مدة يسيرة ليعد عدته للمستقبل وليهيء الاسباب لحياته القابلة . ان جميع شئونه وأطوار حياته - من ولادته ورضاعته وطفولته الى أن صار يافعا وشابا - كل ذلك ظاهر أمره معلومة تفاصيله . وقد علم التاريخ عن هذا النبي ﷺ باشتغاله في التجارة وكيفية زواجه ، وعلم الناس سجاياه في صداقته وفي وفائه للناس قبل النبوة ، واتصلوا به حين اتخذوه امينا وأقاموه حكما فيما اختلفوا فيه من نصب الحجر الأسود في موضعه من الكعبة ، ثم وقفوا على أمره حين حبب الله اليه الخلوة فاعتزلهم في غار حراء ، ثم علموا حاله حين نزل عليه الوحي من رب العالمين ، وحين بدأ امر الاسلام يظهر للوجود فأخذ يدعو الناس اليه ويبلغ ما أنزل عليه . وقد رأى التاريخ كيف خالفوه وعاندوه . وهل غاب عن التاريخ ما لقي ﷺ في نشر الاسلام من جهد وعناء ، وما قابله به

أهل الطائف حين سار اليهم ينهاهم عن عبادة الاوثان ويأمرهم بعبادة الرحمن . وهل نسي التاريخ حين أخبر أهل مكة ـ وهم أقلية قليلة من المسلمين وأكثرية ساحقة من المشركين ـ بخبر العروج به الى السماء ، ثم هل خفي عن التاريخ أمر هجرته ومع من هاجر والغزوات التي غزاها ، والاسباب الباعثة عليها ، وموقفه من الهدنة اذا هادن وعهوده اذا عاهد ، وما صلح الحديبية بسر . والذين طالعوا كتب السيرة النبوية يعلمون ما ذكرنا وما لم نذكر ، وقد وقفوا على كتبه ﷺ الى الملوك والاقيال والولاة يدعوهم فيها الى دين الله ، دين السلام والوئام ، وعرفوا جهاده في سبيل الحق وما بذله في تبليغ دعوة الاسلام الى الناس ، الى أن أكمل الله للانسانية دينها ، وحج ﷺ حجة الوداع ، وتوفاه الله اليه . فهل في شيء من ذلك ما يجهله التاريخ ، وهل فيما يتعلق بهذا الرسول الأعظم ورسالته ما أسدل عليه ستار من خفاء ؟ ان كل ما ينسب اليه ﷺ أو يعزى اليه من حق أو باطل وصدق أو كذب وصحيح أو فاسد معلوم بالتفصيل وواضح أمره للناقدين وقد يخطر ببال سائل أن يسأل : ما بال المحدثين حفظوا موضوعات الاحاديث وضعافها ، وهل اكتفوا بالصحيح وأهملوا غيره ؟ والذي ينعم النظر في ذلك يبدو له من المصلحة أن لا يوجه القادحون اللائمة الى المسلمين بأن هنالك مرويات قضوا عليها وأخبار نبذوها ليخفوا من أمر نبيهم ما فيه من مغمز. كما يطعن الطاعنون في هذه الايام على الاخبار المسيحية لاجل ذلك . أما المحدثون الكرام من علماء المسلمين فقد جمعوا كل ما له علاقة بالنبي ﷺ صحيحا كان أو سقيما حقا او باطلا وجعلوا لنقده قواعد وأصّلوا لتحقيقه أصولا يرجع اليها في تمييز الصحيح من الفاسد والغث من السمين . وهم قد حفظوا شئون حياة النبي ﷺ واحواله واخباره كلها ولم يتركوا أمرا من أموره ولا شأنا من شئونه الا ذكروه . حتى لقد وصفوه في

قيامه وجلوسه ونهوضه من النوم وهيئته في ضحكه وابتسامه وعبادته في ليلة ونهاره ، وكيف كان يفعل اذا اغتسل واذا أكل ، وكيف كان يشرب ، وماذا كان يلبس ، وكيف يتحدث الى الناس اذا لقيهم ، وما كان يحب من الألوان ومن الطيب ، وما هي حيلته وشمائله ـ ووصفوا جسده الطاهر وصفا كاملا كأنك تراه . ووصفوا حياته العائلية من معاشرة الرجل أهله وحليلته وأتبعوا ذلك بذكر الطهارة من الغسل فوصفوا ذلك كما وصفوا الوضوء للصلاة .

وأستعرض لكم فهرسة أقدم كتاب في الشمائل للترمذي لتعلموا كيف ضبط المسلمون أحوال النبيﷺ وأحصوا أخباره جليلها ودقيقها خطيرها وحقيرها كثيرها وقليلها : (١) باب ما جاء في حلية النبيﷺ ، (٢) في ذكر شَعره ، (٣) في ترجله ، (٤) شيبه ، (٥) خضابه ، (٦) كحله ، (٧) لباسه ، (٨) عيشه ، (٩) خفه ، (١٠) نعله ، (١١) خاتمه ، (١٢) صفة سيفه ، (١٣) درعه ، (١٤) مغفره ، (١٥) عمامته ، (١٦) إزاره ، (١٧) مشيته ، (١٨) تقنعه ، (١٩) جلسته ، (٢٠) فرشه ووسادته ، (٢١) ما جاء في اتكائه ، (٢٢) صفة أكله ، (٢٣) خبزه ، (٢٤) إدامه ، (٢٥) وضوؤه ، (٢٦) ما يقوله قبل الطعام وبعده ، (٢٧) قدحه ، (٢٨) فاكهته ، (٢٩) شرابه ، (٣٠) صفة شربه ، (٣١) تعطره وتطيبه ، (٣٢) كيف كان كلامه ، (٣٣) انشاده الشعر ، (٣٤) مسامرته وقصصه ، (٣٥) نومه ، (٣٦) عبادته ، (٣٧) ضحكه وتبسمه ، (٣٨) مزاحه ، (٣٩) صلاته بعد طلوع الشمس ، (٤٠) تطوعه في بيته ، (٤١) صومه ، (٤٢) تلاوته القرآن ، (٤٣) بكاؤه وخشوعه ، (٤٤) فراشه ، (٤٥) تواضعه ، (٤٦) أخلاقه ،

(٤٧) أسماؤه الكريمـة ، (٤٨) معاشرتـه ، (٤٩) سنـه ، (٥٠) وفاته ، (٥١) ميراثه ، (٥٢) حجامته .

ذلك مما يتعلق بنفسه الشريفة وشخصه الكريم ، وهنـالك أحاديث عن كل طور من أطوار حياته وناحية من نواحيها ، كل ذلك في وضوح وجلاء بحيث لم يبق شيء من حياته مخفيا أمره مكتوما سره ، فاذا دخل بيته فهو بين اهله وعيالـه وأولاده ، وإن خرج منـه فهـو بـين أصحابه ورفقائه ، وكل ذلك محفوظ مذكور مشهور .

اخواني . إن اعظم الناس وأجهلهم ، اذا انقلب الى بيتـه كان فيه رجلا من الرجال وواحدا كآحاد الناس ، ولقد صدق فولتـير في كلمتـه المشهورة : « ان الرجـل لا يكون عظيما في داخـل بيتـه ، ولا بطـلا في أسرته » يريد أن عظمة المرء لا يعترف بهـا من هو أقـرب النـاس اليه ، لاطلاعه على دخيلته في مباذله . وهذا الحكم يشـذ عن الرسـول ﷺ ، فيقول باسورث سمث ان ما قيل عن العظماء في مباذلهم لا يصح ـ على الاقل ـ في محمد رسول الاسلام ، واستشهد بقول كبن : « لـم يمتحـن رسول من الرسل أصحابه كما امتحن محمد أصحابه ، انه قبل أن يتقدم الى الناس جميعا ، تقدم الى الذين عرفوه انسانا المعرفة الكاملة فطلب من زوجته وغلامه وأخيه وأقرب اصدقائه اليه وأحب خلانه أن يؤ منوا به نبيا مرسلا . فكل منهم صدق دعواه وآمن بنبوتـه . وان حليلـة المرء أكثـر الناس علما بباطن أمره ودخيلة نفسه وألصقهـم به ، فلا يوجـد من هو أعرف منها بهناته ونقائصه ، أليس أن اول من آمن بمحمـد رسـول الله زوجه الكريمة التي عاشرته خمسة عشر عاما ، واطلعـت على دخائلـه في جميع اموره وأحاطت به علما ومعرفة ، فلما ادعى النبوة كانـت أول من صدقه في نبوته .

ان اعظم الناس لا يأذن لزوجه ـ وان كانت له زوج واحدة بأن تحدث الناس عن جميع ما تراه من حليلها ، وأن تعلن كل ما شاهدته من أحواله . لكن رسول الله كانت له في وقت واحد تسع زوجات ، وكانت كل منهن في إذن من الرسول بأن تقول عنه للناس كل ما تراه منه في خلواته ، وهن في حل من أن يخبرن الناس في وضح النهار كل ما رأين منه في ظلمة الليل ، وان يتحدثن في الساحات والمجامع بما يشاهدن منه في الحجرات . فهل عرفت الدنيا رجلا كهذا الرجل يثق بنفسه كل هذه الثقة ويعتمد عليها الى هذا الحد ولا يخاف قالة السوء عنه من أحد لانه ابعد الناس عن السوء . هذا ما يتعلق بذات الرسول ، وأما ما تحلت به نفسه من دماثة الخلق ورجاحة العقل وحصافة الرأي وكرم النفس وعلو الهمة ورحابة الصدر فان كتب الحديث ملأى بتفاصيله . وأحسن كتاب في ذلك كتاب (الشفا) للقاضي عياض الاندلسي . وقد قال لي يوما وانا في فرنسا مستشرق اسمه ماسنيون : يكفي لتعرف أوربا محاسن رسول الله محمدﷺ ومحامده أن ينقل كتاب (الشفا) للقاضي عياض الى احدى اللغات الاوربية .

انني بوبت في الجزء الثاني من السيرة عند ذكر شمائلهﷺ هذه الامور : خلق رسول اللهﷺ ، وحليته ، وخاتم النبوة ، وشعره ، ومشيته ، وكلامه وضحكه وتبسمه ، ولباسه ، وخاتمه ، ومغفره ، ودرعه ، وطعامه ، وصفة أكله ، وسنن طعامه ، وشارته ، واللون المحبب اليه ، واللون الذي كان يرغب عنه ، وتعطره ، وحبه للنظافة والطهارة ، وركوبه . وذكرت في أشغاله : ما كان يعمله في نهاره من الصباح الى المساء ، ثم نومه ، وتهجده ، ووظائفه في الصلوات ، وأسلوب خطبته ، وأعماله في السفر ، وأعماله في الجهاد ، وسنته في عيادة المرضى ، وتعزيته أهل الميت ، وسنته في لقاء الناس وعامة أشغاله .

واليكم ما ذكرت عن مجلسه ﷺ : مجالس الارشاد ، آداب المجلس ، أوقات جلوسه مع الناس ، مجالسه الخاصة بالنساء ، طريقة هديه وارشاده ، لقاؤه الناس بالبشاشة والبشر ، تأثير صحبته فيمن يصحبه وأسلوب كلامه معهم ، وأنواع خطبه النبوية وأثرها في السامعين . ومن العناوين التي وردت فيا ذكرته عن عبادته : دعاؤه ، صلاته ، صومه ، زكاته وصدقاته ، حجه ، مداومته ذكر الله ، ذكره الله عز وجل في مواقف القتال ، خشيته من الله ، بكاؤه ، محبته لله ، توكله عليه ، صبره ، شكره لمفيض النعم جل جلاله . ومما جاء في كتابي المذكور عن اخلاقه ﷺ : أخلاقه بالتفصيل ، مواظبته على العمل ، مكارم أخلاقه ، حسن معاملته للناس ، عدله ، جوده وكرمه ، إيثاره ، ضيافته وقراه ، كراهته سؤال الناس ، اباؤه لأموال الصدقة ، قبوله الهدية ، ترفعه عن فضل الغير ومنته ، تنزهه عن الفظاظة ، وموقفه من التقشف ، وكرهه للهجاء والمدح ، والتزامه عدم التكلف في الحياة ، وبعده عن التأنق في المشرب والمأكل ، إجتنابه الرياء والخيلاء ، مساواته ، تواضعه ، كرهه للمبالغة في التعظيم والاطراء ، حياؤه ، عمله بيده ، عزيمته ، شجاعته ، صدقه في القول ، وفاؤه بالوعد ، زهده في الدنيا ، قناعته ، حلمه ، عفوه عن الناس ، صفحه عن اعدائه ، احسانه اليهم ، معاملته للكافرين والمشركين ، معاملته لليهود والنصارى ، حبه الفقراء والمساكين ، عفوه عن أشد اعدائه ، دعاؤه لاعدائه بالخير ، شفقته على الصبيان ، معاملته للنساء ، رحمته بالحيوان ، ما فطر عليه من الرحمة والمحبة بوجه عام ، لين قلبه ورقته ، عيادته للمرضى ، سجاجة خلقه ودماثته ، محبته لأولاده ، معاشرته لازواجه الطاهرات ، هديه في المراسلة ، معالجته لأمراض النفس وأمراض البدن .

وقد استقصى الحافظ ابن القيم في كتابه (زاد المعاد) كل ما ينبغي معرفته عن النبي ﷺ وأحواله ، فاستوعب ذلك أكثر من غيره من

المؤلفين . واليكم فهرس ما ورد فيه عن أحواله الخاصة ﷺ وشئونه اليومية : هديه في ارسال الكتب والرسائل ، هديه في الاكل وذكر كيفيته ، هدية في النكاح ومعاشرة الاهل ، هدية في نومه وانتباهه ، هدية في ركوب الدواب ، هدية في العبيد والاماء ، هدية في البيع والشراء والتعامل مع الناس ، هديه عند قضاء الحاجة ، هديه في أمور الفطرة ، هديه في قص الشارب ، هديه في كلامه وسكوته وضحكه وبكائه ، هديه في خطبته ، هديه في وضوئه ، هديه في مسح الخفين ، هديه في التيمم ، هديه في الصلاة ، هديه في الجلسة بين السجدتين ، هديه في السجود ، كيفية توركه في القعدة الاخيرة بعد السجدة ، هديه في جلوسه واشارته بالتشهد ، هيئة تسليمه عند الخروج من الصلاة ، دعاؤه بعد التسليم ، هديه في سجدة السهو ، هديه في السنن الرواتب وصلاة التطوع في الحضر والسفر وفي المسجد والبيت ، هديه في قيام الليل (التهجد) ، اضطجاعه بعد سنة الفجر ، صلاته في الليل ووتره . صلاته جالسا بعد الوتر ، قنوت الوتر ، هدية في قراءة القرآن وترتيله ، هديه في صلاة الضحى ، هديه في سجود الشكر ، هديه في سجدات القرآن ، هديه في الجمعة ، هديه في عبادات الجمعة ، هديه في خطبة الجمعة ، هديه في العيدين ، هديه في صلاة الخوف وصلاة الكسوف ، هديه في الاستسقاء ، هديه في السفر والتطوع فيه ، هديه في الجمع بين الصلاتين ، هديه في تلاوة القرآن والاستماع له ، هديه في عيادة المرضى ، هديه في الجنائز والاسراع بها ، هديه في تسجية الميت ، هديه في السؤال عن الميت اذا حضرت جنازته ، هديه في الصلاة على الجنازة ، هديه في الصلاة على جنازة الصغير ، هديه في تركه الصلاة على قاتل نفسه والغال ، هديه في المشي أمام الجنازة ، هديه في الصلاة على الميت الغائب ، هديه في قيامه للجنازة اذا مرت به ، هديه في التعزية ؛ وزيارة

القبور ، هديه في الاكثار من العبادة في رمضان ، هديه في الصوم عند رؤية الهلال ، والافطار لرؤية الهلال ، هديه في قبول الشهادة لرؤية الهلال ، هديه في الافطار في السفر ، الافطار يوم عرفة ، صومه ايام الجمعة والسبت والاثنين ، هديه في صوم الوصال ، هديه في صوم التطوع وافطاره وترك قضائه ، كراهيته تخصيص الجمعة للصوم ، هديه في الاعتكاف ، هديه في الحج والعمرة ، اعتماره مرتين في سنة واحدة ، أداؤه الحج وهديه في التضحية بيده ، هديه في تضحية البدنة ، هدية في العقيقة ، أذانه في أذن المولود ، وتسميته ، وختانه ، هديه في تسمية الناس وتكنيتهم ، احتياطه في الكلام وتخير الالفاظ ، هديه في الذكر والدعاء ، هديه في دخول البيت ، هديه في لبس الثياب ، هديه في الذهاب الى الخلاء والرجوع منه ، هديه في الدعاء عند الوضوء ، هديه في ترديد كلمات الأذان ، هديه في الدعاء لرؤية الهلال والدعاء قبل الطعام وبعده وهديه في الطعام ، وفي السلام ، وأن لا يدخل أحد على الناس في بيوتهم الا بعد الاستئذان ، هديه في الدعاء في السفر ، وعند النكاح ، هديه في كراهية بعض الكلمات ، هديه في الغزو والجهاد ، معاملته لأسرى الحرب والعبيد ، وهديه في معاملة الجواسيس اذا اسروا ، هديه في عقد الصلح ، وتأمين المحارب ، وضرب الجزية ، ومعاملته أهل الكتاب والمنافقين .

لقد أجملت لكم فيما تقدم ما جاء في أحوال النبي ﷺ خاصة ، ليتبين لكم أنه اذا كانت هذه الامور الدقيقة قد عني المسلمون بحفظها فما ظنكم بالامور الجليلة العظيمة الخطر ، وكم بذل رواة الشريعة من عنايتهم في احصاء أمهات السنن وأصول الرسالة ، واحصائها ، وضبطها مفصلة ، ويظهر لكم من ذلك أن جميع وجوه الحياة النبوية ومناحيها والوانها قد صينت وحفظت من أن تعبث بها أيدي الدهر .

إخواني . حسبكم الآن أنكم قد علمتم ما أردته في أول هذه المحاضرة من وصف السيرة المحمدية بالكمال والتمام والاحاطة ، وقد تبين لكم صدق ما ادعيته لها من انه ما من أحد من الرسل قد حفظت سيرته واحصيت أخباره وأحواله كما حفظت سيرة محمدﷺ واحصيت أخباره وأحواله .

ان الوقت ضيق ، والذي أريد ان أفضي به اليكم متنوع ومترامي الاطراف وكثير المناحي ، فأنا أجمل لكم في القول ما استطعت ، وأرجو منكم أن تستمعوا له . ان النبيﷺ أذن لأصحابه ولمن يحضر مجالسه أن يبلغوا عنه لمن غاب عنها ، وهذا الاذن عام لما يكون عنه في بيته وبين اهله وعياله ، أو ما يصدر عنه في حلقته مع أصحابه ، او ما يقفون عليه من اعماله وأقواله عند تعبده في مسجده ، أو قيامه على منبره خطيبا ، أو جهاده في ساحة الحرب تجاه اعدائه وهو يسوي صفوف المجاهدين في سبيل الله . أو اذا خلا الى ربه في حجرة منعزلة في بيته يعبد الله ويتضرع اليه ، فكان أزواجه وأصحابه يتحدثون جميعا بكل ما يصدر عنه من قول أو عمل . ثم أنه كان تجاه مسجده صفة يأوي اليها فقراء الصحابة الذين لم تكن لهم بيوت يأوون اليها ، فكانوا يتناوبون الخروج الى ما بعد بنيان المدينة يحتطبون من اشجار الصحراء والجبل ويبيعون ما يأتون به ليقتاتوا جميعا بثمنه ، ولم يكن لسائرهم عمل بغير صحبة النبيﷺ ولزوم مجالسه ليحفظوا عنه ما يقول وما يعمل ثم يروونه للناس بعناية وأمانة ، وقد بلغ عدد أهل الصفة هؤلاء سبعين رجلا كان منهم أبو هريرة الذي لم يكن صحابي أكثر منه حديثا عن رسول اللهﷺ ، وهؤلاء السبعون كانوا كأنهم جواسيس الحكومة وعيونها في نشاطهم واخلاصهم لما يسرهم الله له من حفظ كل ما يستطيعون حفظه مما يدخل في موضوع الحديث النبوي لا

يفترون عن ذلك آناء الليل وأطراف النهار ، وقد استمر الحال بهم على ذلك يوميا مدة عشر سنوات متوالية ، واذا ارتحل عن المدينة في غزو أو حج كانوا معه ، وكذلك غيرهم من الصحابة ، حتى لم تخف عنهم خافية من أمره ، ولم يغب عنهم معنى من معاني رسالته ، ولما كان فتح مكة كان معه من أصحابه عشرة آلاف ، ولما سار الى تبوك كان في معسكره ثلاثون الفا ، ولما حج حجة الوداع حج معه في تلك السنة مائة الف مسلم ينطبق عليهم عنوان الصحابة ، وما منهم الا من يحرص على الوقوف على شيء من هداية نبيه ﷺ أو أي امر من اموره فيتحدث عنه . بل هو الذي أمرهم أن يبلغوا عنه ما يسمعون منه او يرون من تصرفاته ، فما ظنكم به بعد ذلك هل يخفى عن التاريخ وجه من وجوه حياته أو ناحية من نواحيها . هذا من جهة أصحابه ، وأما اعداؤه فانهم أفرغوا جهدهم ، واستنفذوا سعيهم ليقفوا على دخيلة من دخائله وليؤاخذوه بحقيقة يعلمونها عنه فلم يستطع أحد منهم أن يجد له ناحية ضعف ولا ما يندد به . وأقصى ما استطاع اعداؤه في كل زمان ومكان أن يقولوه عنه انه سلّ سيفه للقتال وأنه كان كثير الازواج . وقد تبين لكم مما سلف أن حياته الطاهرة التي فصلنا حقيقتها تفصيلا ، وأحطنا بجوانبها علما ، هي حياة العصمة من كل نقص ، البريئة من كل عيب ، فأين هذا من حياة لا نعلم عنها شيئا ، ولا تزال نواحيها ووجوهها سرا في ضمير الزمن !

اخواني . أريد أن الفت انظاركم الى أمر آخر : إن الرسول ﷺ لم يقض حياته كلها بين أحبابه وأصحابه ، بل قضى اربعين سنة من عمره في مكة قبل أن يبعث ، فكان بين أهلها مشركي قريش ، وكان يتعاطى فيهم التجارة ، ويعاملهم في أمور الحياة ليل نهار ، وهي الحياة اليومية وما تنطوي عليه من أخذ وعطاء ، ومن شأنها أن تكشف عن اخلاق المرء

فيتبين للناس فسادهـا وصلاحهـا ، وهـي عيشـة طويل طريقها كثيرة منعطفاتها وعرة مسالكها ، تعترضها وهدات مما قد يصـدر عن المرء من خيانة واخفار عهد وأكل مال بالباطل . وعقبات من الخديعة والخيانة وتطفيف الكيل وبخس الحقوق واخلاف الوعد . وان الرسول ﷺ اجتاز هذه السبل الشائكة الوعرة وخلص منها سالما نقيا لم يصبه شيء مما يصيب عامة الناس ، حتى لقد دعوه « الامين » ، وإن قريشا بعد بعثته وادعائه النبوة كانوا يودعون عنده ودائعهم وأموالهم لعظيم ثقتهم به ، وقد علمتم أنه ﷺ لما هاجر من مكة خلف فيها عليا ليرد ما كان لديه من الودائع الى اهلها . فقريش خالفوه أشد الخلاف في دعوته ولم يتركوا سبيلا الى ذلك الا سلكوه ، فقاطعوه وعاندوه وصدوا عن سبيله وألقوا عليه سلى جزور وهو يصلي ورموه بالحجارة وأرادوا قتله وكادوا له كيدهم وسموه ساحرا ودعوه شاعرا وفندوا آراءه وسخفوا حلمه ، لكنهم لم يجرؤ احد منهم على أن يقول شيئا في اخلاقه ، ولا أن يرميه بالخيانة ، أو ينسب اليه الكذب في القول أو إخلاف الوعد أو اخفار الذمة أو نقض العهد . وان من ادّعى النبوة وقال ان الله يوحي اليه فكأنه ادعى العصمة والبراءة من جميع المفاسد ومساويء الأعمال . ألم يكن يكفي قريشا في ردهم على الرسول ان يذكروا أمورا عمل فيها الرسول بغير الحق وأن يشهدوا عليه بأنه أخلفهم وعدا أو خانهم في أموالهم أو كذبهم في شيء مما قاله لهم ؟ إن قريشا أنفقوا اموالهم وبذلوا نفوسهم في عداوة الرسول وضحوا بفلذات أكبادهم في قتاله حتى قتل منهم وجرح كثيرون ، لكنهم لم يستطيعوا ان يدنسوا ذيله الطاهر ولا أن يصموه بشيء في عظيم اخلاقه . وكانت أحوال الرسول وشئونه وهديه ظاهرة لجميع الناس معلومة لهم ، استوى في ذلك احبابه وأعداؤه ولم يخف عليهم شيء من امره .

كان عظماء قريش مجتمعين ذات يوم في ناديهم فجرى ذكر

الرسول ﷺ وفيهم النضر بن الحارث وكان رجلا داهية محنكاً وعالما بالاخبار فقال لهم : يا معشر قريش ، لقد اعياكم أمر محمد ، وعجزتم عن أن تدبروا فيه رأيا لما أصابكم به . إن محمدا قد نشأ فيكم حتى بلغ مبلغ الرجال ، وكان أحب الناس اليكم واصدقهم فيكم واتخذتموه أمينا ، فلما خطه الشيب وعرض عليكم هذا الامر قلتم ساحر وكاهن وشاعر ومجنون . تالله لقد سمعت كلامه فليس فيه شيء مما ذكرتم .

وأبو جهل كان أشد الناس عداوة للرسول ، وقد قال له ذات يوم : يا محمد ، إني لا أقول انك كاذب ، لكني اجحد الذي جئت به وما تدعو اليه . فأنزل الله هذه الآية (قد نعْلمُ أنّه ليحزنُك الذي يقولون ، فإنهّم لا يُكَذّبونكَ ولكنّ الظالمين بآياتِ الله يجحَدون) الأنعام (٣٣) .

ولما تلقى الرسول أمر ربه بأن يدعو ذوي قرباه الى الاسلام وينذر عشيرته الاقربين صعد الجبل ونادى :

يا معشر قريش . فلما اجتمعوا قال : هل كنتم مصدقيّ إن قلت إن جيشا قد بلغ سفح هذا الجبل ؟ قالو : ما جرّبنا عليك كذبا قط (صحيح البخاري : سورة تبت) .

ولما أرسل النبي ﷺ كتاب الدعوة الى هرقل عظيم الروم دعا هرقل أبا سفيان ليسأله عن هذه الدعوة وصاحبها . وأنتم تعلمون أن ابا سفيان كان يومئذ على العداوة للاسلام ورسوله مدة ست سنوات متوالية انقضت بحشد المقاتلة واستنفار المشركين لحرب المسلمين . وانظروا الى هذا الموقف يدعى فيه عدو ليسأل عن عدوه اللدود الذي يتمنى لو استطاع أن يقتله ويمحو اسمه ويخفض من شأنه ، ثم يدعى الى مجلس رجل عظيم صاحب سلطان ليشهد عنده في عدوه . فسأله هرقل عن النبي ﷺ :

- كيف نسبه فيكم ؟
قال أبو سفيان : هو فينا ذو نسب .

- هل قال هذا القول منكم أحد قبله ؟
قال أبو سفيان : لا

- هل كان من آبائه من ملك ؟
قال ابو سفيان : لا

- فأشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم ؟
قال أبو سفيان : بل ضعفاؤهم .

- أيزيدون أم ينقصون ؟
قال أبو سفيان : بل يزيدون .

- فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه ؟
قال ابو سفيان : لا

- فهل كنتم تتهمونه بالكذب ؟
قال أبو سفيان : لا

- فهل يغدر ؟
قال أبو سفيان : لا ونحن منه في مدة لا ندرى ما هو فاعل فيها .

- ماذا يأمركم ؟
- يقول : اعبدوا الله وحده ، ولا تشركوا به شيئا ، واتركوا ما يقول آباؤكم . ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة[1] .

---

(١) البخاري ك ١ ب ٦

فهل تجدون شهادة أعظم من هذه الشهادة ؟ إن الموقف حرج ، والسائل ملك ذو شوكة وقوة ، يسأل رجلا ملأ الضغن صدره عن أمر الرسول فلا يقول فيه إلا الصدق والحق . فهل تجدون رسولا كاملا أعظم من محمدﷺ ، وأي شهادة أصدق من هذه الشهادة ؟ إن تاريخ الرسل أعجز من أن يأتي بمثلها عن غيره .

سادتي . أريد ان ألفت انظاركم الى أمر آخر جدير بأن تهتموا له وتعنوا به ، ذلك أن الذين آمنوا بمحمدﷺ أولا لم يكونوا من صيادي الشواطىء ولا من الذين استعبدهم فرعون مصر ، بل كان الذين آمنوا بمحمد أولا رجالا من أمة عريقة في الحرية ذات عقول ناضجة وفطنة ولهم حماسة وحمية ، لم تلن قناتهم لحكومة قاهرة ، ولا ذللت أنفتهم دولة قوية منذ فجر التاريخ ، وكانت لهم تجارة واسعة النطاق تصدر فيها وترد سلعهم وأمتعتهم بين بلاد وبلاد ، وكانت مملكة فارس وبلاد الشام ومصر وآسيا الصغرى مضربهم وموارد تجارتهم ، ولاحتكاكهم بالامم المتمدنة ولقائهم الرجال من مختلف الامم تفتقت آراؤهم واتسعت عقولهم وازدادت تجاربهم . يدل على ذلك ما أثر عنهم من الاحكام وما وصل الينا في صفحات التاريخ من الاخبار . وكان من هؤلاء من قاد الجيوش وانتصر بها فعدّ من أعظم القادة الفاتحين ، وكان منهم من ساس البلاد وحكم الناس فأحسن الإحسان كله في سياسته وحكمه حتى عدَّ من أعدل الولاة وأحكم الحكام سياسة وتدبيرا . وهل يسوغ في العقل أن من أوتي مثل هذا العقل الراجح والمواهب العظيمة والرأي الحصيف يخفى عليه شيء من أمر هذا الرسولﷺ و ينخدع به ! هؤلاء الرجال هم الذين نقلوا عنه ما شهدوه بأنفسهم وسمعوه بآذانهم وكانوا يرون الاقتداء به سعادة لهم ، والاهتداء بهديه شرفا لهم في الدنيا وذخرا لهم في الآخرة ، فاقتفوا آثاره ، وسلكوا سبيله ، واستنوا بسنته وهذا دليل واضح على أنه

الرسول الكامل وأنه على الحق ، مما لا يرده ولا يجادل فيه الا مكابر .

ان رسول الله محمداﷺ لم يحاول أن يخفي عن الناس أمرا من أموره ، ولا أن يكتمهم حالة من حالاته ، لذلك عرفوه كما كان في الواقع ، وهو الآن في أذهان عارفيه كما كان في أعين مشاهديه . تقول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وقد عاشرته زوجة مدة تسع سنين : لا تصدقوا من يزعم أن محمدا رسول الله قد كتم مما أوحي اليه فلم يبده للناس إذ يقول الله تعالى (يا أيها الرسولُ بلّغ ما أنزِلَ إليكَ من ربّك ، وإن لم تَفْعَل فَما بلغتَ رسالته[1]) المائدة .

ان من طباع الناس ـ ولا سيما من يقوم لهم بالاصلاح والهداية والتهذيب ـ أنهم لا يحبون أن يظهر للناس من نفوسهم ما يؤاخذون به أو يعاب عليهم . وفي القرآن الحكيم عدة آيات نبه الله فيها رسوله على بعض خطأه ، فكان الرسول يتلو هذه الآيات كلها على الناس ، ويدعوهم الى حفظها والى تلاوتها في الصلاة والمساجد ، ولا تزال هذه الآيات ـ كأخواتها ـ تتلى بألسنة أتباع محمد رسول الله ﷺ ، فحيثما يبلغ انتشار الدين المحمدي ويدين به كثير أو قليل من الناس تتلى هذه الآيات ، ولولا أن هذه الامور ذكرت في القرآن لما انتشر العلم بها هذا الانتشار ، وهكذا السيرة الطاهرة والحياة الكاملة هي التي تتضح للجميع بمثل وضح النهار أو أشد .

كان العرب في الجاهلية ينكرون نكاح الرجل مطلقة متبناه ، وقد تزوج الرسول زينب التي كانت من قبل زوجا لمتبناه زيد بعد أن طلقها ، فوردت هذه القصة في القرآن ببيان صريح ، وان أم المؤمنين عائشة

---

(١) صحيح البخاري ، في تفسير هذه الآية .

تقول : لو كتم رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا من القرآن لكتم هذه الآية (أي قصة طلاق زيد لزوجه زينب وزواج النبيﷺ بها) لكيلا يسيء فهمها الجهلاء وضعاف العقول ، لكن الرسولﷺ لم يفعل ذلك . أليس هذا مما يدل على أنهﷺ لم يكتم من أمره شيئا ولا خفي على الناس شيء من سيرته .

وجدير بالذكر شهادة الفاضل الانجليزي باسورث سميث اذ يقول : « ترى الشمس ها هنا بارزة بيضاء تنير أشعتها كل شيء وتصل الى كل شيء . لا شك أن في الوجود شخصيات لا نعلم عنها شيئا ، ولا نتبين حقيقتها ابدا ، أو تبقى منها أمور مجهولة . بيد ان التاريخ الخارجي لمحمدﷺ نعلم جميع تفاصيله من نشأته الى شبابه ، وعلاقته بالناس ، وروابطه ، وعاداته ، ونعلم أول تفكيره ، وتطوره وارتقاءه التدريجي ، ثم نزول الوحي العظيم عليه نوبة بعد نوبة ، ونعلم تاريخه الداخلي بعد ظهور دعوته واعلان رسالته وان عندنا كتابه (القرآن) لا مثيل له في حقيقته وفي كونه محفوظا مصونا وفي عدم التزام الترتيب في معانيه ، وانه لم يستطيع أحد ان يشك في قيامه على أساس الصدق شكا يعتد به ، فهو عندنا ممثل لروح عصره ومرآة لبيئته ، فهو لذلك بريء من كل تصنع أو تكلف . وانه بعدم التزام الترتيب فيه ، وفي تحدثه عن الشيء وضده ، معتب لنا ، غير أنه عامر بالافكار العظيمة . فترى منه نفسا ملأى بتلك الروحانية ، مرتبطة بها ، مقصورة عليها ، ثملة بأمر الله مع الضعف الانساني الذي لم يدّع أنه بريء منه ، بل أكبر دليل على عظمة محمد أنه لم يدّع قط أنه بريء من ذلك (ص ١٥) . ويقول جيبن : « لم ينجح في الامتحان العسير رسول من الرسل الاولين من بداية أمره كما نجح محمدﷺ حين عرض نفسه باديء ذي بدء ـ بصفته رسولا يوحى اليه ـ

على الذين عرفوا ضعفه البشري وعرفوه أكثر مما يعرفه غيرهم ، فعرض رسالته على زوجه وعبده العنيد وابن عمه وصديقه القديم الذي لم يتحول عنه ولم يخذله وهؤلاء هم الذين سبقوا الناس الى الايمان بنبوته . ان نصيب الانبياء انقلب في حق محمد وتغير عما كان عليه فيمن مضى من الرسل ، فلم يكن محمد غير محبوب الا من الذين لم يعرفوه » . فهذه الشهادات على أن من كان أعرف الناس برسول الله وأقربهم اليه كان أشدهم ايمانا برسالته ، وأما الرسل الآخرون فكان الأجانب والغرباء الذين لم يعرفوهم الا قليلا هم الذين سبقوا الى الايمان بهم ، وتأخر عن الايمان بهم وتلكأ ذووهم وأهل بيوتهم والذين كانوا أكثر معرفة بهم . وهكذا كان المؤمنون برسالة محمدﷺ هم أعرف الناس بحقيقته واكثرهم اطلاعا على أخلاقه وسننه وهديه ، وقد بلي كل منهم في سبيل هذا الايمان بلاء عظيما وامتحن امتحانا شديدا ، حتى ان خديجة زوج النبيﷺ قضت معه ثلاث سنوات محصورة في شعب أبي طالب تقاسي معه الجوع والظمأ والفاقة المنهكة . وابو بكر صحب النبيﷺ يوم ضاقت به أرض مكة ، فخرج معه مرتديا ظلام الليل خائفا يترقب ، والعدو في أثرهما يتعقب مواطىء أقدامهما ، فقام ابو بكر بحق الصحبة ، وكان الوفي بعهد الصداقة ، أما علي فبات على فراش الرسول الذي كان المشركون قد بيتوا الفتك به . وعبده زيد حل من النبي الكريم محل الولد بعطفه عليه ورأفته به ، فلما جاء أبوه الذي ولد من صلبه يطلب رد ابنه عليه خيره رسول اللهﷺ بين أن يصحب أباه أو يبقى تحت جناحين من عطف الرسول ورأفته ، فاختار صحبة النبيﷺ على الرجوع مع ابيه الى قبيلته . يقول هيجنس في كتابه (الاعتذار عن محمد والقرآن Appology for Md. and Quran) : ان اتباع عيسى (عليه السلام) ينبغي لهم أن

يجعلوا على ذكر منهم أن دعوة محمدﷺ أحدثت في نفوس أصحابه من الحمية ما لم يحدث مثله في الاتباع الاولين لعيسى (عليه السلام) ، ومن بحث عن مثل ذلك لا يرجع الا خائبا ، فقد هرب الحواريون وانفضوا عن عيسى حين ذهب به اعداؤه ليصلبوه فخذله أصحابه وصحوا من سكرتهم الدينية وأسلموا نبيهم لاعدائه يسقونه كأس الموت . أما اصحاب محمد فالتفوا حول نبيهم المبغي عليه ودافعوا عنه مخاطرين بأنفسهم الى أن تغلب بهم على اعدائه (انظر الترجمة الأوردية ص ٦٦ - ٦٧ عن مطبوعة برلين سنة ١٨٧٣) .

وحين كرّ مشركو قريش يوم أحد على المسلمين فاختلت صفوفهم وتفرق جمعهم نادى الرسولﷺ : من يفديني ؟ فخرج من الانصار سبعة دافع كل واحد منهم عن الرسول وما زال يقاتل دونه حتى قتل ، وقد قتل لامرأة من الانصار في هذه الحرب ثلاثة رجال من بيتها : أبوها وأخوها وزوجها . وتتابع اليها نعي الثلاثة واحدا بعد واحد ، فكانت تسأل أولا عن الرسولﷺ : كيف هو؟ فيقولون لها : انه سالم . ثم لما رأت وجههﷺ سري عنها ولم تتمالك أن صاحت قائلة : « كل مصيبة بعدك جلل يا رسول الله » .

ان الذين دافعوا عنه وقتلوا دونه وفدوه بأنفسهم قد عرفوه حق المعرفة وعلموا سنته وهديه وخلقه ، ولولا أن حياة الرسولﷺ كانت عظيمة كاملة ونفسه كانت أحب النفوس اليهم ، وأعظمها في أعين أصحابه وأحبابه ، لما فدوه بأنفسهم . ومن أجل ذلك كانت حياة النبي ﷺ أسوة لاصحابه ومحبته ذريعة لمحبة الله فقال الله عز وجل : (قل إن كُنْتُم تُحِبون الله فاتبعوني يُحْبِبْكم الله) . فجعل اتباع الرسول في أخلاقه وأعماله والاقتداء بسنته وهديه ، من علامات حبهم لله ، ومن السهل أن يبذل الانسان

نفسه حمية لدينه لأمر يعرض له فجأة ، ولكن من العسير أن يقتدي المرء مدة حياته كلها في جميع أطوارها وشعبها ومناحيها بهدي شخص وسننه اقتداء كاملا لا يحيد عنه ولا يعدل الى شيء غيره ، أما اصحاب محمد رسول الله ﷺ فانهم اتبعوه في جميع اخلاقهم وأعمالهم وسائر نواحي حياتهم وطرقها واقتفوا أثره وامتحنوا في ذلك امتحانا شديدا وبلوا فيه بلاء عظيما ثم خرجوا من هذا الامتحان فائزين . وان الولع الشديد بالرسول والمحبة الصادقة له قد حمل الصحابة والتابعين وتابعي التابعين ، ثم المحدثين ومؤلفي السير والمؤرخين ، على أن يعنوا عناية كبرى بجمع كل ما يتعلق بالرسول ﷺ من قول وعمل ، وأمر ونهي ، وحديث وخلق ، وأن يبلغوا ذلك للذين يأتون بعدهم ، فأحسنوا كل الاحسان ووفوا هذه المهمة حقها ، ليعمل بهذه الهداية كل مسلم ما استطاع ، ولولا أن حياة محمد ﷺ كانت كاملة وعظيمة في عيون أصحابه لما اعتبروا اتباعه شرفا لهم وكمالا ولما عدّوا الاقتداء به ملاك السعادة وأصل الهناء وقوام الخير .

فالاسلام قرر أن حياة محمد هي المثل الكامل لجميع المسلمين ، وينبغي بيان جميع نواحيها وشعبها ووجوهها للناس كافة . وقد حقق المسلمون ذلك وحرصوا على تعرف ذلك وبيانه ، فلم تخف منه خافية ، ولم تفقد ولا حلقة واحدة من سلسلة الحياة النبوية المباركة ، فجميع أحواله وشئونه مسطورة في كتب التاريخ ، ومن ذلك يستدل على انها كانت حياة كاملة طاهرة بريئة من كل نقص ، ولا تكون حياة بشر أسوة للناس الا اذا كانت واضحة ناصعة معلومة من كل وجوهها ونواحيها جامعة لجميع المحامد شاملة لأكرم الأخلاق وأحسن التعاليم .

لقد كانت لبلاد بابل والهند والصين ولمصر والشام واليونان والرومان حضارات زاهرة ومدنيات عظيمة وثقافات عالية ، وقد كانت لأهالي تلك

البلاد سنن في الأخلاق اتخذوا منها أصولا وضوابط للثقافة ، وآدابا للمعاشرة : في النهوض والقعود والكلام والطعام والشراب ، واختاروا مناهج خاصة بمعيشتهم ، ووضعوا آدابا لهم في الزي والشارة وأوضاعا في الملابس ، وكان لهم هدي في نومهم ويقظتهم وحدود في لقاء الناس والتعامل معهم ، وسنوا لانفسهم سننا في الزواج ، ورسموا رسوما للتهنئة والتعزية وتكفين الموتى ودفنهم ، ولم يتركوا حالا من أحوال الانسان ـ من عيادة المريض ومصافحة الاخوان ولقاء الخلان والاستحمام ـ الا اتخذوا لها السنن والرسوم والاداب ـ فنشأت من ذلك أصول وقواعد لمدنيتهم وثقافتهم . وبديهي أن هذه السنن والآداب لم تتم لهم الا في قرون متطاولة ، ثم درست آثارها ومحيت رسومها وطمست معالمها ، فكان قيامها واكتمالها في زمان طويل ، وزوالها في مدة قليلة . أما مدنية الاسلام وثقافته فان قيامها واكتمالها وظهور بهائها في سنوات قليلة ولا تزال مدنية الاسلام وثقافته مستمرة ومعمولا بها في الدنيا منذ أربعة عشر قرنا بين أمم شتى وأقوام مختلفة يستوي في ذلك العربي والهندي والشرقي والغربي ، لان المسلمين اقتبسوا ذلك من مشكاة نبيهم ﷺ وتأسوا فيه بحياته الكريمة ، فاستنارت بهذا النور حياة الصحابة ، وانعكست اضواؤها على حياة التابعين ومن جاء بعدهم ، فنشأت عن ذلك بيئة صالحة زكية ، وكان منها للعالم الاسلامي كله اسوة حسنة في رسومه الفاشية وآدابه القويمة . ويمكننا ان نقول بعبارة اخرى : ان الحياة المحمدية كانت مركز الدائرة ، فجاء الصحابة فخطوا حول نقطة المركز خطوطا تمت بها تلك الدائرة والتف المسلمون بعد ذلك من حولها . واذا كانت المدنية الاسلامية لم تبق اليوم في مثل كمالها الاول وجمالها الاسنى فان آثارها لا تبرح باقية تلمع ، والمسلمون يقتفون تلك الآثار الى يومنا هذا . وقد علمنا أن حياة محمد ﷺ كانت في بادىء الامر قدوة لجميع

الصحابة في حياتهم فكانوا يهتدون بهديه ، ويستنـون بسنتـه ، ثم كان لسائر المسلمين أسوة حسنة بهايتخذونها مثالاكاملا لهم ولا تنفك صورتها معروفة لهم باقية فيهم . ولو أن قبيلة من وثنيي الهند أو افريقية تنصرت ودخلت في دين المسيح عليه السلام فانها تأخذ مسيحيتها من الاناجيل ، أما مدنيتها ومنهاج حياتها في مظاهرها وأوضاعها فان تلك القبيلة تأخذه عن مدنية أوربا وثقافتها ومنهـاج حياتهـا ، وليس ذلك من المسيحية في شيء . أما الاسلام فاذا دخل في هدايته قوم جدد لم يكونوا مسلمين من قبل ، فانهم كما يقتبسون دينهم مما كان يدعو اليه النبيﷺ ، فانهم من هديه ومن سنته أيضا يتعلمون آداب المعـاشرة ومنهـاج الحياة الاجتماعية وطرق المعيشة . وإن تعاليم الرسولﷺ ـ من أدب وخلق ومعاشرة ـ هي التي تؤثر في أخلاق المسلمين فتصاغ في هذه البوتقة حتى تسبك بهـا في أزكى قالب . وقد قال يهودي مرة لأحد الصحابة وهو يعرّض بالاسلام : إن رسولكم يعلمكم كل شيء ، حتى بعض الأمـور الحقـيرة ، فأجابـه الصحابي وهو مغتبط : نعم ، إن رسولنا يعلمنا كل شيء ، حتى آداب الخروج الى الخلاء .

وكذلك نحن لا نزال نقدم للناس تلك السيرة الكاملة التي هي لنا سراج وهاج في جميع شئون الحياة البشرية ، فكأن السيرة المحمدية مرآة صافية للدنيا كلها يرى فيها كل انسان صورته وروحه ، ظاهره وباطنه ، قوله وعمله ، خلقه وأدبـه ، هديه وسنتـه ، وفي استطاعتـه أن يصلـح أخلاقه ويثقف عوجه بحسب ما يراه في تلك المرآة الصافية .

لأجل ذلك لا ترى أمة مسلمة تبحث ـ في خارج دينها وبمنأى عن سيرة نبيها ـ عن أصول وضوابط تقوم بها اعوجاجها وتثقف منآدها وتصلح زيغها ، لأنها في غنى عما هو أجنبي عنها ، وعندها في هدي سيرة نبيهاﷺ

الميزان القويم والقسطاس المستقيم ، الذي تتبين به ما في العالم من خير وشر وتميز به الحق من الباطل . وفي الحق إن العالم كله لفي حاجة شديدة الى سيرة بشر كامل تتخذ من حياته الأسوة العظمى ، وليس في الدنيا إنسان كامل يعرف التاريخ سيرته على التفصيل كما يعرف تفاصيل حياة محمد ﷺ خاتم النبيين . فالناس كلهم في أمس الحاجة إلى أن يتخذوا من السيرة المحمدية منهاج حياتهم ، ففيها الأسوة الطاهرة ، وهي الحياة المثالية للناس جميعا . ﷺ .

المحاضرة الخامسة

في السيرة المحمدية من ناحيتها الجامعة

(قل إنْ كنتُمْ تحبّونَ الله فاتبعوني يُحْبِبْكم الله) .

سادتي : إن جميع الأديان والنحل حثت الناس على اتباع أصحاب هذه الأديان ، وأن يقتفوا آثارهم . ويعملوا (بأقوال) أنبيائهم ، لينالوا بذلك رضاء الله ومحبته .

أما الاسلام فقد اختار طريقا آخر خيرا من ذلك ، وهو أنه قدم للناس (أعمال) نبيه ، وعرض عليهم التأسي به في سيرته كاملة ليس فيها خرم . وجعل اتباعهم لتلك السيرة وتأسيهم بصاحبها وسيلة لهم في الحصول على رضاء الله ومحبته . لأجل ذلك ترى في الاسلام مرجعين : كتاب الله، وسنة نبيه . فأحكامه تعالى قد جاءتنا في كتابه وهو القرآن الحكيم ، وفي سنة نبيه ﷺ . والسنة في اللغة : الطريقة . والمراد بها في اصطلاح الشريعة الاسلامية الطريقة التي اختارها الرسول وسلكها عاملا بأحكام الله . فمعنى السنة إذن الأسوة النبوية وسيرة الرسول الطاهرة التي أثرت عنه وبلغتنا كاملة في كتب الحديث الصحيحة ، والمسلم لا ينجح في دينه ولا يكمل في اسلامه إلا باتباع السنة النبوية وحدها .

وليس من الممكن ان يكون جميع الداخلين في دين من الأديان من طائفة بشرية واحدة ، أو ان يكونوا من شعب انساني واحد ، لأن الدنيا قد قام بنيانها على التنوع في الأعمال والاختلاف في الافعال ، ولولا أن الناس مختلفون في مهنهم ومكاسبهم وأشغالهم ومعايشهم ، وهم

يتعاونون ويساعد بعضهم بعضا ، لخربت الدنيا . ولا بد للعالم من ملك أو رئيس جمهورية أو وال يتولى أمورهم العامة وحاكم يحكم فيما بينهم فيما يختلفون فيه . وكذلك لا تخلو الدنيا من رعية يرعى أمورهم رئيس ، ومن محكومين يحكم فيهم حاكم ، ومن خصوم يقضي بينهم قاض بالعدل ، ليسود الأمان ويستتب السلام . وكذلك الأمم تحتاج الى أن يكون لها جنود يدافعون عن كيانها ، وأن يكون على الجنود ضباط وقادة . وتجد فيهم الفقراء الذين يعانون الشدة والبؤس كما تجد فيهم الاغنياء من أهل الترف والسرف . وفيهم عباد الله يقومون بطاعته في جوف الليل ، وزهاد تحرروا من متع الدنيا وزخارفها ، ومجاهدون في سبيل الله يقارعون الباطل ويقيمون الحق في الأرض . وكذلك ترى في الدنيا العائلين الذين يكدحون لمن يعولونهم ، وترى فيها لفيف من الأصدقاء المتحابين ، وطوائف التجار والمحترفين ، وأصحاب المصانع والمعامل . وهكذا الدنيا لا تخلو من قادة الأمم وساسة الشعوب وزعماء الأحزاب . وعلى شتى الطوائف ومختلف الفرق قام نظام هذه الدنيا ، وكل منهم يحتاج في عمله الى حياة مثالية وأسوة كاملة يقتدي بها ليكون سعيدا في الحياة . والاسلام دعا جميع هذه الفرق والطوائف والأحزاب لأن يتبعوا سنة محمد ﷺ ويقتفوا آثاره ويسلكوا طريقه . ومن تتبع ذلك يتبين له أن السنة المحمدية تكفي جميع شعوب البشر وطوائفهم وفرقهم اذا اتخذوا منها الأسوة والقدوة ، ففيها النور الذي يستضاء به في ظلمات الحياة الاجتماعية ، وكم من ظلمة حالكة في الحياة ! ومن هنا تعلم أن سيرة محمد رسول الله ﷺ جامعة تجد فيها كل طائفة من طوائف البشر المثل الأعلى الذي تقتدي به والأسوة التي تأتسي بها . ومن الظاهر الواضح أن حياة المحكوم لا تصلح لأن تكون قدوة لحياة الحاكم ، كما أن حياة الحاكم لا تصلح لأن تكون قدوة لحياة المحكوم . وكذلك الفقير المعدم لا يتسنى له

أن يسير في معيشته على ضوء من حياة الغني المثري . ومن ثم مست الحاجة الى أن تكون الحياة المحمدية جامعة يجد فيها الناس كلهم على اختلاف طوائفهم الاسوة الكاملة في جميع ألوان الحياة وأطوارها . وإن مثلها كمثل الباقة الجامعة لكل أصناف الزهور والورود بجميع ألوانها : ففيها الأحمر القاني والأبيض الناصع والأخضر الناضر والأصفر الفاقع .

وفي البشر طوائف مختلفة وفرق شتى تحتاج كلها الى حياة مثالية تكون نموذجا لها في حياتها ومعيشتها . ولكل إنسان من هذه الطوائف أعمال وأحوال تتقلب عليه بتقلب الظروف : بين قيام وقعود ومشي وأكل وشرب ونوم ويقظة وضحك وبكاء وارتداء الملابس وخلعها وأخذ وعطاء وتعلم وتعليم ، وقد يموت حتف أنفه أو يقتل ، ويكون محسنا لغيره أو محتاجا لاحسان الآخرين اليه ، وقد يكون في عبادة ربه أو في معاملة الناس ومعاشرتهم ، وقد ينزل على غيره ضيفا أو يستقبل الضيف ويقوم له بحق القِرى . هذه الأحوال وغيرها تطرأ على الانسان وتعرض له فيما يتعلق بجسمه وجوارحه فيحتاج في كل حال منها إلى هداية نافعة وأسوة كاملة .

وأعظم من الأسوة في أعمال الانسان الظاهرة ، الأسوة فيما يتعلق بخطرات القلوب ومجالات الفكر ونزعات العواطف ، فنحن نشعر بين كل حين وآخر بنزعات وعواطف تخالج قلوبنا وأفكارنا ، فنرضى ونسخط ، ونفرح ونحزن ، وتعترينا السكينة والطمأنينة أو القلق والضجر . وتترتب على هذه الأحوال عواطف مختلفة ونوازع متعددة . وليس الخلق الحسن إلا التعديل بين هذه الأحوال وإقامة الوزن بالقسط بين العواطف القوية والنوازع الثائرة . ولا يحظى بنصيبه من مكارم الأخلاق إلا الذي يعرف كيف يكبح النفس عند جموحها ويحسن التصرف فيها وقت ثورتها . ومع ذلك فلا بد للانسان من إمام تكون له فيه الأسوة

التامة في هذه الامور فيأتم به في قهر هذه القوى الثائرة والعواطف المتوثبة الى أن تسكن ثورة نفسه ويسلك في ذلك مسلك قدوته الأعظم وهو النبي ﷺ الذي يحمل بين جنبيه قلبا زكيا ونفسا طاهرة وروحا عالية نزيهة .

وهكذا المرء في كل خلة من خلايا العزيمة والشجاعة والشكر والتوكل والرضا بالقدر والصبر على النوائب والتضحية والقناعة والاستغناء والايثار والجود والتواضع والمسكنة ، وسائر ما يطرأ على البشر في منفسح حياتهم ومدى عيشهم ، وما ربما يعتري هذه الخصال في ساعات مختلفة من مضطرب حياة الانسان ، فانه يحتاج في كل ذلك الى أسوة وهداية ممن سبق له العمل بذلك ،وأنّى لنا هذه الاسوة الكاملة والهداية التامة إلا في حياة محمد رسول الله ﷺ .

إن حياة موسى عليه السلام تمثل لنا القوة البشرية العظيمة والبطش الشديد ، ولكننا لا نعرف في المأثور عنه ما تكون لنا فيه الاسوة من ناحية دماثة الخلق وخفض الجناح وسجاحة النفس وسماحتها .

وفيما نعرفه من حياة المسيح نماذج لسماحة النفس ورقة الطبع ودماثة الخلق ولين الجانب ، لكننا لا نجد فيما وصل الينا من أخلاقه وأعماله تفاصيل عن شئون حياته وأسرته تحرك ساكن القوى وتثير كوامن النفس وتنبه القوى المتراخية . والانسان في حياته محتاج إلى هذا وهذا ، فكما يحتاج إلى ما يهدىء ثائر قواه ويسكن جائشها يحتاج كذلك إلى ما يثير الكامن من هذه القوى ويهيج ساكنها وينبه المتراخي منها . إنه في حاجة الى حياة يتخذها قدوة له في هاتين الحالتين المختلفتين ، على أن يكون بيد صاحبها ميزان العدل بالقسط تستوي كفتاه ، ولن تجد الجمع بين هاتين الخصلتين المختلفتين جمعا قويا عزيز الوجود إلا في حياة محمد ﷺ ، فانه هو الذي مثلت حياته أعمال كثيرة متنوعة بحيث تكون فيها الأسوة

الصالحة والمنهج الأعلى للحياة الانسانية في جميع أطوارها لأنها جمعت بين الأخلاق العالية والعادات الحسنة والعواطف النبيلة المعتدلة والنوازع العظيمة القويمة .

إذا كنت غنيا مثريا فاقتد بالرسول ﷺ عندما كان تاجرا يسير بسلعه بين الحجاز والشام ، وحين ملك خزائن البحرين . وإن كنت فقيرا معدما فلتكن لك أسوة به وهو محصور في شعب أبي طالب ، وحين قدم الى المدينة مهاجرا اليها من وطنه وهو لا يحمل من حطام الدنيا شيئا . وإن كنت ملكا فاقتد بسننه وأعماله حين ملك أمر العرب وغلب على آفاقهم ودان لطاعته عظماؤهم وذوو أحلامهم . وإن كنت رعية ضعيفا فلك في رسول الله أسوة حسنة أيام كان محكوما بمكة في نظام المشركين . وإن كنت فاتحا غالبا فلك من حياته نصيب أيام ظفره بعدوه في بدر وحنين ومكة . وإن كنت منهزما ـ لا قدر الله ذلك ـ فاعتبر به في يوم أحد وهو بين أصحابه القتلى ورفقائه المثخنين بالجراح . وإن كنت معلما فانظر اليه وهو يعلم أصحابه في صفة المسجد . وان كنت تلميذا متعلما فتصور مقعده بين يدي الروح الأمين جاثيا مسترشدا . وإن كنت واعظا ناصحا ومرشدا أمينا فاستمع إليه وهو يعظ الناس على أعواد المسجد النبوي . وإن اردت أن تقيم الحق وتصدع بالمعروف وأنت لا ناصر لك ولا معين فانظر اليه وهو ضعيف بمكة لا ناصر ينصره ولا معين يعينه ومع ذلك فهو يدعو الى الحق ويعلن به . وإن هزمت عدوك وخضدت شوكته وقهرت عناده فظهر الحق على يدك وزهق الباطل واستتب لك الأمر فانظر الى النبي ﷺ يوم دخل مكة وفتحها . وإن أردت أن تصلح أمورك وتقوم على ضياعك فانظر اليه ﷺ وقد ملك ضياع بني النضير وخيبر وفدك كيف دبر أمورها وأصلح شئونها وفوضها إلى من أحسن القيام عليها . وإن كنت يتيما فانظر

إلى فلذة كبد آمنة وزوجها عبد الله وقد توفيا وابنهما صغير رضيع . وإن كنت صغير السن فانظر الى ذلك الوليد العظيم حين أرضعته مرضعته الحنون حليمة السعدية . وإن كنت شابا ناشئا فاقرأ سير راعي مكة . وإن كنت تاجرا مسافرا بالبضائع فلاحظ شئون سيد القافلة التي قصدت بصرى . وإن كنت قاضيا أو حكما فانظر الى الحكم الذي قصد الكعبة قبل بزوغ الشمس ليضع الحجر الاسود في محله وقد كاد رؤساء مكة يقتتلون ، ثم ارجع البصر اليه مرة أخرى وهو في فناء مسجد المدينة يقضي بين الناس بالعدل يستوي عنده منهم الفقير المعدم والغني المثري . وإن كنت زوجا فاقرأ السيرة الطاهرة والحياة النزيهة لزوج خديجة وعائشة . وإن كنت أبا أولاد فتعلم ما كان عليه والد فاطمة الزهراء وجد الحسن والحسين . وأياً من كنت ، وفي أي شأن كان شأنك ، فإنك مهما أصبحت أو أمسيت وعلى أي حال بت أو أضحيت فلك في حياة محمد ﷺ هداية حسنة وقدوة صالحة تضيء لك بنورها دياجي الحياة ، وينجلي لك بضوئها ظلام العيش ، فتصلح ما اضطرب من امورك ، وتثقف بهديه أودَكَ ، وتقوم بسنته عوجك . وإن السيرة الطيبة الجامعة لشتى الأمور هي ملاك الأخلاق وجماع التعاليم لشعوب الأرض وللناس كافة في أطوار الحياة كلها وأحوال الناس على اختلافها وتنوعها . فالسيرة المحمدية نور للمستنير ، وهديها نبراس للمستهدي ، وإرشادها ملجأ لكل مسترشد .

كان الواعظ الذائع الصيت الاستاذ حسن علي رحمه الله يصدر في (بتنه) قبل خمسين عاما مجلة (نور الاسلام) وقد قال في جزء منها ان صديقا له من البراهمة قال له : إني أرى رسول الإسلام أعظم رجال العالم وأكملهم . فقال له الاستاذ حسن علي : وما هي منزلة المسيح عيسى بن مريم عندك من رسول الاسلام ؟ فأجابه : إن المسيح بن مريم

عندي في جانب محمد ﷺ كمثل ولد صغير يتكلم بكلام عذب ويتحدث حديثا حلوا عند أعقل أهل زمانه وأكثرهم حزما . ثم سأله حسن علي : وبماذا كان رسول الاسلام عندك أكمل رجال العالم ؟ فأجاب : لأنـي أجد في رسول الاسـلام خلالا مختلفة وأخلاقا جمة وخصالا كثيرة لم أرهـا اجتمعت في تاريخ العالم لانسان واحد في آن واحد : فقد كان ملكا دانت له أوطانه كلها يصرف الأمر فيها كما يشاء وهو مع ذلك متواضع في نفسه يرى أنه لا يملك من الأمر شيئا وأن الأمر كله بيد ربه . وتراه في غنى عظيم تأتيه الابل موقرة بالخزائن إلى عاصمته ، ويبقى مع ذلك محتاجا ولا توقد في بيته نار لطعام في الأيام الطوال وكثيرا ما يطوي على الجوع . ونراه قائدا عظيما يقود الجند القليل العدد الضعيف العدد فيقاتل بهم ألوفا من الجند المدجج بالاسلحة الكاملة ثم يهزمهم شر هزيمة . ونجده محباً للسـلام مؤثرا للصلح ويوقع شروط الهدنة على القرطاس بقلب مطمئن وجـأش هادىء ومعه ألوف من أصحابه كل منهم شجاع باسل وصاحب حماسة وحمية تملأ جوانحه ونشاهده بطلا شجاعا يصمد وحده لآلاف من اعدائه غير مكترث بكثرتهم ، وهو مع ذلك رقيق القلب رحيم رؤوف متعفف عن سفك قطرة دم . وتراه مشغول الفكر بجزيرة العرب كلها ، بينما هو لا يفوته أمر من أمور بيته وأزواجه وأولاده ، ولا من أمور فقراء المسلمين ومساكينهم ، ويهتم بأمر الناس الذين نسوا خالقهم وصدوا عنه فيحرص على إصلاحهم . وبالجملة انه انسان يهمه أمر العالم كله ، وهو مع ذلك متبتل إلى الله ، منقطع عن الدنيا ، فهو في الدنيا وليس فيها ، لأن قلبه لا يتعلق إلا بالله وبما يرضي الله . لم ينتقم من أحد قط لذات نفسه ، وكان يدعو لعدوه بالخير ، ويريد لهم الخير ، لكنه لا يعفو عن أعداء الله ، ولا يتركهم ، ولا يزال ينذر الذين قد صدوا عن سبيل الله ويوعدهم عذاب جهنم . تراه زاهدا في الدنيا عابدا ، يقوم الليل لذكر الله ومناجاته . كما

تتصور من شمائله أنه الجندي الباسل المقاتل بالسيف . وتراه رسولا حصيفا ونبيا معصوما في الساعة التي تتصوره فيها فاتحا للبلاد ظافرا بالأمم . وانه ليضطجع على حصير له من خوص ويتكىء على وسادة حشوها من ليف حينما يخطر على بالنا أن ندعوه بسلطان العرب ونادي به ملكا على بلاد العرب . ويكون أهل بيته في فاقة وشدة عقب استقباله الاموال العظيمة آتية إليه من أنحاء الجزيرة العربية فتكون في فناء مسجده أكواما ، وتأتيه بنته وفلذة كبده فاطمة تشكو اليه ما تكابده من حمل القربة والطحن بالرحى حتى مجت يداها وأثرت القربة في جسمها ، والرسول يومئذ يقسم بين المسلمين ما أفاء الله عليهم من عبيد الحرب وإمائها ، فلا تنال بنته من ذلك الا دعاءها لها بكلمات يعلمها كيف تدعو بها ربها . وجاءه ذات يوم صاحبه عمر ، فأجال بصره في الحجرة فلم يجد إلا حصيرا من خوص قد اضطجع الرسول عليه وأثر في جنبه ، وكل ما في البيت صاع من شعير في وعاء وعلى مقربة منه شن معلق على وتد . هذا كل ما كان يملك رسول الله يوم دان له نصف العرب . فلما رأى عمر ذلك لم يتمالك نفسه من دموع تذرفها عيناه ، فسأله رسول الله ﷺ : ما يبكيك يا عمر ؟ فقال : ومالي لا أبكي ، إن قيصر وكسرى يتمتعان بالدنيا ، وينعمان بنعيمها ، وإن رسول الله ﷺ لا يملك إلا ما أرى . فقال له الرسول ﷺ : أما ترضى يا عمر أن يكون ذلك نصيب كسرى وقيصر من نعيم الدنيا ، وتكون لنا الآخرة خالصة من دون الناس ؟!

وعندما أحدق النبي ﷺ بجيوشه ليفتح مكة قام أبو سفيان إلى جانب العباس عم النبي ﷺ ينظران الى المجاهدين من المسلمين تتقدمهم الأعلام الكثيرة ، وكان أبو سفيان لا يزال على ما كان عليه من المخالفة للاسلام ، فراعه ما رأى من كثرة جموع المسلمين ومن انضوى اليهم من

القبائل المسلمة وإنهم يزحفون على بطحاء مكة كالسيل الجارف لا يصدّه صاد ولا يمنعه شيء ، فقال لصاحبه : يا عباس إن ابن اخيك أصبح ملكا عظيما . فأجابه العباس وهو يرى غير الذي يراه أبو سفيان : ليس هذا من الملك في شيء يا أبا سفيان ، هذه نبوة ورسالة .

وعديّ الطائي - وهو ابن حاتم الذائع الصيت الذي تضرب به الأمثال في الجود والسخاء - كان سيد طيء ، وحضر مجلس الرسول ﷺ ذات يوم وهو لا يزال على المسيحية ، فشاهد إعظام الصحابة للرسول ، وعليهم عدة الجهاد من الاسلحة واللامة للدفاع ، فاشتبه عليه أمر النبوة بأمر السلطان ، وتساءل في نفسه : أهذا ملك الملوك أم رسول من رسل الله ؟ وفيما هو كذلك جاءت إلى النبي ﷺ امرأة فقيرة من إماء المدينة وقالت له : أريد يا رسول الله أن اسرّ إليك شيئا . فقال لها : انظري في أي سكك المدينة شئت أخلو لك . ثم نهض معها وقضى لها حاجتها . فلما رأى ابن حاتم الطائي هذا التواضع العظيم من الرسول العظيم وهو بين أصحابه في مثل عظمة الملك ، انجلى عنه ظلام الباطل وتبين له الحق واضحا وأيقن أن هذا الأمر من رسالات الله ، فعمد إلى صليبه فنزعه ودخل مع أصحاب رسول الله ﷺ في نور الاسلام .

وفي الجملة إن كل ما ذكرته آنفا ليس من الاطراء في الثناء ولا من المبالغة في المدح ، بل هو من حقائق الواقع التي سجلها التاريخ بأصح ما استطاع أن يسجل به حقائقه . ومما لا ريب فيه أنه لا يستحق إنسان أن يكون قدوة للعالم في جميع مناهج الحياة إلا اذا اجتمعت فيه الخلال الشريفة كلها والخصال الانسانية الكاملة بأجمعها مما يحتاج اليه الناس في معايشهم ، فتكون لهم في سيرته أمثلة كثيرة ، وفي هديه أمور متنوعة ، تستنير بها كل طائفة من طوائف الناس ، وكل فرقة في كل أمة من أممهم ،

فيتخذون في أنفسهم سننا وادابا ومناهج من حياته الشريفة لحياتهم الاجتماعية والعائلية . وبذلك يكون الشخص العظيم المقتدى به هاديا للناس بأعماله وأخلاقه وخصاله عندما يكون في حالات الغضب أو الرحمة أو الجود أو الفاقة أو الشجاعة أو رقة القلب فيهتدون به في هذه الاحوال بدنياهم كما يهتدون به بصحة الاعتقاد وسلامة العبادة لآخرتهم . فهو يجمع إلى اسعاد الناس في آخرتهم إسعادهم في حياتهم الدنيا وأحداثها اليومية ، فييسر لهم خلافة الله على الأرض كما يدلهم على مقام الكرامة في ملكوت السماء . وهو مع ذلك يسن لهم السنن ويشرع لهم الاحكام لينظموا حياتهم في الأرض والسماء . وان العفو والمسامحة واللين وخفض الجناح للأخيار من قوام الحياة الانسانية ، ولا يسعد الانسان إلا بلين القول والعفو عن الناس وخفض الجناح لهم ، ومن كان نصيبه وافرا من هذه الخصال كان المعلم العظيم والمحسن الكبير . وإني أسائلكم فأجيبوني : هل هذه الخصال وحدها هي التي تكون في الانسان ، أم تكون فيه أضدادها أيضا ؟ أليس في خصال الانسان الغضب بجانب ما فيه من رحمة ، والعداوة بجانب الصداقة والخلة ، والطمع مع القناعة ، والشره مع العفة . أليس ينزع إلى الثأر كما يميل الى العفو ، أليس هذا كله مما تقتضيه جبلة الانسان وغريزته ؟ إن المعلم الكامل هو الذي يستطيع أن يعتدل بين هذه الاحوال والخصال المتضادة ، ويقيم الميزان في هذه النزعات والعواطف حتي يكسر سورتها ويخفف من شدتها ويكون عادلا معتدلا ، فتكون له من سجاياه الطيبة مطية كريمة تبلغ به الغاية القصوى من الحق . أما الذين يزعمون أن ملاك أديانهم وقوام نحلهم العفو واللين فحسب ، وليس في سيرة رسلهم إلا المسامحة وخفض الجناح ، فانبئوني بفضلكم - كم يوما عمل أتباعهم بهذه السيرة في مجتمعهم ، وإلى متى استمروا على هذا الهدي في حياتهم الاجتماعية بين زمن قسطنطين أول

الملوك المسيحيين إلى يومنا هذا ، وأي ملك مسيحي عمل في دولته بسيرة نبيه ؟

لقد قامت للأمة المسيحية دول كثيرة في بقاع الأرض ، فخبروني أي دولة مسيحية سنت لرعيتها قوانين تلائم سيرة رسولها من العفو عن الجناة ، واللين لمن اغلظ،وخفض الجناح لمن اشتد ؟وإذا لم تكن في سيرة رسول من رسل الله أسوة لأتباع ذلك الرسول أنفسهم فكيف يكون حالها ؟

وإذا رجعت إلى حياة نوح ترى الغيظ والحنق على الكفر وأهله وعلى الشرك ومن يدين به . وترى في حياة ابراهيم جهادا في تحطيم الاصنام وإبطال عبادة الأوثان . وفي حياة موسى قتالا للمشركين بالله ، وقد سن للمؤمنين به سننا اجتماعية وقوانين ملكية . وترى المسيح عيسى بن مريم يعفو ويصفح ويلين للناس ويخفض لهم جناحه فتملىء نفسك إعجابا بعفوه وعفته . وأما سليمان عليه السلام فيعجبك بجلالته وسلطانه وأبهة ملكه . وتمثل لك حياة أيوب معاني الصبر على المكاره وشكر الله على الرغائب . ويملأك يونس إعجابا بإنابته إلى الله وندمه على ما فرط منه . ويوسف عليه السلام يهديك كيف يقوم الانسان بدعوة الحق وهو أسير عان وكيف يصون نفسه ويستمسك بعفافه حين تراوده امرأة ذات جمال وجلال ومال وعظمة . وفي حياة داود درسُ عظمة وصحيفة عبرة إذ يبكي من خشية الله ويحمده ويدعوه متضرعا اليه . وفي سيرة يعقوب أسوة للمرء فيما يرجوه من رحمة الله والثقة به والتوكل عليه عندما تظلم الدنيا في عينيه . أما سيرة محمد ﷺ فانها تجمع ذلك كله وتشتمل على جميع هذه الخصال وتعم الأخلاق الكريمة بحذافيرها وما تفرق منها في سيرة نوح وابراهيم وموسى وعيسى وسليمان وداود وأيوب ويونس ويوسف ويعقوب عليهم الصلاة

والسلام ، فكأن السيرة المحمدية بحر لجيٌ تنصبُ فيه الأنهار وتتصل به كل البحار من سير الانبياء والرسل وهديهم وسننهم .

روى الخطيب البغدادي في تاريخه باسناد ليّن أن نداء سُمع عند مولد النبي ﷺ أنْ طوفوا بمحمد جميع البلاد واغطسوه في قعر البحار ليعرف العالم كله ، ثم اذهبوا به إلى جميع الانس والطير والحيوان ، وأعطوه من خلق آدم ومعرفة شيث وشجاعة نوح وخلة ابراهيم ولسان اسماعيل ورضا إسحق وبلاغة صالح وحكمة لوط وشدة موسى وصبر أيوب وطاعة يونس وجهاد يوشع ولحن داود وحب دانيال ووقار الياس وعفة يحيى وزهد عيسى ، واغمسوه في بحر أخلاق الرسل كلهم .

والعلماء الذين رووا هذه الرواية في كتبهم أرادوا بها أن يعربوا عن حقيقة سيرة الرسول وانها كاملة جامعة ، وأن ما أعطى الرسل جميعا متفرقين قد أوتيه محمد ﷺ وحده ، وأن ما تفرق من مكارم الأخلاق في الرسل قد اجتمع فيه ﷺ .

تأملوا سيرة محمد ﷺ تجدوا فيها كل ما كانت به حياته المثالية كاملة . أليس الرسول المكي الذي خرج من بلده مهاجراً الى يثرب يشبه الرسول الاسرائيلي الذي خرج من مصر يريد مدين ؟ أليس الذي انزوى في غار حراء يعبد ربه كالذي قصد جبل سيناء ليناجي ربه ؟ إن هذا يشبه ذلك مع فارق بينهما وهو أن عيني محمد كانتا مفتوحتين وعينا موسى كانت مغمضتين ، وأن رسول الاسلام كان ينظر في داخله ورسول بني اسرائيل كان ينظر إلى خارجه .

إن عيسى عليه السلام في ذهابه الى جبل الزيتون ليلقي عظته يشابه محمداً ﷺ وقد ارتقى جبل الصفا لينادي معاشر قريش . والذي قاتل

مشركي بلاد العرب في بدر وحنين ويوم الاحزاب وتبوك يشبه موسى الذي قاتل المؤابيين والعمونيين والآموريين .

وإن الرسول محمداً ﷺ دعا على سبعة رجال من أعيان مكة فهلكوا ، وموسى دعا على فرعون ومن التف حوله حين رأوا بأعينهم آية بينة من الله مرة بعد أخرى لكنهم لجوا في عتو ونفور ولم يؤمنوا به فهلكوا مغرقين في البحر الأحمر ، فتشابهت سنة الرسول محمد وسنة الرسول موسى عليهما الصلاة والسلام .

إن محمداً نبيّ الله دعا بالخير لمن أراد قتله من المشركين يوم أحد ، وإن عيسى عليه السلام لم يدع على أحد وما زال يبغي الخير لاعدائه ، أليس هدي محمد رسول الله ﷺ يشابه من هذه الناحية هدي عيسى رسول الله ﷺ ؟ وإن محمداً رسول الله ﷺ حين تراه في فناء المسجد يقضي بين الناس بالحق ويحكم بالعدل ، أو في ساحات الحرب يقاتل الكفار والمشركين ، فكأنك ترى موسى رسول الله وهو يجاهد أعداءه ويقاتل الذين يعبدون الأوثان . وحين ترى محمداً رسول الله يعبد ربه ويتضرع اليه في خلوة عن الناس إما في حجرة منفردة أو في مغارة الجبل وقد أرخى الليل سدوله فكأنك ترى عيسى وقد خلا بنفسه يوحد الله ويناجيه بالعبودية له .

ولو رأيت نبي الاسلام وهو يذكر الله دائما ويحمده ويسبحه في البكور والآصال وفي كل حال ـ فاذا بدأ بالأكل بدأه باسم الله ، وإذا فرغ منه حمد الله ، وإذا جلس مع أحد كان التذكير بالله من عمله في ذلك المجلس وإذا نام وهو يذكر ربه ويستعرض آلاءه عليه ـ فكأنك برؤية نبي الاسلام قد رأيت النبي صاحب الزبور في ترتيله محامد الله ونعمه . وكأنك ترى سليمان في جنوده وعليه جلال الملك وأبهة السلطان حينما ترى

محمداً بين أصحابه وقد فتح مكة ودخلها تحت رايات المجاهدين بأيديهم السيوف مصلتة لاقامة الحق ، والعوالي السمر مشرعة لتقويض دعائم الباطل . أما اذا رأيته وهو محصور مع ذويه في شعب أبي طالب وقد منع دخول الطعام والشراب اليه من الخارج فكأنك ترى يوسف الصديق وهو في سجن مصر يعاني شدائد الظالمين ويكابدها .

إن موسى قد جاء بالأحكام ، وداود امتاز بدعاء الله والتغني بمناجاته ، وعيسى بعث ليعلم الناس مكارم الاخلاق والزهد في الدنيا . وأما محمد رسول الله ﷺ فقد جاء بكل ذلك : بالأحكام ، ودعا الله ، والتوجيه إلى مكارم الاخلاق ، والحض على الزهد في الدنيا وزينتها ، وكل هذا تجده في القرآن الحكيم لفظا ومعنى ، وفي السيرة المحمدية قدوة وعملا .

سادتي : وأحب أن الفت انظاركم الى ناحية أخرى من نواحي السيرة المحمدية تدل على جامعيتها .

إن في الدنيا نوعين من المدارس : نوع يختص بفرع واحد من فروع المعرفة ، كالطب ، أو الهندسة ، أو التجارة ، أو الصناعة ، أو الفنون الحربية أو الزراعة ، أو الحقوق ، أو اللغة والآداب . ونوع يجمع هذه المعاهد العلمية كلها ، فمن قصده استطاع أن ينتسب إلى أي فرع شاء من فروع المعارف الانسانية . وهذا النوع الثاني هو الذي تهرع اليه طوائف الطلبة من جميع البلاد فيجد فيه كل منهم ما تميل نفسه الى التخصص فيه من العلوم ، وبهذا سميت مجموعة هذه المعاهد باسم (الجامعة) ، ومنها يتخرج قضاة المحاكم والأطباء والمهندسون وقادة الجند والناهضون بعلوم الزراعة أو الصناعة أو التجارة والمتخصصون بالآداب وعلومها والثقافة العليا وفنونها .

ومن البين الواضح للمتأملين أن المجتمع الانساني لا يتم كماله ولا تسعد حياته بضرب واحد من العلوم ، ولا بصنف خاص من أهل الحرف والصناعات بل يحتاج إلى مجموع ذلك كله . وإذا استقصينا ما يعرفه التاريخ من سير الأنبياء ، ولاحظنا ما خلفوه من ثمرات أشجارهم ، عملا بقول المسيح « من ثمارهم تعرفونهم » ، فإننا نجد لهؤلاء المعلمين الربانيين والأنبياء والمرسلين تلاميذ ومهتدين ، فالواحد منهم يكون له عشرة تلاميذ ، وآخر منهم يكون له عشرون تلميذا ، ونرى لبعضهم ستين او سبعين ، ومائة أو مائتين ، وألفا أو ألفين ونادراً ما يكون لأحد الانبياء من التلاميذ والأصحاب ما يبلغ خمسة عشر ألفا . أما المدرسة الأخيرة من مدارس النبوة وهي مدرسة خاتم النبيين محمد ﷺ فقد كان تلاميذها يعدون بمئات الألوف .

وإذا أردت أن تعلم من هم تلاميذ المدارس النبوية الأخرى ، ومن أين جاءوا اليها ، وفي أي البلاد ولدوا ، وما بلغهم من العلم . ثم كيف كانت اخلاقهم ، وكم أخذوا من أخلاق نبيهم وشمائله ، وكم كان تأثير تعليم نبيهم فيهم ، وما هي سيرتهم وهديهم ، وكم صلحت أعمالهم باصلاح رسولهم لهم ، فانك لن تجد لأسئلتك هذه أجوبة عليها إلا فيما يتعلق بآخر مدارس النبوّة ، فانك تجد لها جوابا على كل سؤال من هذه الأسئلة كلها بالتفصيل ، وتستطيع أن تقيد في دفترك أسماء تلاميذ هذه المدرسة ، وأماكن ميلادهم ، ووصف ما تعلموه منها ، ومبلغ تأثرهم بأخلاق نبيهم ، ومعرفتهم بأحواله وشئونه ـ كل ذلك تجده مسجلا مدونا مضبوطا بوضوح وجلاء .

وهلم بنا نعرِّج على جهة أخرى : إن جميع أصحاب الملل والنحل يدَّعون أن أبوابهم مفتحة للجميع . فتعالوا نرى مَن منهم كانت دعوته

عامة لجميع الناس ، وأبوابه مفتحة لمختلف الأمم والطوائف البشرية بلا استثناء . ومَن منهم كانت حلقته في عهده مقصورة على رجال من أمة واحدة ، وعلى طائفة خاصة من تلك الأمة . إن جميع أنبياء بني إسرائيل لم تتجاوز دعوتهم بلاد العراق أو بلاد الشام أو بلاد مصر ، أي أنهم لم يخرجوا من الارض التي كانوا يسكنونها ، ولم يوجهوا دعوتهم إلا لأمتهم من بني إسرائل . ولذلك لا ترى في مدارس عيسى عليه السلام رجلا غير إسرائيلي ، لأنه إنما كان ينشد الغنم الضالة من بني إسرائيل (متى ٧ : ٢٤) ، وإنما اقتصر على بني اسرائيل لئلا يلقي رغيف الصبيان إلى كلاب (الانجيل) . وأصحاب الأديان في الهند لم يكن يخطر ببالهم أن يخرجوا من أرض الأمة الآرية المقدسة (باك أريه ورت) . نعم لقد نشر ملوك البوذية دينهم في خارج الهند ، وبلغوا دعوة بوذا الى الأمم الأخرى ، لكن ذلك جاء بعد زمن الدعوة من أتباعها المتأخرين عنها ، كما فعل الذين نشروا المسيحية فيما بعد خارج دائرة إسرائيل . أما أصحاب الدعوة الأولون فقد خلت صحائف حياتهم من تعميم الدعوة حتى تشمل جميع بني آدم .

والآن تعالوا نشاهد مدرسة الرسول العربي الأمي : أي طالب هذا ؟ هذا ابو بكر ، هذا عمر ، ذاك عثمان ، وذلك عليّ . وهذان طلحة ، والزبير . ومن هؤلاء ؟ هؤلاء تلاميذ من قريش البطاح بطاح مكة وذانك من غير قريش ، إنهما أبو ذر وأنس من تهامة من قبيلة غفار . وهذان أبو هريرة وطفيل جاءا من اليمن من إحدى قبائلها وتسمى دوس ومَن هذان ؟ هذا أبو موسى وذاك معاذ بن جبل قدما من اليمن من قبيلة أخرى . وهذا ضماد بن ثعلبة من قبيلة الأزد القحطانية . وهذا خباب بن الأرث أخو تميم . ومن أي قبيلة هؤلاء القوم ؟ منقذ بن حبان ومنذر بن

عائذ من قبيلة عبد القيس استجابا لهذه الدعوة ووفدا اليها من البحرين على الخليج الفارسي . وفيهم عبيد وجعفر من سادة عمان . وفيهم فروة من معان في بلاد الشام . ومن هؤلاء الغرباء ؟ هذا بلال من بلاد الحبشة ، وهذا الأبيض يدعى صهيبا الرومي ، وهذا اسمه سلمان الفارسي من إيران ، وهذا أخو الدّيلم يدعى فيروز الديلمي ، وهذا سيخب ومركبود من الأمة الفارسية . فها أنتم ترون نماذج لمن تتلمذ على نبي الانسانية النبي الأمي العربي خاتم المرسلين ، لقد كانت حلقة هدايته مفتوحة لكل الأمم من شتى طوائف البشر .

إن صلح الحديبية الذي اتفق عليه المسلمون والمشركون في سنة ٦ للهجرة كان من شرائطه أن يكف كل من الفريقين عن القتال ، وذلك ما يدعو اليه الاسلام لأنه دين السلام والوئام ، وللمسلمين أن يبلغوا دينهم أينما أرادوا .

وماذا فعل رسول الاسلام بعد هذه الهدنة العظيمة الخطر الكبيرة الاثر ؟ إنه ﷺ أرسل في نفس تلك السنة كتبا إلى ملوك البلاد المجاورة دعاهم فيها الى الاسلام ، وبلغهم رسالة الله التي بعث بها إلى الأمم . فبعث ﷺ دحية الكلبي الى هرقل قيصر الروم ، وعبد الله بن حذافة السهمي الى خسرو برويز ملك الفرس ، وحاطب بن أبي بلتعة الى المقوقس عزيز مصر ، وعمرو بن أمية إلى النجاشي ملك الحبشة ، وشجاع بن وهب الأسدي الى الحارث الغساني سيد قومه في الشام ، وسليط بن عمرو الى رؤساء اليمامة . أرسلهم ﷺ الى هؤلاء الملوك والاقيال بكتب يدعوهم فيها إلى الاسلام ويبلغهم انه أرسل الى جميع الناس بالهداية العامة الشاملة .

سادتي : لقد تبين لكم أن مدرسة محمد رسول الله كانت جامعة

للناس من جميع الطوائف وكانت عامة للأمم على اختلاف ألسنتهم وألوانهم وطبقاتهم في الثقافة والمجتمع ، وأنه لم يكن هناك أي قيد يمنع أي انسان من الالتحاق بها ، فكأنها مأدبة كريم يدعو الجفلى . فتعالوا نلق نظرة أخرى على هذه المدرسة لنصدر حكمنا الصحيح على حقيقتها ومكانتها ومنزلتها من معاهد الهداية والحكمة ، ولنرى إن كانت خاصة بعلم دون غيره من العلوم ، أم هي جامعة كبرى يجد فيها طلاب المعارف أجمعون كل ما ينشدونه ويتعطشون إلى معرفته من حقائق الوجود ليختاروا منها ما يوافق أذواقهم ويلائم طباعهم ويروي ظمأهم . انظروا الى مدرسة موسى عليه السلام تجدوا فيها عددا من قادة الجيش أو قضاة المحاكم أو طائفة قليلة من ذوي المناصب الدينية ،وابحثوا عن تلاميذ عيسى سلام الله عليه تجدوا فيهم طائفة من الزهاد والنساك يتنقلون بين سكك فلسطين ويتجولون في شوارع مدنها . أما الذين دخلوا في الاسلام واتبعوا محمداًﷺ فتجدون فيهم أصحمة النجاشي ملك الحبشة وفروة عظيم معان وذا الكلاع رئيس حمير وفيروزاً الديلمي ومركبود من سادة اليمن ورؤسائها وعبيدا وجعفر من ولاة عمان . انظروا مرة أخرى تجدوا فيما يقابل هؤلاء الملوك والولاة والرؤساء بلالا وياسرا وصهيبا وخبابا وعمارا وابا فكيهة من العبيد والرقيق والضعفاء وسمية ولبينة وزنيرة ونهدية وأم عبيس من الاماء والضعيفات . وترون كذلك في أصحاب محمدﷺ ذوي العقول الراجحة والفكر الثاقب والرأي الحصيف وأهل الحنكة والتجربة ممن عرفوا دخائل الامور وجربوا شئون العالم ووقفوا على اسرار الدنيا وأداروا شئون الملك وساسوا البلاد كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي ومعاوية ، فهؤلاء حكموا الامم فأحسنوا ، وأقاموا شرع الله في أرض الله بين مشرقها ومغربها فاتسعت دائرة حكومتهم إلى شمال إفريقية وثغور الهند ، ونسخوا بعدلهم ورحمتهم سلطان عظماء الملوك وقوانين الروم

والفرس ، ونزلوا من قلوب الناس أكرم منزلة بعدلهم وإنصافهم ، ومن صفحات التاريخ الصادق المرتبة التي لم يبلغها فيه أحد غيرهم لا قبلهم ولا بعدهم .

وإلى جانب الخلفاء الراشدين والملوك العادلين والسلاطين المنصفين من أتباع الرسول محمدﷺ ترى طائفة غير قليلة من رؤساء الجند وقادة الجيوش من أصحاب الرسول كخالد بن الوليد وسعد بن أبي وقاص وأبي عبيدة بن الجراح وعمرو بن العاص ممن دوّخوا الشرق والغرب وقوّضوا دولتين عظيمتين كانتا سبّة على الانسانية ووصمة في جبينها بحكمها الجائر واضطهادها لرعاياهما ، فكان هؤلاء القواد من أتباع الرسولﷺ من أكبر الفاتحين في العالم ومن أصلب المحاربين عوداً وأشجعهم قلوبا وأعلمهم بأمر القتال وتعبئة الجيوش وإدارة رحى الحروب ، وان اسماءهم لا تزال رمزاً للمهابة والجلال في التاريخ العسكري . فسعد بن أبي وقاص هو الذي فتح العراق واقتحم مملكة فارس وانتزع فيها التاج عن مفرق كسرى الظالم وألقى به تحت قدمي الاسلام . وخالد وأبو عبيدة هما اللذان أخرجا دولة الروم وجيوشها من ديار الشام وطهّرا منهم أرض إبراهيم وجعلاها في أيدي الوارثين لها من المسلمين . وعمرو بن العاص الذي انتزع مصر وأرض النيل من أيدي الروم الظالمين وقذف بهم الى البحر ، وسار على أثره عبد الله بن الزبير وعبد الله بن أبي سرح متوغلين في شمال افريقيا فتحا وهداية واصلاحا . هؤلاء هم فاتحوا الممالك وقادة الجيوش الذين اعترف لهم بالكفاءة أعداؤهم وشهد التاريخ بعظمتهم وعلو كعبهم وجلال مجدهم .

وبجانب هؤلاء القادة الفاتحين الباسلين ترى طائفة اخرى من ولاة المدن وحكام الاقطار من أصحاب رسول اللهﷺ مثل باذان بن ساسان في

اليمن وخالد بن سعيد في صنعاء والمهاجر بن أمية في كندة وزياد بن لبيد في حضرموت وعمرو بن حزم في نجران ويزيد بن أبي سفيان في تيماء والعلاء بن الحضرمي في البحرين وغيرهم من أتباع الرسول حكموا الأمصار وتولوا الولايات فسعد بهم الناس وذاقوا حلاوة عدلهم وانتشر بهم السلام وساد بفضلهم الوئام بين الناس .

وبجانب هؤلاء الولاة العادلين الابرار والحكام المنصفين الاخيار ترى في أصحاب رسول الله ﷺ ثلة من العلماء الربانيين والفقهاء المتألهين كعمر ابن الخطاب وعلي بن أبي طالب وعبد الله بن عباس وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عمرو بن العاص وأمهات المؤمنين عائشة وأم سلمة وأبيّ ابن كعب ومعاذ بن جبل وزيد بن ثابت وابن الزبير رضي الله عنهم ، الذين وضعوا فقه الاسلام وسنوا للناس قوانين أنزلتهم من واضعي القوانين للعالم منزلة سامية .

وهناك جماعة خامسة ممن اعتنوا بالرواية وحفظ الوقائع والحوادث كأبي هريرة وأبي موسى الاشعري وأنس بن مالك وأبي سعيد الخدري وعبادة ابن الصامت وجابر بن عبد الله والبراء بن عازب وغيرهم من أصحاب الرسول الذين رووا سنن الاسلام واحكامه وحفظوا أوامره ونواهيه وأحصوا الوقائع والاخبار .

وبجانب أولئك جماعة سادسة يبلغ عددها سبعين صحابيا من أصحاب الصفة الذين لم يكن لهم بيت يأوون اليه الا فناء المسجد ، ولم يكن لهم من متاع الدنيا الا ما على أجسادهم من أسمال بالية ، فكانوا يخرجون الى الصحراء يحتبطون منها ويبيعون ما يجمعونه في السوق ويقتاتون بثمنه ، واذا بقي في يدهم شيء أنفقوه في سبيل الله تفرغوا للدين وانقطعوا لتعلم أحكامه وعبادة ربهم .

ثم ارجعوا البصر الى هؤلاء الاصحاب تروا فيهم زاهدا ناسكا متوكلا على الله كأبي ذر الغفاري الذي لم تظلّ السماء ولم تقل الارض مثله في صدق اللهجة وكلمة الحق ، وكان لا يدخر الطعام لغده ويعد ادخاره منافيا للتوكل على الله ، ولذلك لقبه الرسول ﷺ بمسيح الاسلام . وفيهم سلمان الفارسي الزاهد الورع والتقي الصالح . وفيهم عبد الله بن عمر بن الخطاب الذي قضى ثلاثين حولا كاملا في عبادة الله وعرضت عليه الخلافة فأباها قائلا : لا أتولى خلافة تسفك فيها قطرة من دم المسلمين . وفيهم مصعب بن عمير الذي كان يلبس قبل اسلامه الديباج الثمين والحرير الفاخر ونشأ في حجر النعيم والشرف وتقلب في بحبوحة العيش ورغده ، ثم لبس في الاسلام المسوح والخشن من الثياب المرقعة ، ولما استشهد في سبيل الله لم يكن له ثوب ضاف يستر جسده كله فاضطروا عند دفنه الى أن يغطوا قدميه بالحشيش . وفيهم عثمان بن مظعون الذي دعي فيما بعد بأنه أول ناسك في الاسلام . وفيهم محمد بن مَسْلمة الذي قال أيام الفتن : لو دخل علي مسلم بيده سيف مسلول يريد قتلي لم أكن لأقاتله دفاعا عن نفسي . وأما ابو الدرداء وما ادراك من أبو الدرداء ، فهو القاضي العالم الذي كان يقضي نهاره صائما وليله قائما .

ان من أصحاب رسول الله ﷺ من قصصت عليك ومنهم من لم أقصص عليك . ومن ذا الذي يستطيع أن يوفي البيان حقه ؟! فتعال أرك منهم جماعة من مديري أمور الأمة وساستها المحنكين كطلحة والزبير والمغيرة والمقداد وسعد بن معاذ وسعد بن عبادة وأسيد بن حضير وأسعد ابن زرارة وعبد الرحمن بن عوف ،وفيهم من التجار أصحاب المال الدثر والثراء الوفر من أهل مكة ، أو من أصحاب الحقول والحدائق الغلب من أهل المدينة .

ولا تتقدم في البيان قبل أن نحيي ذكرى الذين قتلوا منهم في سبيل الله لجرم ارتكبوه سوى أن قالوا « ربنا الله » ثم استقاموا ، وما نقموا منهم الا أن آمنوا بالعزيز الحميد . وفيهم من لم يقتل قتلة يستريح بها ، بل قطعت لحومه وكسرت عظامه وأوذي في سبيل الله ، وهذا ما وقع لهالة بنت أم المؤمنين خديجة من زوجها الاول الذي مزق جسمه تمزيقا وقطعت أوصاله تقطيعا . وسمية أم عمار التي قتلها أبو جهل بالرمح . وأما ياسر فقد أوذي بأيدي الكفار ايذاء شديدا الى أن لحق بربه . وخباب الذي صلبه المشركون . وزيد الذي طأطأ رأسه أمام السيف لينال منه كيف يشاء وعمل فيه عمله . وكذلك حرام بن ملحان وأصحابه التسعة والستون قتلوا في ديار الغربة عند بئر معونة بأيدي أعراب من بني عصية ورعل وذكوان . وإن مائة رام من بني لحيان جرحوا عاصما وأصحابه السبعة في يوم الرجيع حتى أثخنتهم الجروح . وقتل أصحاب ابن أبي العوجاء وكان عددهم تسعة وأربعين بأيدي بني سليم في السنة السابعة للهجرة . واستشهد كعب بن عمير الغفاري وأصحابه بذات أطلاح . فانظروا كم صلب لذات الله من أبناء هذا الدين الاولين وكم قتل لوجهه الكريم وكم سفك من دمائهم في سبيله . فاذا كان من الفخر عند غيرنا أن يصلب واحد في سبيل الله ونجاة خلقه فنحن قد صلب وقتل مئات من سلفنا الاولين لذات الله تعالى وحده ولنجاة الانسانية كلها من الوثنية والضلالة والشرك .

إن النفس اذا ماتت استراحت ، سواء في ذلك أقتلت بحدّ السيف أم بسنان الرمح أو صلبت ، فهي تذوق سكرة الموت لمحة ، وتتألم ببطش المنية وزهوق النفس ثم تستريح ، وأكبر من ذلك وأشد منه عذابا حياة المكابدين للبغي والظلم أعواما ، والصابرين على الاذى في سبيل الله

صبرا جميلا ، فمنهم من ذاق أنواع العذاب لثباته على قول الحق ، ومنهم من وضعت الحجارة المحماة على صدورهم وصرعوا في الرمضاء وحرّ الهاجرة وكانوا يتقلبون على ذلك ويتململون ويسحبون على وجوههم لينصرفوا عن قول الحق ويصبأوا عن عقيدة الاسلام فلا يبالون بذلك ويصرون على توحيد الله والشهادة بالرسالة المحمدية .

ثم ألم يأتك نبأ الذين حصروا في شعب أبي طالب جياعا كيف كانوا يبيتون الليالي ويقضون الايام وهم يقتاتون بأوراق الطلح بعد أن فني زادهم وصفر وطابهم(١) وأعوزهم القوت . ان سعد بن أبي وقاص مسّه ألم الجوع في ليلة شديدة من تلك الليالي فخرج من شعب أبي طالب يطلب شيئا يتبلع به ليذهب بعض ما به من ألم السغب ، فلم يجد الا قطعة جافة من إهاب ، فغسلها وشواها وأكلها بالماء .

وعتبة بن غزوان ايضا كان من الذين امتحنوا في شعب أبي طالب بأيدي المشركين ، وهو يقول : اني وأصحابي السبعة قد دميت أفواهنا من أكل هذه الاوراق والاشياء التي نقتات بها .

وخباب لما أسلم وعلم باسلامه المشركون ألقوه على الجمر الملتهب وأمسكوه عليه حتى انطفأ الجمر بالصديد والقيح الذي سال من ظهر خباب .

وبلال كان يذهب به سيده الى أرض ذات حجارة تلهبها أشعة الشمس في وسط الهاجرة فيلقيه عليها ثم يضع على صدره جندلا ثقيلا حارا وربما شد عنقه بالحبل فيجره جرا أليما في سكك مكة .

وكذلك فعل بأبي فكيهة : ربطت رجله بالحبل وسحب على الارض وخنق . وقد وضع مرة على صدره حجر ثقيل حتى ضاقت انفاسه واندلع لسانه .

---

(١) الوطب : سقاء اللبن .

وكذلك عمار أوذي ايذاء شديدا ، فكان يجندل على الرمضاء ويضرب ضربا مُبرَّحا . بل ان الزبير كان عمه يلفه بالحصير ويدخن عليه من أسفل . وسعيد بن زيد كان أهله يضربونه فيصبر . وعثمان كان عمه يضربه . فقابل هؤلاء كلهم البلايا والمحن وذاقوا العذاب الشديد برباطة جأش وثبات قلب وقوة وايمان فأشربت دملؤهم من هذا الرحيق الالهي الذي تناولوه من كأس الاسلام فلا يتحولون عنه مدى الحياة .

اخواني ، تأملوا . أليس هؤلاء هم العرب الذين كانوا في معزل عن العمران يعبدون الاوثان ويعكفون على الاصنام ، وكانوا في جاهلية ضاربين فيها بجرانهم ؟ فما بالهم انقلبت أحوالهم وتغيرت شئونهم ؟ إن ارضهم لا تزال هي الارض ، وسماؤهم كما كانت ، وبلادهم لم تتغير . فكيف انجلى عنهم ظلام الجهل ، وكيف نفخ فيهم ذلك الاميُّ روح الدين الحق فأصبح جاهلهم عالما ومحاربهم مسالما ، وماذا علَّمهم حتى انقلب الفاسد صالحا والمفسد مصلحا ، والذي لم يكن يحسن شيئا لم يلبث أن صار يدير الملك ويصرف شئون الحكومة ويسوس أمور الرعايا . وكيف نبغ منهم ذوو العقول الراجحة والآراء السديدة والافكار الثاقبة ؟ ان الرسول الاميَّ الاعزل الذي لم يحمل في شبابه سلاحا ولم يملك من قبل بلادا كيف أقام للامة العربية ـ التي لم تكن الامم تقيم لها في كفة السياسة العالمية وزنا ـ دولة ذات عظمة وجلال ، واكتشف في نفوس رجالها كنزا من القوة لا ينفد ، وكيف جعل هذا الامي من هذه الامة ـ التي لم تكن تعرف الله ولا تعلم توحيد ربوبيته ـ عبّادا ناسكين يحيون الليل بذكر الله ، ويبلغون رسالاته في النهار .

لقد أخذت بأيديكم فأريتم مسجد هذا النبيﷺ في المدينة ، وزرتم معي جامعته النبوية الكبرى زيارة كاملة ، فاجتمعتم بأصناف من

تلاميذه ، ولقيتم من اصحابه العلماء والفقهاء وواضعي النظم والاحكام ، وتعرفتم بالجندي الباسل والقاضي العادل ، وتشرفتم بزيارة العظماء من ولاته وحكامه ، وتعرفتم بالفقراء والمساكين والملوك والسلاطين ، وقابلتم السادة الاحرار والعبيد الابرار . وعرضت عليكم نماذج ممن استشهدوا في سبيل الله ، وماتوا ابتغاء مرضاة الله ، من الغزاة والمجاهدين ، فما هو رأيكم في كل ذلك وبماذا تحكمون ؟ إن أكبر ظني فيكم أنكم حكمتم وقطعتم في حكمكم بأن محمدا رسول الله ﷺ كان جامعا للكمال البشري ومثلا أعلى للمحامد الانسانية والصفات العليا ، و :

ليس على الله بمستنكر
أن يجمع العالم في واحد

كيف لا وهي المحاسن المحمدية المتنوعة ، والمحامد النبوية المختلفة ، تراءت في أصحابه جميعا وظهرت في رفقائه وتجلت في جلسائه . فبنوره استنار فؤاد الصديق الأعظم ، وبحكمته امتلأ قلب الفاروق الاكبر وعقله حكمةً وثقوب فكر وسداد رأي ، ومنه اكتسب ذو النورين عثمان الانور رحمته وخيريته وفضائله ، ومن بلاغته تفجر البيان على لسان علي كرّم الله وجهه .

وكل ما ترى في خالد وأبي عبيدة وسعد وجعفر من تدبير الحرب وإحكام الرأي في تعبئة الجيوش وزحفها ، وما ترى في الصديق من العزيمة والامانة وحرية الرأي وغنى النفس والزهد في الاموال والاعراض عن زينة الدنيا وزخارفها ، وما تراه من التبتل الى الله والانقطاع له في ابن عمر وأبي ذر وسلمان وأبي الدرداء ، وما تجد في ابن عباس وأبيّ بن كعب زيد بن ثابت وعبد الله بن مسعود من علم جم وفقه عميق في الدين

ورأي في الاحكام سديد ، وما تلاحظه على بلال وصهيب وعمار وخبيب من السكينة والسلوى والطمأنينة وقوي الايمان والحنين الى لقاء الله ، كل أولئك مقتبس من أنوار محمد نبي الله ومهبط الوحي ومحط القرآن صلاة الله وسلامه عليه ، فهو كأنه الشمس المضيئة تشرق فتنير بأشعتها قلل الجبال وبطون الاودية وصحارى الارض ووهادها وبطاحها وتتلألأ بضوئها لجج الانهار الجارية ونباتات الحقول السندسية كما تلمع بها البقاع القاحلة والرمال التي لا آخر لها ، فيأخذ كل منها نصيبه من الضوء على قدره ، بل كأنه ﷺ غيث يهطل من سحابه درور فيصيب الجبال الشماء والغابات اللفاء والصحارى القاحلة والساحات الواسعة والبطاح العريضة والحدائق الزاهية ، فيسقي جميع ذلك فينبت نباتات شتى بالاوراق الجميلة والازهار المنعشة والاشجار المتنوعة . نعم ، كان الصحابة ـ كسائر البشر ـ متفاوتين في طباعهم ومواهبهم وجبلاتهم . لكنهم ائتلفوا جميعا بالاسلام واتحدوا واشتركوا في غاية واحدة ، فكانوا يعملون لوجه الله ويبتغون بعملهم مرضاته عز وجل . سواء في ذلك قضاتهم وولاتهم وفقراؤ هم وأغنياؤ هم ورعاتهم ورعاياهم وغزاتهم وشهداؤ هم وجنودهم وقوادهم والمعلمون منهم والمتعلمون والتجار والعباد والناسكون ، فكان الاخلاص رائدهم وهداية التخلق أملهم واصلاح البشر غرضهم ، فالصحابة هداة حيثما حلوا ، وعاملون لاصلاح المجتمع البشري أينما ذهبوا . فاذا اختلفت طبائعهم وتنوعت ألوانهم وتفاوتت مظاهرهم فقد جمعتهم كلمة التوحيد ووحدة الكتاب العزيز واتجاههم جميعا الى قبلة واحدة . فما سلكوا سبيلا ولا عملوا عملا الا ابتغوا به اصلاح العالم وتقويم المجتمع البشري ومواساة بني الانسان واعلاء كلمة الحق وتقدم العمران البشري نحو السلام والامان ونشر الوئام .

اخواني وخلاني . لقد بينت لكم في هذه المحاضرة ما كان في الرسول الاعظم ﷺ من خلال جامعة وخصال « جامعية » وقد أشرت الى مظاهرها العديدة ونواحيها المختلفة . وأخالكم قد الفيتم مما درستم في طبيعة الكون مَن ألوان مختلفة ، وما عرفتم في طبائع البشر من مواهب شتى - وهذه الدنيا ليست الا مظهرا من مظاهر الحياة متنوعة الالوان - أن العالم لا يمكن أن تكون هدايته الا بالمصلح الاخير للدنيا وهو خاتم رسل الله محمد ﷺ الذي اجتمعت فيه خلال الارشاد كلها وخصال الاصلاح للنوع البشري بأجمعه ، ولذلك قال له الله عز وجل « قُلْ إن كنتُم تحبّون الله فاتبعوني يُحبِبْكم الله » فوجه الرسول ﷺ الدعوة الى كل من يدعي محبة الله بأن يتبعه ويطيع امره ، ونادى الملوك في ممالكهم والرعاع في شوارعهم والمعلمين في مدارسهم والتلاميذ في فصولهم و الفقراء في أكواخهم والاغنياء في قصورهم ، كما دعا المظلومين والمقهورين والمخذولين ، بل أهاب بالعالم كله أن يتبعوا سبيله ويقتفوا أثره ، لأن سيرته الشريفة هي المثل الاعلى وفيها الاسوة الكاملة لكل من يحب الخير ويبتغي الصلاح لنفسه .

اللهم صل وسلم عليه وعلى آله وصحبه أجمعين .

المحاضرة السادسة

الناحية العملية من السيرة المحمدية

(لَقَدْ كانَ لَكُمْ في رسُولِ الله أسوة حَسَنَة)

كيف تتبع الرسول ، وفيم تتبعه ؟ ذلك ما أتحدث لكم عنه من السيرة المحمدية في ناحيتها العملية ، وذلك ما خلت منه صحائف حياة الانبياء عليهم السلام . أما لو نظرتم الى هذه الناحية في السيرة المحمدية فستجدون حياة مليئة بالاعمال الجليلة ، عامرة بشتى الافعال . وهذا الباب من كتاب سيرته ﷺ من أوسع الابواب وأعظمها ، وبه يحكم من يشاء أن يحكم أي نبي هو خاتم النبيين وسيد المرسلين . أما من سبقه من الانبياء والرسل فلم يصل الينا من تفاصيل حياتهم ما يكون لنا أسوة فيه ، لأن الذي عرفناه من ذلك لا يشفي علة ولا يروي غلة . والاحاديث الحلوة ، والمواعظ الحسنة ، والتعاليم العالية ليست قليلة في الدنيا ، ولكن الذي يعوز الناس هو العمل بها . وهم اذا بحثوا عن العاملين بالمواعظ البليغة والحكم الرائعة والاقوال المأثورة والامثال السائرة كانوا كأنهم يبحثون عن عنقاء مغرب أو الكبريت الاحمر .

إن أخلاق المرء هي المرآة الصافية لسيرته. ومظهر جلي من مظاهرها ، وأي كتاب سماوي غير القرآن يشهد لمن تنزل عليه بأنه قد تحلى بالاخلاق الحسنة والعادات السنية . وإن صاحب ذلك الكتاب أعلى قدرا وأرفع مكانة من سائر الناس لما هو عليه من جليل الاعمال وقويم الاخلاق . أما القرآن فقد أذاع بين اعداء الرسول وأوليائه قول الله عز وجل (إنّ لَكَ

لأجراً غير ممنونٍ ، وإنّك لعلى خلق عظيم) واذا كانت احدى هاتين الجملتين معطوفة على الاخرى فانهما مربوطتان ربط العلة بالمعلول ، فالثانية علة للاولى ، فأجر الرسول لا ينقطع وثوابه من الله لا ينفذ ، إذ الرسول ذو خلق عظيم ، وأعماله وأخلاقه بلغت من العلو والسمو المبلغ الذي لا ينقطع معه أجر صاحبها ولا يقل ثوابه ، لأن معين خلقه فياض لا ينضب ونبع حسناته فوار لا يغيض وقد حق للنبي الامي العربي أن يؤ نب الناس بقول الله سبحانه (لم تقولون ما لا تفعلون)وهو لم يامر أحدا بأمر الا وقد سبقهم الى العمل به .

ادرسوا سيرة الواعظ العظيم عيسى بن مريم عليه السلام وصعوده جبل الزيتون ليعظ الناس ، وقارنوا ذلك بسيرة الداعي الهادي محمد رسول الله ﷺ وصعوده جبل الصفا يدعو أمته ، فان رأيتم أحدهما لم يقدر له العمل بما قال للناس ولم يتم ذلك له ، فانكم سترون سيرة الآخر عامرة بكل ما أمر به الناس وحثهم عليه . فالذي يعفو ويصفح مع المقدرة يعد حليما حقا وغفورا صدقا ، ويكون عمله هذا من أمثل أخلاق البشر وأفضلها . أما الذي يسكت عن غيظ لضعف وعجز فلا يعد سكوته عفوا ولا حلما ، لان العفو ينبغي أن يكون مع القدرة . والذي لا يقتل أحدا ولا يسيء الى الغير ولا يضرب انسانا ولا يسلب مالا ولا ينهب متاعا ولا يبني لنفسه بيتا ولا يدخر أموالا تعد فضائله هذه سلبية أما اذا كان ينقذ المظلوم من القتل ظلما ، وينصر الضعيف ويدفع عن أموال الناس أيدي السلب والنهب ويؤوي الذين لا بيت لهم ويتصدق بالمال على المحتاجين اليه فان فضائله تعد ايجابية ، وتسمى أعمالا صالحة والدنيا تحتاج الى هذه الفضائل الايجابية . والقرآن يذيع عن النبي الكريم أنه رؤوف رقيق القلب (فَبِما رحمة مِنَ الله لِنتَ لَهُمْ ، ولَوْ كنتَ فظاً غليظَ القلبِ لانفضوا

مِنْ حَوْلِكَ) وهذه أكبر شهادة على رقة قلب الرسول ورأفته ورحمته ، ومن زعم انها دعوى فانه يرى الدلائل الساطعة تدعمها والبراهين الواضحة تؤ يدها . ولو لم يكن الرسول ﷺ لينا دمث الاخلاق عفواً حليما لتفرقت عنه هذه الجماهير من العرب الذين نشأوا على العنجهية والاباء والشمم الى حد الاسراف في الصلابة ، ولرأفته بهم وحد به عليهم قال الله عز وجل فيه (لَقَدْ جاءكُمْ رَسـولٌ مِنْ أنفسـكُمْ عزيزٌ عَليه ما عنتُّم حَريصٌ عليكم بالمؤ منين رؤوف رحيم) فمنّ الله على العرب بهذا الرسول وقال لهم انه يعز عليه أن تبقوا في ضلال ، ويشق عليه أن تعمهوا في ظلمات الكفـر والشرك ، وأن تعرضوا عن الحق وتلجوا في عتـوّ ونفـور ، وهـو يبغـي صلاحكم ويود خيركم ويحب فلاحكم ، وهـذا هو الـذي يدعـوه الى نصحكم ويحفزه لهدايتكم وإبلاغ الرسالة اليكم ، فمن لبّى دعوته وقبل رسالته وأقبل على ما عند الرسول من الحق البين والخير الكثير كان أهلا لأن يرعى الرسول جانبه ويخصه بعنايتـه ورحمتـه . والرسـول وان يكن مبعوثا الى البشر كافة فان من آمن به وصدق بما جاء به فان له من رأفـة الرسول ورحمته وشفقته أوفر حظ وأكبر نصيب .

هذه هي شهادة القرآن ، والقرآن أحكام وتوجيهات أنزلت على رسول الله محمد ليبلغها للناس ، وسيرة الرسول هي تفسير ما في القرآن من تلك الاحكام والتوجيهات ، وحياته كلها وما صدر عنه فيها من أقوال وأفعال هي تفصيل لما جاء في القرآن ، فكل حكم جاء به القرآن قد امتثله الرسول ومثله للناس بفعله وبينّه بقوله ، فما من شيء أمر به الرسول ـ من الايمان بالله وإقام الصلاة وايتاء الزكاة وأداء نسك الحج وبذل الصدقة والجهاد والإيثار وتوجيه العزيمة واحتمال الصبر على النوائب وشكر الله على النعم والتعامل مع الناس بالفضائل ومكارم الاخلاق ـ الا وهـو مستمـد من

القرآن أو من الوحي الإلهي (لا ينْطقُ عَن الهَوَى ، إنْ هُوَ إلا وحيٌ يُوحَى) ، وما من حكم أو توجيه في القرآن الا وقد بينه الرسول للناس بقوله وعمله وخلقه هديا وسمتا . جاء بعض الصحابة الى أم المؤمنين عائشة يسألونها أن تصف لهم أخلاق الرسول وتصرفاته فأجابتهم ألسم تقرأوا القرآن الكريم ؟ لقد كان خلق رسول الله ﷺ القرآن (سنن أبي داود) فآيات القرآن وسوره أصوات وكلمات ، وعمل الرسول وخلقه معانيها وتفسيرها . وليس في الدنيا انسان أكثر علما بالرجل من حليلته ، فهي التي تعلم من فضائل زوجها وأخلاقه وعاداته ما لا يعلمه أحد غيرها . ولما ادعى الرسول النبوة كان قد مضى على زواجه بخديجة خمسة عشر عاما ، وهذه مدة تكفي المرء أن يعرف أحوال صاحبه وأخلاقه وعاداته معرفة تامة ، فحين سمعت خديجة أن محمداﷺ نزل عليه الوحي بادرت بتصديقه وآمنت به . بل ان الرسول حين فزع من نزول الوحي عليه ومجيء الملك اليه ـ لانه لم يعهد ذلك من قبل ـ هدأت خديجة جأشه وربطت على قلبه وخففت عنه ما يلقاه وقالت له : ان الله لا يخذلك . فانك تصل الرحم ، وتحمل الكَّل ، وتكسب المعدوم ، وتنصر المظلوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق . وهذا الذي ذكرته خديجة هو الذي كان يتحلى به الرسول من مكارم الاخلاق وفضائل النفس قبل أن يوحى اليه .

وان ام المؤمنين عائشة التي صحبت الرسول تسع سنوات وكانت أحب أزواجه اليه بعد خديجة تقول في وصفهﷺ : انه لم يكن يعيب أحدا ، ولا يجزي على السوء بسوء ، بل كان يعفو ويصفح ، وكان بعيدا عن السيئات . انه لم ينتقم من أحد لنفسه ، ولم يضرب غلاما ولا أمة ولا خادما قط ، بل لم يضرب حيوانا ، ولم يرد سائلا الا اذا لم يكن عنده شيء .

وعليّ صحب النبيﷺ منذ صباه الى أن شب ، فلم يكن أحد من أهل بيته أعلم منه بأخلاقهﷺ ، وهو يشهد لرسول الله أنه كان طلق الوجه ، لين الجانب ، خافض الجناح ، دمث الاخلاق ، رحيما . ولم يكن فظا ولا جافيا ولا ينطق بسوء ، ولا يتتبع عورات الناس ، ولا يتجسس على عيوبهم . فان سأله أحد ما لا يرضى سكت ولم يبد له ما يسخطه ، فيفطن من يعلم خلق الرسول ماذا يريد ، لانه لم يكن يحب أن يكسر قلب أحد بل كان يأسر القلوب ويؤلفها لانه كان رؤوفا رحيما . فيقول عليّ كرّم الله وجهه : إنهﷺ كان كريما جوادا ، وفياضا سخيا ، صادق القول لين العريكة ، من جالسه أحبه ، ومن رآه بديهة هابه . ويقول عنه ناعته : لم أر مثله قبله ولا بعده . وقد ابدى (كبّن) المؤرخ الانكليزي الذائع الصيت هذا الرأي نفسه حين درس سيرة الرسولﷺ .

ويشهد هند ـ ابن خديجة من زوجها الاول ، وهو ربيب الرسول في حجره ـ أنهﷺ كان لين الطبع غير جاف ولا فظ ، ولم يكن يسوء أحدا ولا يصدر عنه نيل من شرف أحد أو غض من كرامته . وكان يشكر الناس على اليسير من عملهم الطيب ، ويأكل ما يقدم له ولا يعيبه ، وما كان يغضب أو يقتص من أحد لنفسه ، بيد أنه اذا انتهك احد شيئا من محارم الله لم يقم لغضبه شيء (الشمائل) .

هذه شهادات أقرب الناس اليهﷺ ممن خالطوه وعاشروه وعرفوا دخائله . وهي تدل على أن سيرته الطاهرة كانت أعلى ما تكون عليه سيرة أفضل البشر . ومن أفضل سيرته وأعلاها أنه بعد ما أوحي اليه لم يأمر أتباعه وأصحابه بأمر إلا وقد سبقهم الى العمل به ، فدعا الناس الى ذكر الله ومحبته ، ولو راقبت حياته نفسها لرأيتها ملائمة لهذه الدعوة ، لانه لم

تكن تمضي عليه ساعة من نهار أو ليل الا وهو يذكر الله بقلبه ويحمده بلسانه ، فكان لسانه رطبا يذكر الله لا يفتر عنه طرفة عين ، فاذا أكل أو شرب ذكر اسم الله ، واذا فرغ من ذلك حمد الله ، واذا أخذ مضجعه أو استيقظ من نومه ذكر الله ، واذا نهض أو جلس سبّح الله أو حمده . واذا لبس جديدا شكر الله ، حتى إن اذكاره ودعواته التي حفظها الناس عنه في مختلف الاحوال شغلت فراغا واسعا من كتب الحديث ، وجمعت في كتاب (الحصن الحصين) الذي يبلغ مائتي صفحة ، ومن قرأ هذه الادعية يقضي العجب ويوقن بأنه ﷺ كان يحب الله ويخشاه ويهاب جلاله ، فكان كما وصف الله في القرآن عباده الصالحين (الذين يَذْكرونَ الله قِياما وقعُودا وعلى جُنُوبِهِمْ) وكما شهدت عائشة بأنه ﷺ كان يذكر الله ولا يغفل عن ذكره ابدا .

وأمر الناس بالصلاة وحضهم على اقامتها والمحافظة عليها أشد المحافظة ، فماذا تحسبون الرسول كان يعمل في نفسه بما كان يأمر به غيره ؟ انه ﷺ كان يقيم الصلاة ويحافظ عليها أكثر من غيره ، كان المسلمون يقيمون الصلوات المفروضة خمسا . وكان ﷺ يتطوع بالزيادة على ذلك في صلاة الضحى وصلاة الاشراق وصلاة التهجد وكان عامة المسلمين يصلون سبع عشرة ركعة المكتوبة عليهم ، وكان هو ﷺ يصلي في اليوم والليلة خمسين الى ستين ركعة من المكتوبة والنوافل . لقد سقطت عن عامة المسلمين فريضة التهجد بعدما فرضت عليهم الصلوات الخمس لكن الرسول كان يقوم الليل ويصلي صلوات لا تسل عن حسنهن وطولهن حتى كانت قدماه تتورمان من طول القيام ، فقالت له عائشة يوما : ـ وقد رأت ما يعاني ﷺ في قيام الليل ـ ان الله قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فما بالك يا رسول الله تلقى العناء وتتعب هذا التعب الشديد ؟ فأجابها ﷺ : أفلا أكون لله عبدا شكورا ؟ وكان في هذه الصلوات معنى

محبة الله أغلب عليه ﷺ من معنى الخوف ، فكان يطيل الركوع حتى يخيل الى من يراقبه أنه ربما قد نسي السجود . وكان يقيم صلاته من بدء الوحي في فناء بيت الله أمام المشركين الذين كانوا يعادونه ويؤ ذونه إيذاء شديدا . وقد هجم عليه بعض المشركين وهو في الصلاة فلم يترك صلاتـه خوفـا منهم . وكان جنبـاه يتجـافيان عن المضجـع ، وكان قليلا من الليل ما يهجع ، ويبيت ساجدا أو قائما والناس نيام . وأشد ما يكون إقام الصلاة حين يلتقي الجمعان في ساحة الحرب والسيوف مصلتة والرمـاح مشرعـة والقلوب واجفة ، ومع ذلك فانـه اذا حان وقـت الصـلاة والحـرب كما وصفناه ، اصطف المسلمون للصلاة ونبيهم إمامهم . فيتناوب بعضهـم الصلاة وبعضهم الحرب وإمامهم ثابت في الحالين الى أن يؤ دوا فريضة الله لا يمنعهم عنها مانع .

أيها القارىء ، احب أن اطوي لك من صحائف القـرون السالفـة ثلاث عشرة ورقة لأعود بك الى السنة الثانية من الهجرة . فتعال معي ننظر الى سـاحـة بدر : هؤلاء مؤ منــون ، وهؤلاء مشركون . لقـد التقــى الجمعان ، واشتد القتال بين المشركين والمؤ منين ، وحمي وطيس الحرب . أين هو الرسول يا ترى ؟ ها هوذا ساجد بين يدي رب العـالمين يدعـوه ويسأله النصر المبين بقلب ذاكر ولسان بالدعاء ناطق وناصية لعظمة الله ساجدة على الارض . لقد أقام الصلاة لأوقاتها ولم يؤ خرها الا مرتين : فقد فاتته مرة في غزوة الخندق حين تألب عليه المشركون واليهود ولم يمهلوه حتى يؤ ديها في وقتها ، ومرة أدلج الليل بطوله ثم غفا غفوة هو وأصحابه فطلعت عليهم الشمس ولم يستيقظوا حتى أيقظتهم بأشعتها ، فقضى ما فاته من الصلاة . ثم لم تفته ﷺ حتى في مرضه الذي توفي فيه ، بل قد اشتد به المرض ووهنت قوته فخـرج مع ذلك متهـاديا بـين رجلـين من

حجرته الى أن بلغ المسجد وصلى مع الجماعة . وقد غشي عليه ثلاث مرات قبل وفاته بثلاثة أيام فكان كلما همّ أن يذهب الى المسجد غُشي عليه ففاتته الصلاة مع الجماعة . هذا ما كان عليه الرسول من عبادة الله وذكره ، وهذا ما تركه خلفه لمن يأتسون به في عبادته وذكره لله عز وجل .

وأمر المسلمين بالصوم ، وليس على المسلمين الا صوم رمضان . ولكن ما ظنكم بالرسول ﷺ وصومه ؟ انه قلما يمر به شهر ، أو اسبوع من شهر ، الا كان يصوم فيه . تقول عائشة : كان ﷺ يصوم حتى يظن انه لن يفطر . ونهى المسلمين عن صوم الوصال ، لكنه يواصل الصوم يومين بل ثلاثة أيام متوالية لا يأكل فيهن ولا يشرب ، وذلك الذي يقال له صوم الوصال . وكان بعض الصحابة يحب أن يقتدي به في ذلك فيقول ﷺ « لست كأحدكم ، أيكم مثلي ان ربي يطعمني ويسقيني » وربما كان يصوم شهرين متواليين : شعبان ورمضان . وكثيرا ما كان يصوم الايام البيض (الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر) من كل شهر ، وكان يصوم ستا من شوال ويوم عاشوراء من المحرم ، وكثيرا ما كان يصوم يوم السبت ويوم الخميس من كل اسبوع . كذلك كان دأبه وهديه في الصوم .

وأمر المسلمين بايتاء الزكاة وانفاق المال في الخير لكنه بدأ ذلك بنفسه . وقد علمت شهادة أم المؤمنين خديجة له في ذات يوم قالت له: انك تحمل الكل ، وتعين على نوائب الحق وتكسب المعدوم . انه لم يأمر الناس بأن يتبعوه في ترك الدنيا ، ولم يقل لهم ضحوا بكل ما في ايديكم من اموال ولم يخبرهم بأن ملكوت السماوات موصدة أبوابه في وجوه الاغنياء . وانما الذي اوصاهم به أن يتصدقوا ببعض اموالهم كما قال الله عز وجل (وَمِمَّا رَزَقْناهُم يُنْفِقُون) . هذا بينما رسول الله نفسه لم يكن يدخر من المال شيئا

في بيته ، بل كان ينفق في سبيل الله جميع ما كان يملكه ، ولم يكن قليلا ما كان يأتيه من خمس الغنائم من ذهب وفضة ومتاع وغيره من عرض الدنيا ، فكان يخرج عنه كله لغيره من الفقراء والمساكين ، ولم يكن يتمتع هو ولا أهل بيته بمتع الحياة الدنيا ، فكان حظه وحظ أهل بيته من الدنيا الفقر والتعفف . وكان من سنته بعد أن فتحت أرض خيبر أن يوزع على أزواجه من الطعام والحبوب ما يكفيهم عاما ، لكنه قبل ان ينقضي العام كان ينفذ ما وزعه على أزواجه فيمسهم الجوع والسغب لانه كان ينفق على المحتاجين وعلى الضيوف مما يجده في بيوت أزواجه . يقول عبد الله بن عباس : ان رسول الله ﷺ كان أسخانا وأجودنا ، وهو أسخى ما يكون في شهر رمضان ، ولم يقل لسائل « لا » قط طول حياته . ولم يأكل شيئا وحده مهما كان قليلا بل يشرك فيه أصحابه ، وقد آذن الناس ، أن « من مات وعليه دين فدينه عليّ أقضيه عنه ، وما ترك من ميراث فميراثه لورثته » .

جاءه يوما اعرابي فقال : يا محمد ، ان هذا المال ليس لك ولا لأبيك ، فأوقر منه جملي . فحمله رسول الله ﷺ من الشعير والتمر ، ولم يسخط عليه ما أغلظه من القول . ثم قال : انما أنا قاسم وخازن ، والله هو المعطي . يقول أبو ذر : كنت يوما أمشي مع رسول الله ﷺ في حرة المدينة فاستقبلنا جبل أحد ، فقال : أبا ذر ! قلت : لبيك يا رسول الله . قال : ما يسرني أن عندي مثل أحد ذهبا تمضي عليّ ثلاث ليال وعندي منه دينار ، الا شيء أرصده لدين .

اخواني . لا تحسبوا أن ما قاله ﷺ انما هو كلمات عذبة وألفاظ يتجمل بها ، بل قال ما قاله عن عزيمة ولم يظهر للناس الا ما كان يكنه صدره ويعمل به مدة حياته . جاءه مرة من البحرين ذهب وفضة وأموال جمة فأمر

بوضع ذلك كله في فناء المسجد ، ثم غدا على الناس يصلي بهم الصبح دون أن تقع عينه على ذلك المال في الجهة التي وضع فيها ، فلما انصرف من الصلاة دعا الناس وطفق يوزع المال عليهم حتى فرغ منه فقام ينفض يديه وثوبه لئلا يكون علق بثوبه الطاهر شيء من غبار ذلك المال . وجاءه من فدك أربعة جمال موقرة بالطعام فقضى به بعض ديونه ، وآتى منه بعض الناس ، ثم سأل بلالا : هل بقي من ذلك الطعام شيء ؟ فأجابه بلال : لقد بقي منه شيء وليس هاهنا من يأخذ . فقال ﷺ لا ادخل بيتي ما بقي منه شيء . وبات تلك الليلة في المسجد ، فلما أصبح بشره بلال قائلا : ان الله قد وضع عنك . يعني أن بقية الطعام قد قسمت ولم يبق منه شيء فشكر الله . ودخل بيته ذات يوم بعد صلاة العصر على غير عادته ، ولم يلبث أن خرج منه فاستغرب الناس ذلك ، فقال لهم : اني تذكرت في الصلاة أن في بيتي شذرة من الذهب فخشيت أن يجيء الليل وهي في بيت محمد . ودخل بيته ذات يوم حزينا كئيبا فسئل عن ذلك فقال : يا أم سلمة ان ما جاءنا من الدنانير السبعة قد بقي في الفراش ، وقد حان المساء . ومما يدل على زهده ﷺ في الدنيا ومتاعها أن الرسول ﷺ مرض مرضه الذي توفي فيه . وكان يتقلب عل فراشه من شدة المرض . فتذكر وهو في هذه الحالة أن في بيته دنانير ، فأمر أن يتصدق بها وقال : أيلقى محمد ربه وقد خلف في بيته دنانير ؟ فهذا ما كان ﷺ في حياته من انفاق المال والصدقة .

لقد رغَّب محمد رسول الله ﷺ في الآخرة ، وزهَّد في الدنيا ، وحث على القناعة بالقليل منها والكفاف من العيش . فلننظر الى عيشه كيف كان يعيش ويحيا . لقد علمتم ان الله بسط على المسلمين الدنيا ووسع في أرزاقهم فكانت تجبى اليه الاموال من الخراج والعشر والجزية والزكاة والصدقات ، وكانت قوافل الابل تحمل الطعام والمال الى المدينة ، أما

رسول الله ﷺ فلم يكن له حظ من تلك الاموال الكثيرة ، وكان أهل بيته في ضنك وكفاف ، تقول عائشة رضي الله عنها : توفي رسول الله ﷺ ولم يشبع يومين متواليين. وتقول : لم يكن في بيته يوم التحق ﷺ بالرفيق الاعلى سوى صاع واحد من شعير ، وكانت درعه مرهونة عند يهودي بصاع من شعير . كان الرسول ﷺ يقول « ما لابن آدم من دنياه غير بيت يأوي اليه ، وثوب يلبسه ، وخبز جاف يأكله ، وماء يشربه » (الترمذي) . ولم ينطق ﷺ بهذه الكلمات في الزهد بالدنيا الا وقد رضي لنفسه بهذا القدر ، وعمل به طوال حياته ، ولم يمد عينه الى زهرة الدنيا وزينتها ، فكانت له حجرة مطينة غير مشيدة جدرانها ، وكان سقفها من الخوص والوبر . تقول عائشة : لم يُطوَ ثوبه ابدا . تعني أنه لم يكن له ثوب آخر غير الذي على جسده الطاهر . جاءه مرة سائل يشكو الجوع الشديد ، فأرسل الى أزواجه يطلب للسائل طعاما من بيوتهن ، فلم يجد عند احداهن شيئا غير الماء . ويقول طلحة : رأيت رسول الله ﷺ يوما مضطجعا على فرش المسجد يتململ من الجوع . وشكا اليه بعض الصحابة الجوع ذات مرة وكشفوا عن بطونهم فاذا حجر قد شده كل واحد على بطنه ، وأراهم ﷺ بطنه وقد شد عليه حجرين . وكان صوته ﷺ يضعف أحيانا من شدة الجوع . وذهب مرة الى بيت صاحبه أبي أيوب الانصاري وهو جائع ، فصنع له أيوب طعاما وقطف له بعض الرطب من حديقته ، فلما قدم اليه الطعام أخذ منه خبزا ووضع عليه شيئا من اللحم وقال : ابعثوا به الى فاطمة فانها لم تأكل شيئا منذ ايام . وكان يحب بنته وسبطيه حبا جما ، غير أن حبه لهم لم يحمله على أن يكسوهم لباسا ناعما أو يحلي بنته حلية ثمينة . ورأى فاطمة قد لبست ذات يوم قلادة من الذهب جاءها بها زوجها علي كرّم الله وجهه فقال ﷺ لها : يا فاطمة أتحبين أن يقال أن بنت محمد قد لبست طوقا من نار ؟ فنزعت تلك القلادة من عنقها

واشترت بثمنها عبدا واعتقته . ورأى عائشة قد لبست سوارين من ذهب فأمرها أن تنزعهما فنزعتهما حين قال لها : هذا لا ينبغي لآل محمد . وكان يقول : يكفي الانسان من الدنيا ما يتزود به الغريب في سفره . هذا قوله ، أما عمله فيدل عليه ما روي أن احد الصحابة دخل عليه فرآه قد أثر الحصير في جسمه الشريف فقال : ألا نهدي اليك فرشا وثيرا ؟ فأجابه : مالي ولدنياكم ، ليس لي اليها حاجة الا كما يستظل الراكب في طريقه ليستريح ساعة من نهار ثم يمضي قدما . وفي السنة التاسعة للهجرة وكانت رقعة الدولة الاسلامية قد امتدت الى اليمن والشام ولا ينفذ فيها الا أمره حتى أنه لم يكن يملك الا ازارا وسريرا خشنا لا فرش له ووسادة حشوها ليف وقليلا من الشعير وجلد حيوان في ناحية من البيت وقربة ماء معلقة على وتد ، فاذا كان ذلك هو تزهيده الناس في الدنيا ، فهذا هو عمله الذي رأيتم .

اخواني . لا شك أنكم سمعتم كثيرا عن الناس يخطبون في « الايثار » ويحثون الناس عليه ، فهل رأيتم مثالا عمليا للايثار في صحيفة حياة واعظ ؟ اذا شئتم أن تروا الامثلة عليه فالتمسوها في سيرة الرسول الاعظم الذي علم الانسانية فضائل « الايثار » وحذرها عواقب « الاثرة » . أنتم تعلمون مبلغ حبه لابنته فاطمة رضي الله عنها ، ومع ذلك فانها كانت تطحن بيدها حتى مجلت ، وتحمل قربة الماء على صدرها حتى اخضر . فجاءته ذات يوم تسأله خادمة ـ والإماء يومئذ كثيرة ـ فقال لها : يا فاطمة ، لم أفرغ بعد من حاجات أهل الصفة فكيف أقضي حاجتك ؟ ويروى أنه قال لها : ان ايتام شهداء بدر سبقوك في أمر الخوادم والعبيد . وأهدت اليه صحابية رداء في أحد الايام ، فنظر اليه احد الحاضرين وقال : ما أجمل هذا الرداء ، فدفعه اليه .

وأراد أحد الصحابة أن يقيم مأدبة فرح له ، ولم يكن عنده ما يقدمه للأضياف ، فأتى النبيﷺ يستعينه ، فأرسله الى عائشة لتعطيه سلة دقيق كانت في بيتها ، فذهب ورجع بها ، ولم يبق في بيت الرسول تلك الليلة ما يأكله .

وذهب مرة بأصحاب الصفة الى بيت عائشة وقال لها : هلمي ما عندك من طعام ، فجيء بطعام من نخالة ، فلم يشبعهم . فقال لها : هلمي شيئا آخر ، فجيء بحساء من تمر ، ثم بقدح من لبن . ولم يكن في بيته غير ذلك فكان اللبن آخر ما قدمه للأضياف ، فآثرهم بكل ما عنده .

وان شئت أن تشاهد المثل الاعلى للثقة بالله والاعتماد عليه فشاهد ذلك في بيت هذا الرسول من الله ، فان الله أمره بقوله (فاصْبِر كما صَبَرَ أولو العَزْمِ مِنَ الرّسُل) فامتثل أمر ربه . وأنت تعلم أنه بعث في أمة أُمِيَّةٍ ذات حمية وأنفة تمنعها أن تسمع كلمة مخالفة لعقائدها ومزاعمها ، وهان عليها ان تموت في سبيل ذلك . لكن الرسولﷺ قام برسالته صابرا مثابرا فكان يوحد الله في المسجد الحرام ويصلي على أعين المشركين في فناء المسجد الذي كان ناديا لهم ومجتمعهم ، فكان يركع لله ويسجد أمامهم غير مبال بهم . ولما نزل قول الله سبحانه (فاصْدع بما تُؤمَرْ) صعد جبل الصفا ونادى المشركين ، فلما اجتمعوا اليه بلغهم دعوة الله . وقد امتحنوه بضروب من الاذى حتى القوا عليه مرة سلأ جزور وهو قائم يصلي في فناء البيت الحرام . بل أرادوا مرة أن يخنقوه بالرداء ، والقوا الشوك في طريقه ، لكنه صبر كما صبر أولو العزم من الرسل .

ولما هم عمه ابو طالب أن يخرج من ذمته ويمسك يده عن حمايته ، قال له وقد حميت أنفته : « يا عم ، ان قريشا لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري لا أنتهي من تبليغ هذه الرسالة » . وان قريشا قد

حصرته وبني هاشم في شعب أبي طالب مدة ثلاثة أعوام ومنعوهم الطعام حتى كان الصبيان يتضورون جوعا . واضطر الرجال ان يقتاتوا بورق الشجر ، ثم بيّتوا قتله ، لكن الرسول ﷺ لم يداخله الخوف ولم يتردد في تبليغ الرسالة التي بعث بها . ثم خرج الى المدينة واختفى في طريقه مع صاحبه أبي بكر في غار ثور وتتبعه المشركون حتى بلغوا مدخل الغار واقتربوا منه ولو نظروا الى أقدامهم لرأوه ، وفزع ابو بكر في تلك الساعة العصيبة فقال : يا رسول الله ، انما نحن اثنان فقال له ﷺ بصوت تمازجه الطمأنينة « ما ظنك باثنين الله ثالثهما ، لا تحزن ، إن الله معنا » ووعدت قريش من يأتي به جائزة قدرها مائة من الابل ، فخرج سراقة بن جعشم يركض فرسه وبيده رمحه حتى اقترب من الرسول فقال أبو بكر : يا رسول الله قد أدركنا ، وكان أبو بكر يكثر الالتفات يمينا ويسارا ، اما الرسول فكان هادىء النفس مطمئن القلب يذكر الله ولا يلتفت الى شيء . وبعد أن نجاه الله وبلغ المدينة لم يأمن غوائل قريش ومكايد اليهود فكان محاطا بالاخطار من كل جانب حتى كان المسلمون يحرسون بيته في الليل فنزلت هذه الآية (والله يَعْصِمُكَ مِنَ الناس) فخرج لساعته من الخيمة وقال للذين يحرسونه : إذهبوا فان الله وعدني بعصمته وتولىّ حفظي .

ورجع من غزوة نجد . فاستظل بشجرة في ساعة الهاجرة وتفرق عنه أصحابه ولم يبق عنده أحد . ولما غلبته عيناه جاءه اعرابي من المشركين وقد سل سيفه ، فانتبه الرسول ﷺ فقال له الاعرابي : « من يعصمك مني ؟ » (تأمل حرج هذا الموقف) ، فاجابه ﷺ وجاشه رابط وقلبه مطمئن بالايمان : « الله ! » فما طرقت هذه الكلمة سمع الاعرابي حتى تأثر بها وأغمد سيفه .

وخرج المسلمون الى ساحة بدر في قلة من العَدد والعُدد وهم لا

يزيدون على ثلاثمائة وثلاثة عشر مقاتلا بعضهم معه سيف بلا رمح وبعضهم معه رمح ولا سيف معه ، وعدوهم نحو الف مقاتل في سلاح تام وعتاد كامل . فالتقى الجمعان وحمي وطيس الحرب . ترى أين هو قائد جيش المسلمين ؟ أنظر ، ها هو قد اعتزلهم لاجئا الى ربه يدعوه تارة ويستفتح على المشركين ، ويسجد لله تارة وهو يقول : « اللهمّ أنشُدُك عهدكَ ووعدك ، اللهم ان شئت لم تُعبد بعد اليوم » .

وربما وقع الخلل في صفوف المسلمين وتفرقوا عن الرسول ، فيبقى هو ثابتا في موضعه كالجبل الذي لا يزعزعه شيء واثقا بربه متوكلا على تأييده راجيا نصره ، كما وقع في سفح أحد حين تفرق عنه أكثر الصحابة ، فثبت هو مكانه ، والمشركون تارة يحملون عليه بالسيوف ، وأخرى يشدون عليه بالرماح ، ويرمونه أحيانا بالحجارة والسهام حتى انكسرت ثنيته وشرخ رأسه ودخلت في رأسه حلقة المغفر ، ففي تلك الساعة الرهيبة كان واثقا بنصر الله الذي وعده بعصمته فلا يخذله . وكذلك وقع في حنين حين كانت سهام المشركين تقع على المجاهدين المسلمين كالمطر ، فتفرق المسلمون ، لكن الرسول ﷺ لم يبرح مكانه ، بل ظل ثابتا يدعو الناس الى الله وهو يقول :

أنــا النبــيُّ لا كَذب   أنــا ابــنُ عبــدِ المطلب

ثم ترجل عن مطيته وقال « أنا عبد الله ورسوله » ورفع يديه يسأل الله ويدعوه .

اخواني . هل سمعتم بقائد باسل لا يبالي بقلة جيشه ونقص عدتهم ، ولا ينكص على عقبيه ولا ينسحب من ساحة القتال وان تفرق عنه جنده ، ويستغني عن سلاحه باستنجاد ربه وطلب نصرته ؟ ذلك كان مبلغ ثقته بالله ، ويقينه بنصرته واعتماده على مدده .

واخالكم سمعتم بواعظ يعظ الناس بأن يحبوا أعداءهم ويحثهم على مودة مبغضيهم ، وأن يزجروا الطير تمر سعدا للذين يزجرون لهم الطير تمر نحسا ، لكني لا أحسبكم رأيتم أمثالاً عملية لا تعاظ الناس بهذه المبادىء فتعالوا معي الى مدينة الرسول لنرى أمثلة رائعة للعمل بالمبادىء لا أظنكم ترون مثلها في أمكنة اخرى . واتركوا ما جرى في مكة فان النبي ﷺ لم تكن له فيها قوة فلا نضرب المثل منها للحلم والعفو عن مقدرة . لكنه لما خرج من مكة ومعه صاحبه أبو بكر تعقبهما سراقة وهما في طريقهما الى المدينة وكان يطمع بجائزة قريش وهي مائة من الابل لمن يأتيها برأس الرسول ، فجعل يركض فرسه والطمع في الجائزة يستفزه حتى دنا منهما ، وخاف أبو بكر على الرسول ودعا الرسول ربه أن يعصمهما من شره فساخت قوائم فرس سراقة في الرمل فاضطر أن يترجل وجعل يستقسم بالازلام كعادتهم في الجاهلية فخرج له الذي يكره ثلاث مرات ومع ذلك ظلت قوائم الفرس في الرمل فأيقن سراقة بالشر وعزم على الرجوع ، فنادى الرسول وطلب منه الامان وأن يكتب له بذلك كتابا وأن لا يؤ اخذه يوم تعلو كلمته فيتغلب على قريش ، فأمر الرسول أبا بكر فكتب له كتاب الامان ، فلما فتحت مكة ورأى سراقة بعينه كيف تغلب الرسول ﷺ وعلت كلمته دخل في الاسلام ولم يؤ اخذه الرسول بما كان يريده من قتله ، بل لم يسأله عن ذلك البتة .

وقد علمتم أبا سفيان ومكانته من مشركي قريش ، ونشاطه في مقاومة الاسلام حتى لم يدع النبي ﷺ يقر قراره ويطمئن باله في المدينة ، وهو الذي زحف بالجيوش وعبأ المشركين في بدر وأحد والخندق وكان قائدهم في معظم الحروب التي قامت بين المسلمين ومشركي العرب ، وكم من مسلم قتل ، وجريح جُرح في تلك المعارك ، لكن أبا سفيان هذا مع كل ما تقدم منه جاء الى النبي ﷺ مع عمه العباس قبل فتح مكة ولو أنه قتله

لكان بذلك معذورا ، لكنه ـ وهو الذي بعثه رحمة للعالمين ـ وقد وسعت رحمته أبا سفيان فشمله بعفوه . ولم يكتف بالعفو حتى أكرمه وأعزه ونادى في الناس يوم فتح مكة : « من دخل دار أبي سفيان فهو آمن » .

وعرفتم هندا زوج أبي سفيان في الحروب ، وهي التي كانت مع لداتها من نساء المشركين تزجر وتحرض على القتال وتخطب في غزوة أحد ، وهي التي مثلت بعم النبيﷺ حمزة ، فلما رأى النبيﷺ عمه حمزة بعد الحرب وقد مثل به جزع لذلك المنظر المؤلم ، ومع كل هذا فقد أتته هند يوم الفتح متنقبة فلم يتعرض لها ولم يسألها عما فعلت ، بل عفا عنها وصفح . فلما رأت هذا العفو النبيل أكبرته ولم تتمالك أن صاحت قائلة : يا محمد ، لم يكن أهل خباء أبغض الي من أهل خبائك قبل اليوم ، وأنا اليوم ليس أهل خباء أحب الي من أهل خبائك .

وبعد فتح الطائف خرج وحشي قاتل حمزة رضي الله عنه هاربا يلتمس مكانا آخر فاختبأ به ، فلما أظل سلطان الاسلام هذا المخبأ الذي لجأ اليه وحشي قال له قائل : انك لا تعلم ما نعلم من أمر محمدﷺ ، انك لن تجد لنفسك مأمنا الا عنده . فحضره خائفا ، فلما وقع عليه نظر النبيﷺ غض عنه بصره وتذكر في تلك اللحظة عمه حمزة وقتله بيد هذا الرجل ، فذرفت الدموع من عينيه الشريفتين ، وها هو القاتل أمامه ولو أراد أن يقتص منه لكان ذلك حقا وعدلا ، لكنه عفا عنه واكتفى بأن صرفه قائلا : « اليك عني ! فاني اذا رأيتك تذكرت عمي حمزة وشهادته » .

وهذا عكرمة وأبوه أبو جهل كانا أعدى عدوين للاسلام والمسلمين ولرسول الله خاصة ، فأبو جهل آذى النبي الكريم أذى لم يؤذه أحد مثله ، وابنه عكرمة قاتل المسلمين فلما فتح الله مكة لرسوله خاف على

نفسه مما فعله هو وأهل بيته بالنبي والمسلمين ، ففر ناجيا بنفسه الى اليمن ، وكانت زوجه قد أسلمت من قبل وعرفت الرسول حق المعرفة ، فذهبت بنفسها الى اليمن وربطت على قلب زوجها وهدأت روعه ورجعت به الى المدينة ، فلما بلغ النبيﷺ قدومه سارع اليه يرحب به حتى سقط عنه رداؤه ثم قال لعكرمة بن أبي جهل وهو فرح مسرور : « مرحبا بالراكب المهاجر » وهل تعلمون بمن يرحب رسول اللهﷺ ، ومن هو هذا القادم الذي فرحﷺ بقدومه حتى سقط عن منكبه رداؤه ، وشمله بعفوه وصفحه ؟ ان هذا كله لرجل سبق منه قبل اسلامه أن قاتل المسلمين وآذاهم ، بل هو ابن الذي ألقي على الرسولﷺ سلاً جزور ، والذي همَّ أن يهجم عليه وهو يصلي في المسجد الحرام ، والذي همَّ ان يخنقه بالرداء ، والذي أشار في دار الندوة بقتل حامل هذه الرسالة الإلهية الى الانسانية ، والذي أوقد نار الحرب بساحة بدر وكاد للاسلام المكايد ولم يقبل الصلح . هذا ابن ذلك العدو الألد ، ولم يكن هذا الولد قد اعتزل أباه بل شاركه في جميع فعلاته . فلما قدم على النبيﷺ وهو في أوج قوته هشَّ له وبشَّ ورحب به واستقبله بوجه طلق وصدر رحب[1] .

وهبار بن الأسود هو الذي كان في الحقيقة قاتل زينب بنت الرسولﷺ وله فعلات أخرى وجرائم شتى وقد خالف المسلمين أشد الخلاف ، فلما فتح الله مكة لنبيه أهدرﷺ دمه ، فأراد هبار أن يهرب الى فارس ، ثم عُدل عن ذلك وبدا له أن يحضر مجلس الرسولﷺ ، فلما جاءه قال : يا رسول الله ، كنت هممت أن أفر الى بلاد الفرس ، لكنني

(١) الناشر : ثم كان عكرمة من اجلاء الصحابة وكبار المجاهدين والفاتحين رضي الله عنه .

تذكرت عفوك العام ، وصفحك الشامل ، فجئتك معترفا بجميع ما بلغك من ذنوبي . فلما سمع النبي ﷺ اعترافه شمله بعفوه الذي وسع اعداءه جميعا وفتح له باب رحمته الذي ما زال مفتوحا للجميع .

وعمير بن وهب تآمر على قتل النبي ﷺ مع صفوان بن أمية بعد وقعة بدر ، فخرج الى المدينة يترصد النبي ﷺ ومعه سيف مسموم ، فوقع أسيرا بأيدي المسلمين وثبتت عليه جرائمه ، فخلى النبي ﷺ سبيله ولم يمسسه بسوء .

وكان صفوان بن أمية لما تآمر مع عمير بن وهب على حياة النبي ﷺ وحرض عميرا على اتمام هذه الجريمة تعهد لعمير بأن يعول عياله ويقضي عنه ديونه لو أنه هلك في هذه المغامرة ، فلما فتح الله مكة للنبي ﷺ فرّ صفوان هاربا من مكة الى جدة ليركب منها البحر الى اليمن ، فجاء عمير الى النبي ﷺ يخبره بذلك ، فأعطاه النبي ﷺ الأمان لصفوان فطلب عمير من النبي ﷺ أمارة على أمان صفوان فأعطاه عمامته ، فلما لقي عمير صفوان وألح عليه بالرجوع أبدى له الخوف على نفسه فذكره عمير بما كان من النبي ﷺ لما وقع في أسر المسلمين وحدثه بما قبل عليه النبي ﷺ من كرم النفس وسعة الصدر وسجاحة الخلق وعظيم العفو ، فانقاد له صفوان وذهب الى المدينة ، فلما حضر مجلس النبي ﷺ قال له : بلغني أنك قد اعطيتني الأمان ، فهل هذا حق ؟ فأجابه ﷺ

نعم . فقال للنبي ﷺ : لست داخلا بيتك حتى تمهلني شهرين ، فأجابه : لقد أمهلتك أربعة اشهر ولم تنقض تلك المدة حتى صلح حال صفوان وتغير قلبه ودخل في الاسلام .

ولما فتح رسول الله ﷺ خيبر معقل اليهود العظيم وحصنهم المنيع ،

صنعت يهودية طعاما ودعت اليه النبي ﷺ فأجاب دعوتها ، فقدمت له لحما مسموما ، فلما تناول منه أعلمه الله بذلك فأمسك يده عنه ودعا باليهودية فسألها عن الشاة المسمومة فاعترفت بجريمتها ، وقد بلغ من حلم رسول الله ﷺ أن تجاوز عنها ولم يؤاخذها على ذلك بسوء ، وبقي مدة حياته ﷺ يشعر بأثر ذلك السم .

وتقدم آنفا أن الرسول ﷺ عند منصرفه من نجد استظل في الهاجرة بشجرة وعلق فيها سيفه ثم ساوره النوم وقد ابتعد عنه الصحابة وتفرقوا لحاجاتهم ، اذ جاءه إعرابي من المشركين كان يرصده فأخذ السيف واخترطه ودنا من الرسول ، فاستيقظ ﷺ ، فقال له الاعرابي من يعصمك مني ؟ فقال له الرسول وقلبه مطمئن وجأشه رابط : الله ! فلما سمع المشرك هذا الجواب الذي لم يكن يرتقبه تأثر وأغمد السيف . وفي غضون ذلك رجع بعض الصحابة والأعرابي لابث لم ينصرف ، فلم يتعرض له الرسول ولم يعاقبه على ما كان همّ به . وكذلك وقع في أسر المسلمين اعرابي كان راصدا لقتل الرسول ، فلما أحضر اليه ﷺ ذعر الاسير ، فسكن الرسول روعه وخفف عنه وقال له : لو أردت قتلي ما قدرت عليه .

وقبض المسلمون على ثمانين من المشركين يوم فتح مكة وكانوا ممن يحرصون على قتل الرسول ، فلما بلغه أمرهم أمر بتخلية سبيلهم ولم يمسسهم بسوء .

اخواني : انكم تعلمون الطائف وأهلها ، وكيف قابلوا الرسول بالشر والأذى ايام كان في مكة يعاني صنوفا من المصاعب والمعضلات . ان أهل الطائف لما عرض عليهم الرسول نفسه ليجيروه ، جبهوه وردوه أقبح رد ، ولم يصغوا الى دعوته . وان سيد الطائف ورئيسها عبد ياليل

استهزأ به هو وعشيرته ، وأغرى به طغام اهل الطائف وسفلتها ليسخروا منه ، فلما مر بالطريق وقد اصطفوا صفين رموه بالحجارة فجرحت قدماه وسالت منهما الدماء على حذائه . وكانﷺ كلما جلس يستجم من التعب يمنعونه من الجلوس واذا مر بهم يرجمونه بالحجارة . وان ما لقيه من أذى أهل الطائف لم ينسه طوال حياته . ولقد سألته عائشة بعد ذلك بتسع سنين عن اشد ما لقيه من بلاء فأخبرها بأنه يوم الطائف . وكان بعد ذلك أن زحف المسلمون على الطائف في السنة الثامنة للهجرة وحاصروها فأطالوا حصارها واستعصى عليهم حصنها الحصين الذي قتل فيه كثيرون منهم ، فهم الرسول أن يرجع عنهم ، لكن أصحابه أبوا الا الفتح وسألوا النبيﷺ أن يدعو على أهل الطائف ، فرفع يديه الى السماء يدعو فقال : اللهم اهد أهل الطائف ، اللهم ألن قلوبهم للاسلام ومكنه فيها .

هذه هي رحمة الرسول وسعة صدره وسجاحة خلقه وكرم نفسه . يدعو بالخير للذين آذوه بالشر أشد الأذى ، وأبوا أن يجيروه حين استجار بهم ، ثم قاتلوه أشد القتال . ومع كل هذا لم يسأل الله لهم الا أعظم ما يعلمه من الخير وهو الهدى . أرأيتم رجلا آخر في الدنيا بلغت الرحمة من قلبه هذا المبلغ ؟ أجيبوني بالله عليكم ولا تقولوا الا الصدق .

دارت رحى الحرب على المسلمين بعد أن كانت الغلبة لهم ، وذلك لانهم خالفوا أمر الرسول ، واستهوتهم أموال المشركين فاشتغلوا بجمع الغنائم ، وحينئذ كر عليهم العدو فانهزموا وزلزلت اقدامهم ، فأحاط المشركون بالرسول ورموه بالسهام والحجارة وقاتلوه بالسلاح فانكسرت ثنيته وشج رأسه ودخل فيه ثلاث حلقات من البيضة وتضرج بالدم . فلم يزدﷺ في ذلك الموقف الرهيب على أن قال : « كيف تفلح أمة تقتل نبيها ؟ اللهم اهد قومي فانهم لا يعلمون » واذا كان المسيح عيسى بن

مريم قد قال في عظة الجبل « أحبب عدوك » فان محمدا رسول الله لم يقتصر على ارشاد الناس بلسانه بأن يحبوا أعداءهم ، بل أراهم بسيرته وعمله كيف يكون موقفهم من أعدائهم .

ان عبد ياليل ـ وأظنكم تذكرون اسمه ـ قد جبه الرسول هو وعشيرته بالمكروه وآذوه أذى شديدا . فلما نزل مع قومه على الرسول ﷺ في المدينة بعد ذلك أنزله في مسجده ، وضرب له قبة فيه ، وجعل يزوره بعد كل عشاء ، ويقص عليه ما كان يلقى وهو في مكة من عناء وجهد . ومن هو عبد ياليل ؟ هو الذي استقبل الرسول ﷺ في الطائف بالأذى ، ورجمه بالحجارة وسامه الخسف . فهل عهد من أحد فيما مضى أن يحب عدوه ويعفو عنه بمثل هذه السماحة عند المقدرة ؟ ولما فتح المسلمون مكة ودخلوها أعزة ظافرين اجتمع رجال قريش وأشرافها بفناء المسجد الحرام ، وفيهم من كان قد شتم الرسول وأذاقه ضروب الأذى وفيهم من كان قد ائتمر عليه بالقتل ، وفيهم من كذب برسالته وافترى عليه ، وفيهم من قاتله وتذرع بكل وسيلة لمحو الاسلام ، وفيهم من طعن النبي بالرمح وضربه بالسيف وفيهم من آذوا فقراء المسلمين وضعفاءهم وكووا صدورهم وظهورهم بالجمر الملتهب ، كل أولئك من رجال قريش وساداتها كانوا يوم فتح مكة واقفين منكسي رؤوسهم صاغرين ، ولعلهم كانوا يتذكرون ما سلف منهم وتحز ذكراه في ضمائرهم مترقبين أن يوقع بهم الرسول جزاء ما اقترفوا ، وحق لهم أن يخافوا ، فان الذي أجلوه عن وطنه وأخرجوه من داره قد عاد اليهم فاتحا عزيزا يقود تحت راياته عشرة آلاف من الابطال الباسلين الذين ينتظرون أوامر سيدهم لينفذوها .

في ذلك الموقف الرهيب سألهم الرسول : ماذا ترون أني فاعل بكم ؟

قالوا : خيرا . أخ كريم وابن أخ كريم . فقالﷺ : أقول اليوم ما قال يوسف لإخوته (لا تَثريب عَليكم اليَوْمَ) اذهبوا فأنتم الطلقاء .

هذه هي محبة الاعداء والعفو عنهم . وهذا ما حققه محمد رسول الله ﷺ وضرب به المثل للسماحة التي لا عهد للدنيا بمثلها ، فذلك هو العفو والصفح ، وتلك هي دماثة الخلق وسعة الصدر وكرم المعدن . إنه لم يدع الناس الى فضيلة إلا بدأ بها بنفسه . لم تكن دعوته كلمات عذبة يرسلها على الناس ، ولكنها كانت عملا يتقدم به الى الانسانية ليكون لها منه أسوة وقدوة .

إن دعاة الديانات الاخرى يسمعون الناس مواعظ حلوة من أقوال أنبيائهم ومصلحيهم . أما دعاة الاسلام فيقدمون للانسانية أمثلة عملية من سنة نبيهم وهديه . ولذلك كتب الله الخلود لهذه السنة وهذا الهدى ، والدين الاسلامي كما يدعو الأمم الى كتاب الله يدعوها كذلك الى سنة نبيه الكريم : (لقد كانَ لَكُم في رسولِ الله أسوة حسنة) . إن هذا يدل على أن الرسول نفسه مثال لهذه الدعوة ، وحياته حياة مثالية للبشر جميعا . وهذا من خصوصيات الاسلام ، فكما سن الاسلام للناس القوانين والاحكام ، عرض عليهم كذلك حياة النبيﷺ لتكون مثلا لهم يقتدون بها في حياتهم . ولذلك كان يقول لهم « صلوا كما رأيتموني أصلي » . وكانوا يتداولون أخباره في آداب المعاشرة مع الأولاد والأزواج ويروون قولهﷺ « خيركم خيركُم لأهلِهِ ، وأنا خيركم لأهلي » .

ولما وقف بعرفات في حجة الوداع كان عدد أصحابه من حوله نحو مائة الف أو يزيدون ، فبلغ رسالات ربه الأخيرة ، وأعلن فيهم أحكامه ، وأبطل بقايا رسوم الجاهلية ، ومحا ما بقي عالقا من آثار مفاسدها ، واستأصل شرها وأزال أسباب الحروب بين الأمة العربية وأبطل دواعي

الملاحم التي لم تكن قبل ذلك تنقطع . لكنـه لما أعلن إبطـال دواعـي الجاهلية بدأ بنفسه أولا فقدم من عمله ما يدعو الناس الى أن يقتدوا به ، فخاطب مائة الف من العرب الذين شهدوا موسم الحج قائلا لهم :

« إن دماء الجاهلية موضوعة تحت قدمي ، وأول دم أضعـه دم ابـن ربيعة بن الحارث » .

وأبطل ربا الجاهلية ، وأول ربا أبطله ربـا عمـه العبـاس بن عبـد المطلب .

وتأتي الكرامة والشرف مع النفس والمال . وإن معالجة الامور المتعلقة بأعراض الناس وشرفهم من أشد الأمور وأعضلها وإصـلاح ذلك يعـد غضا من كرامات الناس ونيلا من شرفهم . لذلك قلما أجترأ المصلحون على إصلاح الرسوم الفاسدة المتمكنة من نفوس الناس والضاربة جذورها في أعماق قلوبهـم حتـى إنهـا لتجـري في عروقهـم مجـرى الـدم . أمـا الرسول ﷺ فانه علم الناس المساواة بين جميع الطبقات ، ودعاهـم الى الأخوة الانسانية بأدق ما تصل اليه معانيها ، حتى إن الرقيق الذي كان في اصطلاح الجاهلية أذل الناس وأحقرهم ، دعـا الاسـلام النـاس الى أن يعاملوه معاملة الأخ والمثيل . وبدأ النبي ﷺ بنفسه فاتخـذ غلامـه زيدا بمنزلة الابن ، وسوى بين الرقيق والعربي الحر الكريم المحتـد الشريف النجار . وكان قد بلغ الإباء والفخر والخيلاء بالعرب الى أن كانوا يراعون ذلك في الحرب أشد المراعاة ، فكانت القبائل تتفاضل في درجات الشرف والكرم ، والذي يزعم لنفسه أنه أشرف من غيره وأرفع قدرا يشمخ بأنفه مترفعا عن أن يدنس سيفه في القتال بدم من يراه دونه شرفا وكرما ومنزلة . أما رسول الله ﷺ فقـد أذن في النـاس أن النـاس كلهـم لآدم وآدم من تراب : لا فضل لعربي على عجمي ، ولا لعجمي على عربي الا بالتقوى

(إن أكرَمكم عِنْدَ اَلله أتقاكم) وبهذا التعليم الجديد أعلن أن الناس كلهم سواسية الا بالفضائل فلا تعلو طبقة على طبقة ولا طائفة من القوم على طائفة أخرى ، واصبح السيد والمولى والغني والفقير سواء لا يتفاضلون الا بالنفوس الرضية والاعمال الصالحة . ولم يبق للنسب وزن في ميزان الاسلام . واحتاج هذا التعليم الى عمل يؤ يده ويقويه ويقيم له وزنا في أعين الناس . وكان النبيﷺ لما تبنى زيد بن حارثة زوجه زينب بنت جحش (وأمها أميمة بنت عبد المطلب عمة النبيﷺ) وكان المتبنى في نظام الجاهلية مثل الولد من الصلب ، فكانوا يحرمون على انفسهم نكاح حلائل من اتخذوه ابنا لهم كما يحرمون على انفسهم نكاح حلائل الابناء من الصلب ، وقد جر هذا الحكم الجاهلي مفاسد عظيمة في حياة الاسرة عند العرب ، فلما جاء الاسلام باصلاح رسوم الجاهلية الفاسدة أبطل بعضها وعدل بعضها ، فلما أراد أن يبطل أحكام الجاهلية في المتبنى ، مست الحاجة الى أن يبطل هذا الحكم الفاسد بعمل من أعمال الرسول ، ولا يخفى أن الشرف من أشد ما يحافظ عليه الناس ولا سيما العرب ، فأقدم الرسول على ما دعا اليه من ابطال حكم التبني ، وتزوج زينب حليلة زيد بعدما طلقها زيد ، وبذلك أمحى هذا الرسم الفاسد ولم يبق له أثر بعد عين .

ان حياة الرسول ملأى بالامثلة ، وعامرة بالوقائع التي تدل على أنهﷺ قدم حياته للانسانية لتكون أسوة لابنائها ، وأنا طمعا مني في الايجاز ، ووقوفا بالسامعين عند هذا الحد لكيلا يسأموا ، أمسك عن الاطناب في هذه المحاضرة لان الوقت قصير والبحث طويل .

أخواني تأملوا حياة الانبياء من آدم الى عيسى . وتفكروا فيمن سلف من المصلحين والذين بعثوا بهداية الخلق : من الشام الى أقصى الهند ،

فهل تعرفون واحدا منهم عمرت حياته بمثل هذه الاعمال الجليلة المتنوعة ، وبمثل هذه الافعال العظيمة الكاملة التي يرى فيها الناس أسوة لهم ومنهاجا لحياتهم الشخصية والاجتماعية ؟

واليكم الآن كلمة واحدة . ان أحد الواعظين والخطباء يذكر في مواعظه وخطبه (الحب الالهي) بكلمات عذبة وألفاظ فصيحة رائعة . ولكن ـ كما قيل ـ ان الشجرة تعرف من ثمرها . فماذا كان أثر الحب الالهي الطاهر في حياته العملية ؟ ولكن تعالوا ادرسوا سيرة هذا الرسول العربي الذي كان يحب الله ، تجدوه قائما في ظلمات الليل يصلي والناس نيام . ثم ترونه باسطا ذراعيه الى السماء يسأل ربه اقامة الحق وتيسير الخير ، وقلبه خاشع ، وطرفه دامع ، ولسانه رطب بحمد الله وتسبيحه وتمجيده . أليست هذه هي صورة الحب الالهي في أكمل حالاتها ؟

ان نبي الله عيسى بن مريم لما قبض عليه أعداؤه وأرادوا صلبه ، انطلق لسانه مناديا : « إيلي ، إيلي ، لم سبقتني ! » أي : ربي ، ربي ، لماذا تركتني وخذلتني . اما محمد رسول الله فانه لما دنا من الموت ، وأيقن أنه تارك هذه الدنيا ، وكادت روحه الطاهرة تفيض صاعدة الى ربها ، أخذ يناجي ربه قائلا : « اللهم الى الرفيق الاعلى » ، فهو في حنين شديد الى لقاء ربه ، وفي شوق عظيم الى رفيقه الأعلى . فأي الجملتين أدل على الحب الالهي ، وأيهما أصرح في الحنين الى لقاء رب العالمين عز جلاله وعظم سلطانه ؟

« اللهم صل عليه وعلى سائر اخوانه من الانبياء والمرسلين » .

المحاضرة السابعة

رسالة رسول الاسلام الى جميع الأنام

سادتي . بينت فيما سبق من المحاضرات الست أن حياة الانبياء هي التي يجدر أن تتخذ اسوة ، وان سير الرسل هي التي تستحق أن تكون قدوة لبني آدم أجمعين من بين سائر الطوائف العليا من الناس . وأن السيرة التي تستحق أن تكون أسوة لجميع الناس الى يوم القيامة من بين سير جميع الانبياء والمرسلين هي سيرة محمد ﷺ في حياته الشريفة .

ولما تبين أن سيرة الرسول العربي هي السيرة « المثالية » وفيها الاسوة الكاملة للعالم كله ، فان لسائل أن يسأل : ما هي الحياة الكاملة والسيرة الجامعة في هذا الرسول ، وأي شيء في رسالته للناس من رب العالمين ، وماذا بلغ الناس عن ربه ، وما هي الأحكام اللازمة في رسالته التي بعث لأجلها هذا النبي الذي ختم الله به رسالاته وأغناهم به عن أي نبي يأتي بعده ، وكيف أصلح خاتم الرسل برسالته الاحكام السالفة من الانبياء السابقين وأكمل ما كان ناقصا منها بسبب مقتضى البيئة وطبيعة الحال ؟

لا شك أن الله سبحانه قد بعث كثيرا من الانبياء في مختلف العصور ، وأنزل للبشر أحكاما على ألسنة رسله . وقد قلنا مرارا ، وأثبتنا بدلائل واضحة أن أولئك الرسل خصت رسالاتهم ببعض الامم ولبعض الازمان ، لذلك لم تمس الحاجة الى حفظها من عوامل التصحيف والتحريف ، ولم تتعلق عناية الله بصيانتها من أيدي البلى وعبث الدهر ، فضاعت أصولها المعاصرة لاصحابها أو قريبة العهد منهم ، ووجدت بعد

ضياعها تراجم دخلها كثير من التغيير والتبديل فبعدت التراجم عن أصلها كل البعد واختلفت وألحق بها وزيد فيها كثير مما لا أصل له في الصحف المنزلة . وان ضياع تلك الاصول الاولى دليل واضح على أن تلك الرسالات كانت لزمن محدود قد مضى ولولا ذلك لاقتضت حكمة الله بقاء أصولها .

أما ما بعث الله به خاتم رسله محمداﷺ فقد تولى حفظه ، وسيبقى محفوظا من كل تحريف أو تصحيف الى يوم القيامة ، لأنه آخر رسالات الله ، وسيبقى للبشر ما بقي في الدنيا بشر . ولذلك أعلن الله صفة الكمال والتمام لهذه الرسالة ووعد بحفظها ، ولم يعلن مثل ذلك ولم يعد به في أي كتاب آخر من كتبه وأية رسالة من رسالاته ، بل على العكس من ذلك نجد النص في سفر التثنية من التوراة (٨ : ١٥) على أن رسالة موسى مؤقتة وأن الله باعث غيره بغيرها « يقيم لك الرب إلهك نبيا من وسطك - من إخوتك - مثلي ، له تسمعون » ، وقال (١٨ : ١٨) : « أقيم لهم نبيا من وسط اخوتهم مثلك ، واجعل كلامي في فمه ، فيكلمهم بكل ما أوصيه به » . و(٣٣ : ١ - ٢) « هذه هي البركة التي بارك بها عبد الله موسى بني إسرائيل قبل موته فقال : جاء الرب من سيناء ، واشرق لهم من سعير ، وتلألأ من جبل فاران[1] ، وأتى من ربوات القدس ، بيمينه نار شريعة لهم » . فهذه الآيات من سفر التثنية في التوراة تدل على أن الله يبعث نبيا مثل موسى في يمينه نار شريعة ملتهبة ، وأن الله يلقي في فمه كلاما فيكلم الناس بكل ما يوحيه الله اليه . وهذا أوضح دليل على أن شريعة موسى لم تكن آخر الشرائع ولا أدومها الى يوم القيامة . وهذا النبي أشعيا

---

(١) برية فاران هي التي سكنتها هاجروابنها اسماعيل كما في سفر التكوين ٢١ : ٢١ .

يبشر ببعثة نبي آخر في الاصحاح ٤٠ من السفر المنسوب اليه . وفي سفر ملاخي بشارة برسول من رسل الله ،وكذلك سائر أسفار بني اسرائيل والزبور تدل كلها على أن ما كان عندهم لم يكن آخر رسالات الله ، ولا اتصفت شريعتهم بالبقاء والدوام . وادرسوا الاناجيل كذلك فانكم تجدون في انجيل يوحنا (١٤ : ١٦) : « وأنا أطلب من الآب أن يعطيكم فار قليطا آخر ليبقى معكم الى الابد » . وفيه (١٦ : ١٢ -١٣) « إن لي أمورا كثيرة أيضا لاقول لكم ، ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن ، وأما متى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم الى جميع الحق ، لانه لا يتكلم من نفسه » . فهذه الآيات من الانجيل دالة دلالة ليس فيها إبهام على أن ما في الانجيل ليس آخر رسالات الله ، ولم تتم به رسالات الله ، بل سيأتي بعده نبي آخر تكمل به رسالة عيسى بن مريم . أما الرسالة المحمدية فلا تنبىء بنبي آخر يأتي بعدها ، ولا بأنها ناقصة ستكمل بشيء يتلوها . ان الرسالة المحمدية تنادي بأنها كاملة وأنها تامة لا نقص فيها (اليوم أكملْتُ لكم دينكم وأتممْتُ عليكم نعمتي ورضيتُ لكم الاسلام دينا) (المائدة ٤) . ومحمدﷺ هو القائل « ختم بي النبيون » ، « ألا لا نبي بعدي » ، وأنه آخر لبنة في بناء النبوة . كل هذا من الدلائل الساطعة على أن رسالة محمدﷺ هي الرسالة الخالدة من رب العالمين لجميع العالمين الى يوم الدين . ولذلك تولى الله حفظها وصيانتها وعصمتها فقال عز من قائل (إنا نحنُ نزّلنا الذّكرَ وإنا لَهُ لحَافظون) .

اخواني . بقي سؤال آخر لا بد من الجواب عليه : هل أتى نبي آخر غير محمدﷺ برسالة عامة لجميع البشر ، وهل جاءت من الله رسالة غير الاسلام شملت دعوتها الناس جميعا ؟ ان بني اسرائيل قصروا الدنيا على انفسهم فجعلوها محدودة بحدود بلادهم ، بل زعموا أن إله العالمين هو

إله أمتهم وحدها وخصوه تعالى بأنفسهم من دون النـاس . لذلك نرى أنبياء بني اسرائيل وأسفارهم لم تعمم دعوتها لغيرهم من الأمـم ، ولا تزال الشريعة الموسوية والدين اليهـودي مقصـورين على الاسرائيليين لا يتجاوزانهم الى غيرهـم ، وأسفارهـم لا تخاطـب غيرهـم ولا تدعـو إلا اسباطهم ، بل إن عيسى المسيح لم يرع إلا غنم بني اسرائيل الضالة ، ولم يبلغ رسالته الا في قراهم ، وأرضهم والمنسوبين اليهم ؟ ولم يرغب في اعطاء خبز الأولاد للكلاب .

وكذلك صحائف (ويدا) الهندية وهي الكتب المقدسة التي يدعـي الهنادك أنها منزلة على انبيائهم من السماء ، لا تطرق نبرات تلاوتها آذانا غير آذان الامة الآرية ، وجميع الناس من غير الآريين أنجاس مناكيد . وآذان الشودر (أي الأنجاس) اذا سمعت آيات (ويدا) فليصب فيهـا الرصاص المذاب !

أما الرسالة المحمدية فهـي الأولى والاخـيرة من رسـالات الله التـي جعلها الله للناس كافة أحمرهم وأصفرهم وأبيضهم وأسودهم عربا كانوا أو عجما من الصين شرقا الى أقصى الجزائر البريطانية شمالا يستوي فيهم التتار والافرنج ، ذلك لأن إله رسول الله محمدﷺ هو إله جميع الامـم وهو رب العـالمين (الحمـد لله ربّ العـالمين) فهـو لاجـل ذلك مرسـل للانسانية كلها (رحمة للعالمين) فرسالة الاسلام رسالـة تعـم جميع البشر (إن هُوَ إلا ذِكرى للعالمين) (الانعام ١٠) ، (تَبَارَكَ الذي نزّل الفرقانُ على عبـدِهِ ليكونَ للعـالمين نَذيرا . الـذي لَهُ مُلْكُ السماوات والأرض) (الفرقان : ١ ـ ٢) ، فمحمدﷺ نذيرالدنياكلها ، ورسالته تعم العالم أجمع ، وحينما ينفذ حكم الله فلتكن شريعة الاسلام قائمة ورسالة محمد نافذة . وقد جاء في سورة الاعراف (قل يا أيهّا الناسُ إنّـي رسـولُ الله

إليكم جميعا الذي لَهُ مُلْكُ السماوات والأرْض) ، وهذه الآية تعلن عموم الرسالة المحمدية إلى كل من يبلغه نداؤ ها وتصل اليه دعوتها (وأوحي اليّ هذا القرآن لأنذركُم به وَمَنْ بلغ) (الانعام ١٩) . فثبت من هذه النصوص أن الاسلام وحده هو الذي أعلن عموم دعوته للانسانية كلها وانه هو الدين التام الكامل الجامع للمحاسن ولن يأتي بعده دين غيره . جاء في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال « بعث الانبياء قبلي الى أممهم خاصة ، وبعثت الى الامم كلها عامة » وهذا يؤ يد دعواي ، والتاريخ يشهد لها شهادة لا ترد . وكما أن السيرة المحمدية كاملة تامة ، وفيها الاسوة لجميع البشر ، كذلك دين الاسلام الذي جاء به محمد ﷺ كامل دائم وفيه صلاح العالم ورشاده .

ولسائل أن يقول : دلوني على حقيقة الرسالة المحمدية التي أكمل الله بها الأديان ، وتمت بها نعمة الله على العالمين ، وبها بعث الله خاتم أنبيائه بالسيرة الكاملة والاسوة الشاملة لجميع البشر مدى الدهر . والجواب على ذلك أن الدين يشتمل على أمرين : أمر يتعلق بقلب الانسان ويسمى (الايمان) ، وآخر يتعلق بجوارحه وبما يملكه ويدعى (العمل) . والعمل ينقسم الى ثلاثة اقسام : أولها يتعلق بالله وهو العبادة ، والثاني يتعلق بما يتعاطاه الناس بعضهم مع بعض وهي المعاملات ومعظمها القوانين والاصول ، والثالث يتعلق بآداب النفس وآداب المجتمع وهي الاخلاق . فالدين إذن عقائد ، وعبادات ، ومعاملات ، وأخلاق ، وهذه الاقسام الاربعة اكتملت بالرسالة المحمدية وتعاليم خاتم المرسلين فبلغت الغاية التي ليس وراءها غاية .

والآن تعالوا نستعرض الكتب السماوية لنقارن ما فيها من هذه الاقسام الأربعة : أما التوراة والانجيل فالذي فيهما من العقائد لا يروي

الغليل ولا يشفي العليل . نعم ، نجد فيهما ذكرا لوجود الله وتوحيده ، لكننا لا نجد فيهما دليلا يؤيد ذلك ولا برهانا يحمل النفوس على التصديق به ، كما لا تجد فيهما ذكرا للصفات الالهية التي تزكوا بها الروح الانسانية ، وتطهر بها نفوس البشر ، وتنشأ بها محبة الله وعرفانه .

فقبل البعثة المحمدية لم يكن الناس يعرفون هذه الأمور ولا كشفت لهم الحجب عن حقيقة النبوة والرسالة والوحي والإلهام ، والصلة بين الله ورسله ، ومكانة الأنبياء ومنازلهم ، وكيف يؤمن الناس بالنبوة وما معنى الايمان بالانبياء وما معنى عصمتهم . هذه المسائل كلها لم ينكشف أمرها ولم يقف الناس على بيانها قبل الرسالة المحمدية ، لأننا لم نر نبيا من الانبياء تصدى لذلك وأفاض فيه . أما الجزاء على الاعمال ، وأمر الجنة والنار ، والحشر والنشر ، والقيامة والحياة بعد الموت ، فكل ذلك غامض قليل الوضوح في التوراة ، ولا نقرأ عنه في الانجيل إلا فقرتين في جواب يهودي ، والجنة والنار لا نرى عنهما إلا فقرتين كذلك . بينما الرسالة المحمدية هي التي افاضت في هذه الأمور بوضوح عظيم .

واذا أردت أن تعرف الملائكة من التوراة يلتبس عليك أمرهم ، وقد يشق عليك أن تميز بين حديث التوراة عن الله وحديثها عن الملائكة (انظر سفر التكوين ١٨ : ١ و١٩ : ١) وذكر فيها الملكان ، والتبست في الانجيل حقيقة روح القدس التباسا تاما حتى لا يتسنى للقارىء أن يميز بين الله وروح القدس ، بل يصح عنده أنه إله أو ملك . أما الرسالة المحمدية فقد أوضحت أمر الملائكة ، وكشفت عنهم الحجب ، فأصبح مدلول هذا اللفظ بينا واضحا ومكانة الملائكة وأعمالهم معينة معلومة وأسماؤهم مذكورة ، فهو وسائط بين الله ورسله ، وينفذون إرادة الله في

تدبير العالم وتصريف الأمور في الدنيا ، كل ذلك نراه مفصلا في آي الذكر الحكيم .

هذا في العقائد مما قد فصلته الرسالة المحمدية وأوضحت أمره . أما في الأعمال ورأسها عبادة الله ، فان التوراة تتوسع في ذكر القرابين وآدابها وشرائطها ، وفيها ذكر الصوم والأدعية ، وفيها ذكر بيت إيل أو بيت الله . ومع ذلك فان هذه الأمور غير واضحة ولا تسترعي أنظار الناظرين حتى أن منهم من جنح الى إنكارها . وفيما عدا ذلك فاننا لا نجد في التوراة أنواع العبادات وأقسامها ولا طرقها ولا آدابها ولا تعيين أوقاتها ، وليس هنالك عناية تامة بتعليم العبادة للناس ، وقد أهمل جانب عظيم من كيفية ذكر الله ودعائه ، فلا نرى ما يدل على تعليم دعاء خاص لرب العالمين ، وكيف يدعو الناس ربهم ويسألونهم حاجاتهم . وترى في الزبور أدعية كثيرة ومناجاة للرب طويلة ، لكن ليس فيه ذكر لآداب العبادات وشرائطها وأوقاتها ،اما الانجيل فقلما ترى فيه ذكرا للعبادات ، بل ليس فيه ذكر للعبادة البتة . نعم تجد في فقرة منه (متى ٤ : ٢) ذكرا لتقشف المسيح وصيامه أربعين يوما . وفي الانجيل ايضا اعتراض اليهود على المسيح بأن أصحابه لا يصومون . وفيه ذكر دعاء دعا به عيسى عليه السلام في الليلة التي أرادوا صلبه فيها ، وفي ذلك الموضع دعاء آخر له ، لكننا لا نجد ذكرا لعبادات أخرى .

اما الاسلام ففيه الصلاة والصوم والحج ، مفصلة آداب كل منها وشرائطه ، وموضحة طرق عبادته وسننها . وهو يرشد الناس إلى كيفية ذكر الله ، وبأي دعاء يدعون ، وبأي كلمات بليغة يسألون رب العالمين . وقد عين لهم مواقيت الصلاة والصوم والحج ، واحكام هذه العبادات وسننها ، وكيف يسألون ربهم فيها ليستنزلوا رحمته ويستغفروا ذنوبهم ،

وكيف يتضرعون إليه ويخشعون له ويناجونه في سرهم ويذكرونه في علانيتهم ، وكيف يتوبون اليه معترفين بزلاتهم ، منيبين اليه منها متوخين تزكية نفوسهم ، وتنزيه أرواحهم ، وتطهير قلوبهم ، والتقرب الى ربهم بكل ما ينالون به مرضاته ، لتكون روح الدين قائمة وحقيقة ملموسة .

والقسم الثاني من الأعمال : المعاملات . وتستطيع أن تسميها قوانين المملكة وأصول المعاشرة ، وهذا الضرب من الأعمال مفصل تفصيلا وافيا في رسالة موسى عليه السلام ، وأقرت الرسالة المحمدية أكثره لكنها خففت من شدة أحكامه ووسعت ما ضاق منها فجعلتها صالحة لتكون قوانين عالمية . وكانت دائرة العمل بها محصورة ببني إسرائيل فلما أضاف اليها الاسلام ما نقص منها أصبحت جديرة بأن يدعو العالم كله لأن يتخذوها قوانين إنسانية عالمية . ونحن لا نرى ذكرا لقوانين المملكة في الزبور ولا في الانجيل ، وقد نجد في الانجيل بعض الاحكام في الطلاق ، أما الامور الاخرى فلا أثر لها فيه ، مع أن الدين العالمي الأبدي الذي يتكفل بحاجات المجتمع البشري يتحتم أن يشمل قوانين الدولة وأصول المعاشرة . ولما كان دين عيسى المسيح عليه السلام خاليا من هذه القوانين فقد اضطرت الأمم المسيحية الى استعارة هذه القوانين من الأمم الوثنية كالاغريق والروم . بينما الرسالة المحمدية اكتملت فيها هذه القوانين ، لأنها نظرت الى هذا الضرب من حاجات الأمم نظرا ثاقبا حكيما ، فاستوعبته من جميع نواحيه مستقصية جهاته كلها ، فلم تترك ناحية منه إلا وقد أتمتها ، فسنت قوانين كلية أقامتها على أصول جامعة استنبط منها الأئمة المجتهدون والأصوليون من فقهاء العلماء أحكاما لحاجات جدت ومقتضيات حدثت ، ولا يزالون يستنبطون منها . واستمر هذا العمل الفقهي في هذه القوانين ألف سنة من أعمار الدول الاسلامية الراقية ذات المدنيات الزاهرة والحضارات الزاهية . وعمل

بذلك المسلمون في مختلف بقاع الأرض وأقطارها ، ولا يعرف العالم كله الى الآن قانونا أعدل ولا أرحم بالانسانية ولا أصلح لها من قوانين الاسلام .

والقسم الثالث من الاعمال: الاخلاق . وإننا نجد في التوراة أحكاما عديدة تتعلق بالاخلاق ، منها سبعة تعد أصولا ، وليس في هذه الأصول السبعة إلا أصل واحد إيجابي وهو الأمر بطاعة الوالدين والبر بهما ، أما الستة الأخرى فكلها سلبية وهي النواهي : لا تقتل ، لا تسرق ، لا تزن ، لا تشهد على جارك شهادة زور ، لا تخادن حليلة جارك ، لا تطمع في مال جارك . وبعض هذه الأصول داخل في بعض ، فهي في الحقيقة أربعة .

والانجيل ردد هذه الأحكام السبعة كما هي في التوراة وزاد عليها الحث على محبة الغير ، فجاء بزيادة واحدة على ما في التوراة . أما الاسلام فقد جاء بأحكام كثيرة في المعاشرة ، وبقوانين مفصلة في المعاملات ، وأفاض فيما كان نهرا حتى جعل منه بحرا . وفي الليلة التي أسري فيها بالرسول ﷺ أعطى الله أهل الاسلام اثني عشر حكما أساسيا منها واحد في التوحيد ، وكلها مذكورة في سورة الاسراء (٢٣ - ٣٩) . وفيها خمسة إيجابية ندعوها أوامر ، وخمسة سلبية تسمى النواهي :

(وقَضى ربّك ألاّ تَعْبُدوا إلاّ إيّاه ، وبالوالدَين إحساناً : إما يَبْلُغَنَّ عندكَ الكِبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهم أفٍّ ولا تَنْهَرْهُما وقُل لهما قولاً كَريماً . واخفضْ لهما جَناح الذّلِّ منَ الرحمة وقُل ربِّ ارحَمْهُما كما رَبّياني صغيراً . ربكم أعلم بما في نفوسكُم : إنْ تكونُوا صالحينَ فإنّه كانَ للأوّابينَ غفورا . وآتِ ذا القُربى حقّه والمسكينَ وابنَ السبيلِ ولا تُبَذِّرْ تبذيرا ، إنّ المبذّرينَ كانوا إخوانَ الشياطين ، وكان الشيطانُ لربّه

كفورا . وإما تُعرِضنَّ عنهم ابتغاء رحمةٍ من ربّك ترجوها فقُل لهم قولاً ميّسورا . ولا تجعَلْ يَدَكَ مغلولةً إلى عُنُقِكَ ولا تَبْسُطها كلَّ البَسْطِ فَتَقْعُدَ ملوماً محسورا . إن ربّك يبسُط الرِّزْقَ لمن يشاءُ ويَقْدِر ، إنه كانَ بعبادِهِ خبيراً بصيرا . ولا تقتلوا أولادكُم خشية إملاقٍ نحنُ نَرْزُقُهُم وإياكُم ، إن قتْلَهُم كان خطئا كبيرا . ولا تَقْرَبوا الزِّنا إنه كان فاحشةً وساء سبيلا . ولا تقتُلوا النفسَ التي حرّم الله إلا بالحق ومن قتل مظلوماً فقد جعلنـا لوليّه سلطانا فلا يُسرف في القَتلِ إنه كانَ منصُورا . ولا تَقْرَبوا مالَ اليتيم إلا بالّتي هي أحسنُ حتى يَبلغ أشدّه ، وأوفوا بالعهد إنّ العهدَ كان مسئولا . وأوفوا الكيلَ اذا كِلْتم وزِنوا بالقسطاس المستقيم ، ذلك خيرٌ وأحسـن تأويلا . ولا تقفُ ما ليس لك به علمٌ إنّ السمعَ والبصرَ والفؤادَ كلّ أولئك كان عنه مسئولا . ولا تَمْشِ في الأرض مَرحـاً ، إنـك لن تَخْـرِق الأرض ولن تبلُغَ الجبال طُولا . كلّ ذلك كان سَيِّئُهُ عند ربك مكروهاً . ذلك مما أوحى اليك ربّك مِن الحكمة) :

١ ـ بر الوالدين وطاعتهما . و٢ـ إيتاء كل ذي حق حقه . و٣ـ الاحسان الى اليتامى . و٤ ـ الوزن بالقسطاس المستقيم . و٥ ـ إيفاء الكيل . و٦ ـ الوفاء بالوعد (هذه أمور خمسة ايجابية) .

١ ـ لا تقتل أولادك . و٢ ـ لا تقتل نفسا . و٣ ـ لا تقرب الزنا . و٤ ـ لا تقف ما ليس لك به علم . و٥ ـ لا تبذر في النفقة واقتصد فيها (وهذه امور خمسة سلبية) .

فاذا قارنتم بين ما جاء به القرآن من الاحكام الاساسية وما جاء به الانجيل والتوراة تتبين لكم حقيقة الرسالة المحمدية ويتضح لكم أنها أكملت ما كان ناقصا في الرسالات السابقة التي لم تهتم بذكر الاحكام الاساسية . ولـم تقتصر رسالـة الاسـلام على تكميل هذا النقص ، بل

عنيت بحل معضلات المجتمع البشري في الاخلاق ، ووجهت الانسانية الى الطريق المثلى في قواها ، ونبهت الانسان الى نقائصه وعيوبه وأمراضه النفسية ، ووصفت له دواء من كل داء من أدواء النفوس ، وأخذت بيده الى الجادة الوسطى في الاعمال والاخلاق والمعاملات هذا ما أكملته الرسالة المحمدية من الناحية العلمية .

ولو شئنا أن نعبر عن جميع تعاليم الاسلام باسلوب موجز ، جاز لنا أن نعبر عنها بهاتين الكلمتين الوجيزتين : الايمان ، والعمل الصالح[1] فهاتان الكلمتان تشملان جميع ما جاءت به رسالة محمد ﷺ وتحيطان بكل ما أكملته من عقيدة ، وعمل ، وخلق ، وحسن معاملة . فهما قوام الاسلام وزبدة ما جاء به محمد رسول الله ، وهما في الواقع قوام الفلاح والنجاة وملاك السعادة . فمن آمن بالله ايمانا لا يزعزعه شيء ، وأطاع الله فيما أمر به من حق وخير وعمل بذلك عملا صالحا لا يشوبه سوء ، أفلح ونجا . وقد وصف الله في كثير من الآيات شأن المؤمنين الذين يؤمنون بالله ويعملون عملا صالحا وبشرهم تارة بقوله (أولئك هم المفلحون) وتارة بأنهم (أولئك هم الفائزون) . فالفلاح البشري والفوز الانساني يرجع الى الايمان بالله والعمل الصالح بما أمر .

وقد كان بودنا ان نبسط القول في الايمان والعمل الصالح ونوفيهما حقهما من البيان والشرح ، لولا أن هذا الموقف لا يساعد على ذلك .

---

(١) والايمان الاسلامي بضع وسبعون شعبة ، وقد استقصاها اعلام الاسلام فرأوها تدور حول شيئين لا ثالث لهما : الحق ، والخير . وكل شعبة من شعب الايمان الاسلامي لا ريب أنها تدخل اما في باب الحق ، أو في باب الخير . والعمل الصالح هو عمل المؤمن بما هو مؤمن به ، فلا يكون العمل صالحا الا اذا كان من عمل الحق او من عمل الخير وهذا هو الاسلام .

محب الدين الخطيب

والذي يعنينا الآن من الكلام على الرسالة المحمدية ناحية الكمال فيها واتمامها ما كان ناقصا في الديانات السابقة مما يرجع الى العقائد والاعمال ، فأصلحت ما كان من قبل فاسدا ، وردت البدع الطارئة ، وقمعت المفاسد العظيمة الفاشية التي شوهت وجه الانسانية ، وكانت بابا لكل شر وأصلا لكل فساد ، وبذلك سدت في أصول الدين جميع الثلمات التي تسربت منها المفاسد فكانت سببا في انحطاط الانسانية عن مستواها الكريم .

وأول مسألة عَني بها الشرع المحمدي كرامة الجنس البشري ومكانته من سائر المخلوقات . وهي مسألة ترجع الى أمر التوحيد ، فالانسان قبل الاسلام كان يرى نفسه أحط منزلة من معظم المخلوقات والموجودات . كان يهاب كل ما عظمت جثته ، ويطأطىء رأسه لكل ما يبدو له أسود حالكا أو أبيض لامعا ، ولكل ذي لبن سائغ او لعاب قاتل . وبلغ خوفه من مظاهر الطبيعة ومن المخلوقات الضارة ، ورجاؤه من الاشياء التي يرتقب نفعها ، أن صار يعبد الحجارة الصم والجبال الشم والبحار الزاخرة والأنهار الجارية والاشجار الخضراء والامطار الهاطلة والنيران الملتهبة والصحارى المخيفة والافاعي السامة والأسود الزائرة والبقر الحلوب والشمس البازغة والنجوم الزاهرة والليالي المظلمة والأشباح المهيبة ، وفي الجملة كان يعبد من المخلوقات كل ما يخشى شره أو يرجو خيره ، اتقاء لضرره أو طمعا في خيراته . فلما بعث محمد برسالة الله أعلن لجميع البشر بأن هذه المخلوقات كلها إنما خلقت لهم ولم يخلقوا لها ، وأنها مسخرة لهم فلا يليق بهم أن يسجدوا لشيء منها . وقال لهم : أيها الناس ، أنتم خلفاء الله في هذا العالم ، وقد سخر لكم كل ما فيه جميعا . إن الدنيا لكم ولستم لها (وإذْ قالَ ربّكَ للملائكة إني جاعلٌ في الارض

خليفةً) البقرة ٣٠ (وَهُوَ الـذي جعلَـكُم خلائفَ الأرْض) - (الانعـام ١٦٥) .

ولأجـل استخـلاف بنـي آدم في الارض سمـت منزلتهـم بين جميع المخلوقات وشرّفهم الله وكرّمهم (ولقد كرّمنا بني آدم) (الاسراء ٧٠) فهل يجوز لخليفة الله في الأرض وقد كرمه الله أن يسجد لمن هو دونـه ، ويعبد ما هو اصغر منه شأنا ؟ وكيف يسجد بنو آدم لشيء غير الله والعالم مسخر من الله لهم (أَلَمْ تَرَ اَنّ الله سَخّـرَ لَكُم ما في الأرْضِ) (الحـج ٦٥) . (هُوَ الذي خَلَـقَ لكم ما في الأرْضِ جميعـاً) (البقـرة ٢٩) . (والأنعامَ خَلَقَها لَكُم فيها دِفءٌ ومَنَافِعُ) (النحل ٥) . (هُوَ الذي أنزَلَ مِنَ السماءِ ماءً لكم منه شرابٌ ومنه شَجَرٌ فيه تسيمون ينبت لَكُم به الزّرع والزيتون والنّخِيلَ والأعناب وَمِن كلّ الثمـرات) النحـل (١٠ - ١١) . فلبني آدم الأرض وما فيها من الشجر والخضر ومن الثمر والزهر وغيرها من المنافع والمرافق مما لا يعد كثرة ولا يحصى وفرة ، ولهم السماء وما فيها من الشمس والقمر والنجوم . (وَسَخّـرَ لَكُم اللّيلَ والنهـارَ والشـمسَ والقمـرَ والنجـوم مسخـراتٌ بأمـرهِ) . (النحـل ١٢) . ولهـم البحـر وفيضانه ، والنهر وجريانه (وَهُوَ الذي سَخّرَ البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبِسُونَها وترى الفُلْكَ مواخِرَ فيه ولِتَبْتَغُوا من فَضْلِهِ ولعلّكم تشكرُون) . (النحل ١٤) . والقرآن الحكيم حافل بكثير من هذه الآيات .

*

فدلت الرسالة المحمدية بذلك على أن موقف الانسان من هذا العالم موقف السيد الكريم مما سخر له ، وموقف المتوّج بتاج الخلافة الإلهية من كل ما هو مستخلف فيه . فالانسان مكلل بإكليل الجلال والعظمة ، لا يفوقه شيء من موجودات الكون ، والكون كله دون الانسان ، وهو نقطة

دائرة العالم وانسان عينه والغاية من خلق العالم ولأجله جعلت الدنيا . ومما يثير العجب أن يركع الانسان لمخلوق أو يسجد لما هو دونه او يعبد شيئا خلقه الله له ، وكيف يفعل الانسان ذلك وقد كرمه ربه وشرّفه وفضله على جميع ما في العالم تفضيلا .

ولما جهل الانسان قدر نفسه جعل يرفع رجالا من أمثاله فوق درجاتهم ، ويحل أناسا في مكانة رفيعة لا يستحقونها ، وقد كان يبلغ الامر بالإنسان الى أن يعبد الانسان . أما رسالة محمد ﷺ فقد عرّفت الناس بأقدارهم وأنزلتهم منازلهم واعطت كل ذي حق حقه فلم تنقص من حقه شيئا ولم ترفع أحدا من الناس فوق مكانته التي يستحقها ، فكما لم تحطّ عزيزا عن عزته الجدير بها لم ترفع أحدا فوق المقام اللائق به ، وبذلك دلت الانسان على شرفه وعلائه ، وعلمته أنه مهما كان رفيعا وذا سلطة وبأس فانه لن تبلغ به رفعته أن يعبد كما كان يريد الفراعنة أن يعبدوا ، ومهما كان طاهرا عابدا متبتلا فلا ينبغي لانسان أن يركع له أو يرجو منه ما لا يرجى إلا من الله أو يخشاه كخشية الله ومهما حاز من المال الكثير والثراء العظيم فليس له أن يستعلي بذلك على إخوانه من خلق الله . إن رسالة محمد ﷺ قد قطعت الفساد واجتثت الشر من أصولها وأعلنت في الناس بوضوح وجلاء هذه الحقيقة : (وَلَا يَتَّخِذَ بعضُنا بعضاً أرباباً من دون الله) (آل عمران ٦٤) وأذاعت في العالم عن الأنبياء أنفسهم وهم أسمى مراتب البشر أنهم لا ينبغي لأحد منهم أن يقول للناس (كُونوا عباداً لي من دون الله) (آل عمران ٧٩) .

ليس في عالم الشهادة أرفع قدرا من الأنبياء ، ولا في عالم الغيب أعلى درجة من الملائكة ، ومع ذلك لا يجوز أن يتخذ الناس أحدا من الانبياء أو الملائكة معبودين لهم (ولا يَأمرَكُم أنْ تَتَّخِذُوا الملائِكة والنبيِّينَ أربابا)

(آل عمران ٨٠) فالرسالة المحمدية رفعت مكانة الانسان وقد كانت منحطة من قبل فصار لا يخضع ولا يحني رأسه لغير الله ولا يسجد إلا له ولا يمد يده سائلا غيره ، إذ لا معطي لمن منعه الله ، ولا مانع لمن أعطاه الله (وَهُو الذي في السماءِ إله وفي الأرْضِ إله) (الزخرف ٨٤) . (ألا له الخَلقُ والأمرُ) (الأعراف ٥٤) . (إن الحُكْم إلا لله) (الانعام ٥٧) . (ولم يكُنْ له شريكٌ في المُلْكَ) (الفرقان ٢) .

ثم تأملوا أمر التوحيد بعد علمكم بأن الرسالة المحمدية رفعت درجة الانسان وعرفته بقدر نفسه ، إن هذه الرسالة أوضحت حقيقة التوحيد ورفعت عن وجهه الحجب الكثيفة وأزاحت عنه ظلمات الشرك ، فتجرد من كل ما نسجته حوله أيدي الأوهام الباطلة والعقائد الفاسدة ، فليس في تعاليم الاسلام ما يدل على أن الله أشرك قيصر معه في الحكم وأن قيصر حاكم مثله فالاسلام محض الحكم كله لله ،ليس لأحد فيه من نصيب ، فله الحكم في السماوات والأرض وله الأمر فيهما .

سادتي . إن الانسان وقد اعتز بالخلافة الالهية على الأرض وارتشف كأس المحبة لله وحده ، هل يعقل أن يسجد بعد ذلك لغير الله ، وهل يخامر قلب المؤ من بالله أي خوف من الظلمة أو النور، ومن المياه والرياح . وهل يخشى ملكا عظيما ، أو يوجس في نفسه خيفة من صحاري واسعة او جبال شامخة أو أرض رحبة أو بحار زاخرة حتى يسجد لها او يدعوها خوفا او طمعا ، إن المؤ من لا يخشى إلا الله ، ولا يبالي بغير الله ، ولا يطمع في ثراء ثري ، ولا يرجو غنى إلا من الله الغني عن كل شيء . انظروا الى تعاليم الاسلام كيف بلغت بالانسان ذروة الشرف وسنام المجد . وتأملوا كيف رفعت الرسالة المحمدية المستوى البشري ووجهت المجتمع الانساني نحو الحق والخير .

وأمر آخر وهو أن الرسالة المحمدية أذنت في البشر أن الانسان نزّاع الى الخير ، وأن فطرته بريئة في الأصل ، ثم تطرأ عليها أعماله فتجعله آثما مذنبا أو نقيا صالحا . فسيئاته التي يقترفها هي التي تؤثر فيه فتجعله شيطانا مريدا ، كما أن حسناته التي تصدر عنه هي التي تجلو نفسه وتهذبها فيكون بها ملاكا طاهرا . إن هذه لبشرى عظيمة هتف بها محمد ﷺ رسول الاسلام في بني آدم ، بعد ان كانت الأديان المنتشرة في الهند والصين من سالف الأيام تنشر الايمان بالتناسخ وبعث الارواح - بعد موت أصحابها - في أجساد أخرى أرفع منزلة مما قبلها اذا عملوا أعمالا صالحة ، أو في أجساد أذل وأحقر مما كانت فيه من قبل اذا اجترحوا السيئات . وقد ذهب الى هذا التناسخ بعض النوكي ممن ينتمون الى حكماء الأغريق وجرّ هذا الاعتقاد الفاسد وبالا عظيما على معتقديه ، فأصبحت حياته حياة إكراه وإجبار ولا اختيار له فيما يعمل ، فكأنه آلة صغيرة تحركها آلة كبيرة ، وأنه ولد مذنبا ، بل ولادته في الدنيا نذير له بأنه مجرم آثم .

وجاءت المسيحية فثبتت في الناس عقيدة أن كل مولود يحمل من ساعة ولادته خطيئة أبيه الأول آدم ، فالمولود يولد آثما مخطئا وإن لم يخطىء في الواقع ، والمخطىء الآثم بجبلته يحتاج الى المغفرة من شخص آخر لم يولد آثما ولم يخطىء بجبلته . فيفدي هذا الشخص الاخير بنفسه خطيئة بني آدم ليذهب بسيئاتهم . وهذا ما نشرته المسيحية المعروفة عند الناس داعية بني آدم الى الايمان بالفادي .

اما محمد رسول الله فقد بشر الانسان بأنه يولد غير آثم ولا مجبول على الخطيئة ، ولا مسئول عن خطيئة أبيه الأول آدم ، وانه يعيش عيشة لا إكراه فيها ولا إجبار ، وهو مخير في حياته بين أن يعمل صالحا إن شاء فيجني ثمرة صلاحه ونزاهته ، وبين أن يعمل عملا سيئا فيكون بعمله

مذنبا آثما (والتينِ والزيتونِ وطور سِنِين وهذا البلد الأمين ، لَقَد خَلَقْنا الإنسان في أحسَنِ تَقْويم ثُم ردَدْناه أسفل سافلين ، إلا الذين آمنوا وعَمِلوا الصالحات) (سورة التين) . فالاسلام بشرٌ بني آدم بأن قوامهم أحسن ، وفطرتهم أفضل ، وجبلتهم أعدل ، وأنهم بعد هذا الإعداد الالهي إنما يفسدون أو يصلحون بأعمالهم وبما يختارونه لانفسهم (ونفسٍ وما سَوّاها ، فألْهَمَهَا فُجورهَا وَتَقْوَاها . قَدْ أفلح مَنْ زَكّاها وقد خاب مَن دَسّاها) (سورة الشمس) .

وهل من دليل أوضح على حسن جبلة الانسان ونزاهة فطرته وطهارة أصله من قول الله فيه (إنّا خَلَقْنا الانسانَ من نُطْفةٍ أمْشاجٍ نَبْتليه فجعلنَاهُ سميعاً بَصيرْا . إنّا هَدَيْناه السبيل : إما شاكرا وإمّا كفورا) - (سورة الدهر) (يَا أيهّا الانسانُ ما غرّكَ بِربّك الكريم الذي خَلَقَك فَسوّاكَ فَعدلك في أيّ صورة ما شاءَ ركّبك) (سورة الانفطار) .

وإن رسول الله الذي يتحرك لسانه بالوحي ، ويصدر منطقه عن الهام ، قد جعل الدين والفطرة بمعنى واحد ، أي إنهما كلمتان لمعنى واحد . فاصل الفطرة هي الدين الذي دعى الانسان اليه ، والإثم عارض يعرض للانسان ولاحق يطرأ عليه ، ويقول الله عز وجل (فَأقِمْ وَجهَكَ للدّين حَنيفاً فطرة الله التي فَطَرَ النّاس عليها لا تَبْديل لخلْقِ الله ذَلِكَ الدينُ القيّمُ ولكنّ أكثر الناس لا يَعْلَمُون) (سورة الروم) . وقد فسر الرسول هذه الآيات فيما رواه البخاري في تفسير سورة الروم من صحيحه فقال ﷺ « ما مِن مولودٍ يُولد إلا على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو يُنصرّانه أو يمُجّسانه كما تنتج كل بهيمة صحيحة سليمة هل ترون فيها سكاء » .

إن البشرى التي بشر بها الرسول ﷺ بني آدم هي أن كل انسان مختار فيما يفعله غير مكره عليه ولا مجبر ، وليست حياته الحاضرة تنجية لحياته

الماضية فمن آمن بالرسول فقد تغيرت وجهة نظره الى أعمالـه ، فلا هو كئيب واجم ظنا منه بأنه مكره على عمل هو استمرار لحياة سالفة . فكل من آمن بالرسالة المحمدية أصبح بفضلها حرا طليقا من الاوهام الباطلة والعقائد الفاسدة التي قيدت حياة البشر وغلت أيديهم .

ان الدنيا قبل بعثة رسول الاسلامﷺ توزعتها عقائد باطلة وأوهـام سخيفة ، فكان أهل كل دين في مملكة من الممالك يحسبون أن مملكتهم هي الدنيا كلها ، فكان براهمة الهند ومتصوفوها يرون ان بلادهم هي أرض الله الممتازة وما خرج عنها لا نصيب له من رحمة الله ، لأن الله لا يريد الخير الا لقطّان بلادهم . وأمر الرسالة الالهية والهداية الربانية قد اختص به بعض البيوتـات من سدنـة المعابـد لا يعدوهـم أبـدا . وكذلك كان زردشت يحسب أن الاله انما يعني بأمر بلاده المقدسة وحدها وبأهل وطنه الاخيار ، ولا تعنيه بلاد أخرى ولا أمة أخرى . وبنو اسرائيل يظنون أن رسالات الله خاصة ببعض اسباطهم وأنها حقهم الموروث .

أما الاسلام فقد وسع على الانسانية ما ضيّقه الآخرون ، وأعلن أن الناس كلهم سواسية ، وأن دعوة الله غير مخصوصة ببلاد دون أخرى . فمشرق الدنيا ومغربها وشمالها وجنوبها وفلسطين وفارس والهند ، كلٌ قد خلا فيها رسول أو نبي ، وأن الله تعالى تستوي عنده الامم واللغات في بعثة الانبياء ، فشمس النبوة أشرقت على البشر جميعا وتلألأت فيهم أنوار الرسالة (وإن مِنْ أمة إلا خَلاَ فيها نذيرٌ) (سورة فاطر) ـ(وَلِكُلِّ قَومٍ هَادٍ) (الرعـد) (ولقـد أرْسلنـا مِنْ قبلك رُسُلاً الى قَوْمِهِمْ) (سـورة الروم) . فاليهود لا يؤ منون بنبي ليس منهم ، والنصارى لا يوجبون على أنفسهم الايمان بنبي من بني اسرائيل أوغيرهم ، ولا يرون اذا لم يؤ منوا ببعض الانبياء أن ذلك يخل بشيء من دينهم . وكذلك الهنادك لا يعتقدون

بأن الالهام الالهي والوحي الرباني نزل على بلاد غير بلادهم . وهكذا شأن المجوس أتباع زردشت فانهم يذهبون الى أن الدنيا كلها مظلمة سوداء فلا نور الا ببلادهم بلاد النار .

أما الرسالة المحمدية فقد أعلنت أن الدنيا كلها لله وحده ، وأن سكانها أجمعين من خلق الله ، وأن الاقوام على اختلافها سواسية في نعمه وآلائه ، وكلهم نالوا نصيبا من دعوته وحظاً من رحمته ، وما من بلاد عمرتها أمة الا وقد أضاء فيها نور من هداية الله ، وبُعث فيها نبي دعاها الى الحق وبلغها أوامر الله ونواهيه .

وقد علمت مما سلف أنّ الاسلام فرض على كل من دخل فيه أن يؤ من بجميع انبياء الله ورسله وبالكتب السماوية التي أوحى الله بها من قديم الزمان ، وليس بمسلم من لم يؤ من بالانبياء كلهم وبالكتب المنزلة على الرسل المبعوثين من قبل ، فالرسل الذين سماهم الله في القرآن يجب على المسلم أن يؤ من بهم ايمان تفصيل ، والذين لم تذكر أسماؤ هم يؤ من المسلم بهم ايمان اجمال بأنهم كانوا صادقين هداةً للبشر ، وكانوا ينابيع الخير والحكمة . وقد وصف الله المسلمين بأنهم (الذين يؤ منون بما أُنْزِلَ إليك وما أنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ) (البقرة) . وفي موضع آخر من البقرة (لكنَّ البر مَنْ آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين) . وفي سورة البقرة أيضا : (كلٌّ آمن بالله وملائكته وكُتُبِهِ ورُسُلِهِ ، لا نُفَرّق بين أحد مِنْ رُسُلِهِ) . فليس للمسلم أن يؤ من ببعض الرسل ويكفر ببعض . وقد خاطب الله المسلمين جميعا بقوله (يا أيّها الذين آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نَزّلَ على رَسُوله والكتاب الذي أنزل مِنْ قَبْلُ (النساء ١٣٦) .

سادتي . هل تعلمون أحدا علّم مثل هذا التعليم فسوّى بين الهداة من جميع الملل والنحل في إعظامهم وإكرامهم والادب معهم والاعتراف

بجميلهم وتصديقهم فيما دعوا اليه من حق ؟ وأين ترون مثل هذه الروحانية العامة والإخاء الشامل ؟ أجيبوني بصدق : أليس رسول الاسلام رحمة للعالمين حيث علم الناس كيف يرعون شرف الهداة وعظمة حملةِ الرسالات الالهية ، فعمت دعوته واتسعت رحمته حتى نال كل شعب من شعوب البشر وكل أسرة من أسرهم نصيبا من ذلك . ولقد اتخذ المتدينون بجميع الديانات وسائط ووسائل بينهم وبين الله ، معتقدين أنهم لا يصلون الى الله المعبود الا ان يتوسط بينهم وبينه من زعموه أهلا لذلك ، فكانت السدنة وخدمة المعابد وسائطَ الناس الى الله في قديم الزمان ، وحتى اليهود اتخذوا من سبط لاوى ومَن تناسل منه شفعاءَ بينهم وبين ربهم ، والنصارى جعلوا بعض الحواريين وخلفائهم من الرهبان والقسيسين وسائل يتوسلون بهم الى الله ، وقد غلوا في رفع مراتبهم حتى بلغوا بهم مبلغا لم يبلغه مقرَّب عند الله فزعموا أن ما يربطه هؤلاء الشفعاء في الأرض فهو مربوط في السماء وما حلوه في الأرض فهو محلول في السماء ، وأن لهم أن يغفروا للناس خطاياهم ويسقطوا عنهم آثامهم ، وأن العبادة لا تقبل عند الله الا بوساطتهم . وكذلك براهمة الهند زعموا أنهم مخلوقون من يمين الله وأنهم الوسائط بين الخلق والخالق وأن العبادة الهندوكية لا تقبل الا بهم وعلى أيديهم . أما الاسلام فلا يعترف بطائفة خاصة من سدنة المعابد وخدام المساجد وأحبار الدين ، وليس في الاسلام خاصة من سدنة المعابد وخدام المساجد وأحبار الدين ، وليس في الاسلام رهبانية ، ولا يرضى أن تكون فيه فئة تتخذ الدين مهنة ومصدر رزق ، وليس لأحد أن يعطي أو يمنع ، وما بيد أحد شيء من أمر الحَلّ والعقد بل كل ذلك بيد الله فهو الذي يغفر الذنوب وحده ، وليس بين العبد ومعبوده والمخلوق وخالقه أي تدخل لأحد في عبادة الله ومنجاته ، ولكل مسلم أن يصلي بالناس وأن يؤمهم وأن يذبح أضحيته بيده وأن يعقد النكاح ويقوم

بجميع أمور الاسلام وأوامره . والاسلام يعلم أتباعه قول الله عز وجل (ادعوني أستَجِبْ لكم) وأنه يجيب دعوة الداعين مباشرة وبلا واسطة ، فكل مسلم يدعو ربه متى شاء ويناجيه ويبثه حزنه ويشكو اليه ضره بلا أي واسطة . فالمسلم هو قسيس نفسه وهو برهميها حين يعبد ربه متحررا من قيود البراهمة والقسيسين .

لقد بعث الله رسله وأنبياءه الى البشر بالهداية واصلاح المجتمع الانساني ، ولكن الناس أفرطوا فيهم أو فرّطوا . فمنهم من غلا في تعظيمهم فرفعهم من منزلة الرسل والانبياء والهداية الى منزلة الإله المعبود أو الى منزلة شبيهة بذلك ، وانك لترى في هياكل الشام وبابل ومصر تماثيل الكهنة والاحبار تمثل الله عز وجل وتنتحل بعض صفاته ، وكذلك الهنادك جعلوا الانبياء المبعوثين فيهم بالهداية والحكمة آلهة متجسدة ، وكذلك فعل أتباع بوذا والجينيون بصلحاء ملتهم وهداة نحلتهم فاتخذوهم أربابا ، وهذا ما فعله النصارى بنبيهم عيسى بن مريم سلام الله عليه فاتخذوه رباً ودعوه ابن الله سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيرا . ذلك ما أفرط به الناس في حق الانبياء . وآخرون قصروا في حقهم وفرّطوا ، كما فعل بنو اسرائيل في كل من تكهن أو تحدث عن أمر المستقبل فجعلوه نبيا . ولا يتوقف مقام النبوة عندهم الا على أن يتحدث أحد كهانهم في أمر المستقبل ، أو أن يتوسم أمرا فيقع ، ولا يلزمه أن يكون ممن يتقي المآثم فضلا عن أن يكون عند الله معصوما صالحا ، لاجل ذلك ترى في صحف بني اسرائيل أمورا منسوبة الى الانبياء تنافي النبوة وهي بين أن تكون غير صحيحة أو يكون من وقعت منهم غير أنبياء .

فلما ظهر الاسلام وصف مكانة الانبياء اللائقة بهم ، وعين منزلتهم عند الله ، وأعلن أنهم عبيد الله وليسوا أشباهه ولا أندادا له ، وأن الله لا

يتجسم في صورهم ، وأنهم ليسوا أبناء الله ولا أقرباءه ، ان هم الا بشر بعثوا الى بشر . وأن جميع أنبياء الله كانوا من قديم الزمان بشرا لا غير . وكذلك قال محمد خاتم النبيين ﷺ « إنما أنا بشر مثلكُم » فاستغرب الكفار ذلك وقالوا « أبعث الله بشراً رسولا » فقال الاسلام « قُل إنّمَا أنا بشر مثلكم » ، « هَلْ كُنْتُ الا بشراً رسولا » . وكل هذه آيات من كتاب الله الحكيم .

ان الانبياء مع قرب منزلتهم من الله وشرفهم وعلو مكانهم عنده ، لا يملكون من تدبير العالم شيئا ، ولا يقدرون على ما لا يقدر عليه انسان مثلهم وكل ما صدر عنهم مما عجز عنه الآخرون فبإذن الله وأمره . وقد وصفهم الاسلام بأنهم وإن كانوا بشرا كغيرهم من البشر الا أنهم أعلى منزلة وأسمى مكانا من سائر الناس ، فهم يكلمون الله ويوحى اليهم وقد عصمهم الله من الذنوب وطهرهم من رجس الآثام ، فكانوا أعفة كرام الاخلاق لتكون على أيديهم هداية المجرمين والآثمين من الناس ، وقد يجري الله آياته وبيناته على أيديهم ، ليقوموا بتعليم الناس الصلاح والرشاد وليزكوهم ويطهروهم ، فيجب لهم على الناس ان يكرموهم ويعظموهم ويعملوا بهدايتهم ، لأن الله ارسلهم هداة مصلحين وشرّفهم برسالته ووحيه وكلامه .

هذا ما علمه الاسلام للناس من الاقتصاد والاعتدال في أمر الانبياء وفاء بحقهم بلا غلوّ ولا تقصير ، وهذا ما كان جديرا بالاسلام لانه جاء مكملا لتوحيد رب العالمين .

اخواني : لقد طال بنا الحديث ، ومضى هزيع من الليل وبقي شيء كثير مما أريد أن اقصه عليكم ، فلنختم هذا الحفل بالصلاة والسلام على رسول الله الامين الذي ختم به تعليمه الاخير للناس الى يوم القيامة .

المحاضرة الثامنة

سيرة المحمدية من الناحية العملية

اخواني : اليوم آخر اجتماعي بكم ، بعد أن استمر شهرا . ومحاضرة اليوم آخر المحاضرات الثمان . وقد حاولت في المحاضرتين الماضيتين أن ألمّ بكل ما يتعلق بأصول الاسلام ، وما يرجع الى مبادئه وقواعده وسننه . ولكن أنى لي أن أوفي ذلك ؟ ومن ذا الذي يستطيع ان يجمع ضوء الشمس بيده ، أو يحصي نجوم السماء ؟

ان الاديان السالفة قبل الاسلام ، التي كانت دعوتها الى توحيد الله ، قد تطرّق اليها الفساد في أمر التوحيد لوجوه ثلاثة : الاول التشبيه والتمثيل ، أي انهم قد شبهوا الله بغيره من خلقه . والثاني أنهم جعلوا صفات منفصلة عنه ومستقلة . والثالث أنهم اغتروا بكثرة المظاهر في العالم ، وخدعوا بضروب من مصنوعات الله وآثار مقدوراته، فلما مَنّ الله على الانسانية بالاسلام أزال به الاوهام وكشف خفايا الشبهات فانجلت عن البصائر غياهب التمثيل والتشبيه .

واليكم أولا أمر التمثيل : فان اهل الملل والنحل من غير الاسلام اختاروا طرقا واتخذوا وسائل لمعرفة ما لله عز وجل من الصفات الجليلة ، والصلة التي بينه وبين خلقه ، فشبهوه جل جلاله بأجسام مختلفة ، ومثلوا صفاته في ضروب من الصور والاشكال ، فلما طال عليهم الامد بقيت هذه الصور الممثل بها وزال عن قلوب الناس اسم الله الذي لم يزل ولا يزال ، فصارت المشبه بها أوثانا وأصناما وتماثيل ، وطفق الناس يعبدونها

ويسجدون لها ظنّا منهم بأنها مظاهر صفات الله ومشاهد قدرته ، وتفننوا في تصور صفات الله بهذه التماثيل المنحوتة والأوثان المصنوعة . ومن ذا الذي يشك في أن الله يحب عباده ويرأف بهم ويحن عليهم ؟ لكن الجاهلين جعلوا لحب الله عبادة ، ولرأفته بهم تمثالا من حجر أو غيره . والأمم الآرية اتخذت تمثال المرأة رمزا للحب الالهي فانها عندهم مظهر الحنان والأمومة وإلهة الحب والغرام،فعبروا عن حب الله بنوع من العبادة ، وعن حنانه عليهم بحنان الأم على ولدها ، فانقلب الإله عندهم أما حنونا ، ونحتوا له صورة أم حنون ، وأخذوا يعبدونها ويسجدون لها .

والطوائف الاخرى من الهنادك قد أظهروا هذا الحب الإلهي لعباده وحنانه عليهم بما بين الحليلة وزوجها من المودة والمحبة ، فاختار لفيف من الرجال زيّ النساء وهيئتهن وتأنثوا وتخنثوا شكلا واخلاقا ، على زعم أن الله يحبهم كما يحب الزوج حليلته .

وكذلك ظهر الإله عند الروم والإغريق في صورة امرأة .

أما الأمم السامية فقد تمثل الإله عندها رجلا وأبا ، إذ كان ذكر المرأة عندها على ملأ من الناس مخالفا للآداب السامية . وكان الأب هو رأس الاسرة وأصلها .ويدل عليه ما استخرج من بطون الأرض في بابل وآشور وديار الشام من تماثيل تصور الإله بصور الرجال . وكذلك بنو إسرائيل يظهر انهم في بدء امرهم كانوا يتصورون الله بصورة الأب ويحسبونه والدا ، ويحسبون الملائكة وسائر الناس أولادا له ، ثم ضاق نطاق تفكيرهم ، فلم يبق للاله أولاد عندهم سوى بني إسرائيل . ويوجد في بعض صحف بني اسرائيل ما يدل على أن الرابطة كانت بين الإله وبني اسرائيل كالرابطة التي تكون بين الزوج وحليلته ، وأن بني اسرائيل وأورشليم حلائل والإله زوجهن (تعالى الله عما يقولون ويتصورون) .

وقد أخطأ المتنسبون الى المسيح عليه السلام فجلعوا ما كان باديء بدء استعارة كأنه حقيقة ثابتة . وانقلب تشبيه الإله بالأب لحنانه على نبيه عيسى عليه السلام ورأفته به فاعتبروه حقيقة ، والإله الذي لم يلد ولم يولد اعتبروه والدا وعيسى ولده .

وشبيه بذلك ما نجده عند قدماء العرب من ظنهم بالله أنه أب والملائكة بنات له ، فلما بزغت شمس الاسلام انكشفت ظلمات التشبيه والتمثيل كلها ، وانجلى قتام الشرك ، وأهمل استعمال جميع الكلمات التي تفضي الى الاشراك بالله ، منذ نادى رسول الاسلامﷺ بهذه الحقيقة (ليس كمثله شيء) ، ثم نزلت سورة من قصار سور القرآن محت الأوهام الباطلة كلها والعقائد الفاسدة التي نسجها الناس حول وجود الله ، وهي قول الله عز وجل (قُلْ هُوَ الله أحد ، الله الصَّمَدْ ، لَمْ يَلِدْ ولَمْ يُولد ، وَلَم يكُن لَهُ كُفْواً أحد) فكان الاسلام بذلك طاهرا من دنس الشرك نقيا من كل شوائبه .

إخواني وخلاني . إياكم ان تظنوا أن الرسالة المحمدية نفت شيئا مما لله عز وجل من عظيم الرأفة وواسع الرحمة بعباده ، أو أبطلت ما لله في عباده من حنان . إنها لم تفعل ذلك ، بل وثقت حبل الله الذي يسره لعباده وزادته قوة . وإنما أبطلت ما زاد على ذلك من أوهام تفضي الى تجسيم الله أو تمثيله بشيء من خلقه ، ومحت وسائل كاذبة تجر الى الاشراك بالله مما اتخذته الأمم السالفة فضلت به ، وأضلت . وفيما عدا ذلك فالاسلام أشاد بما بين الله وعباده من رابطة هي أشد وأقوى من كل ما يمت به المخلوقون بعضهم الى بعض من نسب ورحم وآصرة ودم ، فالانسان الذي يعيش في طاعة الله أقرب الى الله من قرابة الولد لوالده وقرابة الزوجة من زوجها .

انظروا كيف أراد الله أن يعلم الصالحين من عباده بأنه يحبهم كما يحب الأب أولاده فأمرهم أن يذكروه كما يذكرون آباءهم أو اشد ذكرا . فهو عز وجل لم يشبه نفسه بالأب ، لكنه شبه حبه بحب الأب ، واجتنب ما يدل على القرابة الواشجة والرحم الماسة ، فأبقى من هذه العلاقة ما يدل على الحب ثم زاد الحث على أن يذكروه أشد وأكثر مما يذكرون آباؤ هم بقوله (أو أشَدُّ ذكراً) لأن الصلة بين العبد وخالقه أشد وأسمى من جميع ما يمت به المرء الى أحد من ذوي قرابته ، فقال تعالى (والّذين آمَنوا أشَد حُبّا لله) . والاسلام لا يسمي الله أبا للناس ، بل يدعوه « رب العالمين » لان الرب أعلى مكانا من الأب ، وإن الصلة بين الابن وأبيه عارض يفنى والصلة بين المربوب وربه أثبت وأبقى لانها مستمرة من أول نشأة المخلوق الى أن تنتهي حياته بلا انقطاع ، فالله ودود رؤ وف حنّان بأكثر مما في الرجال من الود لأودّائهم ، وما في الأب من الشفقة والرأفة نحو بنيه ، وما في الأم من الحنان على أولادها ، ومع ذلك فإنه سبحانه ليس بأب ولا أم ، وهو منزه ومقدس عن كل شائبة من شوائب البشرية .

والأمر الثاني الذي أفضى بالأديان القديمة الى فساد العقائد في معنى التوحيد : مسألة الصفات الإلهية . ومنشأ ذلك أن أتباع الأديان الأخرى قد فصلوا صفات الله عن ذاته ، وجعلوها مستقلة عنه . وبدلك تعددت الآلهة وكثرت في جميع الفرق الهندوكية من الدين البرهمي ، لأنهم اتخذوا من كل صفة إلهية إله ، وجسموا تلك الصفة في صورة أو صاغوها في قالب ثم وسعوا نطاق الشرك وطبقوه على جميع ما شبهت به صفات الإله من مختلف التشابيه ومتنوع التماثيل ، وصاغوا هذه الصفات وما شبهت به في صور وتماثيل وأوثان ، وبعد أن كان الله إلها واحدا لا إله غيره صار لهم ثلاثون وثلاثمائة مليون من الآلهة . وتفصيل ذلك أنهم أرادوا أن يعبروا

عن قوة الله وقدرته . وظاهر أن اليد من مظاهر القوة والبطش ، فنحتوا لله تعالى يدين قويتين من الحجر ، بل سولت لهم أنفسهم أن ينحتوا له كثيرا من الايدي . وحاولوا ان يعبروا عن حكمته البالغة فجعلوا له رأسين ، واتخذوا له وثنا ذا رأسين . واذا تأملنا نحل الهنادك الكثيرة العدد بدا لنا أنها لم تكثر هذه الكثرة الهائلة ولم تفترق الى فرق كثيرة ، إلا لأجل تجسيمهم صفات الإله . فان لله عندهم ثلاث صفات عظيمات : الخلق ، والقيام على المخلوق ، والإماتة . وإن شئت فلك أن تعبّر عن هذه الصفات بالخالقية ، والقيومية ، والإماتية . وقد جعلت الفرق من الهنادك هذه الصفات الثلاث اشخاصا مستبدين أطلقوا عليهم أسماء : برهما ، ووشنو ، وشيو . فبرهما رمز للخالق ، ووشنو هو القيوم ، وشيو هو المميت . ونجمت عن ذلك ثلاث نحل : نحلة يعبد اتباعها برهما ، ونحلة إلهها وشنو ، ونحلة معبودها شيو . وقد انفصل بعض هذه الفرق عن بعض . وهناك فرقة منهم تعبد فروج الرجل والمرأة لأنهم تمثلوا بها صفة الخلق وارادوا أن يمثلوها بجسم كما فعلوا في الصفات الأخرى فهداهم سوء بصيرتهم الى أن فروج الرجال والنساء من أكبر الاسباب للخلق في هذا الكون فاتخذوا لها صورا وأوثانا وجعلوا يسجدون لها ويتقربون اليها .

وفي النصرانية صفات إلهية ثلاث : الحياة ، والعلم ، والارادة ، تمثلوها ذواتا سموها الأقانيم الثلاثة : فالأب رمز للحياة ، وروح القدس رمز للعلم ، والإبن رمز للارادة .

ونجد مثل ذلك في عالم الأصنام عند قدماء المصريين والأغريق والروم . وإن محمداﷺ بعث بتفنيد آراء الأمم في صفات الله فأظهر خطأ تلك المذاهب وفسادها ، وبينّ أن الله واحد ، وأن صفاته الكثيرة ليست

أشخاصا منفصلة عنه ، وأن من جعل الله الواحد اثنين أو اكثر مغترا بتعدد أسمائه الحسنى وصفاته العليا فقد ضلّ وغوى وحاد عن سواء السبيل . فالقرآن أعلمنا بأن الله (رب العالمين) وأنّ (له المثل الأعلى) وأنه (نور السماوات والأرض) . وكان نصارى العرب يدعون الخالق بالرحمن لاتصافه بالرحمة ، أما عامة المشركين فكانوا يدعونه « الله » ونزل القرآن تصديقا لهما (قُل ادْعُوا الله أو ادْعوا الرّحمن ، أيّا ما تَدْعوا فَلَه الأسماءُ الحُسنى) وفي سورة الشورى (فالله هُوَ الوَليّ وهو يُحْيي الموتى وهُوَ على كلّ شيءٍ قدير) وفيها أيضا (ألا إنّ الله هُوَ الغَفُور الرّحيم) وفي سورة الزخرف (وهُوَ الذي في السماءِ إله وفي الأرْضِ إله وهُوَ الحكيمُ العليمُ) وفي سورة الدخان (إنه هُوَ السميعُ العليم . ربّ السماواتِ والأرْضِ وما بيْنهما إن كُنتُم موقنين . لا إله إلا هُوَ يُحْيي وَيُمِيْت ربّكم وربّ آبائِكُم الأولّين) أما برهما بمعنى الخالق ، ووشنو بمعنى القيوم ، وشيو بمعنى المميت فمدلول الثلاثة كلها واحد هو الله الخالق القيوم المميت ، والموصوف لا يتعدد مهما كثرت صفاته (فَلله الحمدُ ، ربّ السماواتِ ، وربِّ الأرْضِ ؛ ربِّ العالمينَ ولهُ الكِبرْياء في السموات والأرض ؛ وهُوَ العزيزُ الحكيمُ) (الجاثية ٣٦ ـ ٣٧) . (هُوَ الله الذي لا إله إلا هُوَ عالم الغيبِ والشهادةِ هُوَ الرحمنُ الرحيمُ . هُو الله الذي لا إله إلا هُو الملكُ القدوسُ السلامُ المؤمنُ المهيمنُ العزيز الجبارُ المتكبّر سُبحانَ الله عما يُشركون . هو الله الخالقُ البارىء المصوّر له الأسماءُ الحسنى يسبّح له ما في السماوات والأرضِ وهو العزيز الحكيمُ (الحشر ٢٢ ـ ٢٤) .

فالله واحد وإن كثرت أسماؤه وتعددت صفاته ، وهذه الكثرة ليست في ذاته بل في صفاته ، وانما علمنا ذاته الواحدة الموصوفة بالصفات الكثيرة

بسبب رسالة محمد ﷺ . أما الاديان الاخرى فقد جعل اتباعها الله الواحد آلهة متعددة بتعدد صفاته ، فسبحان الله عما يشركون . وقد بين الاسلام وأحسن البيان بأن القدوس والخالق والملك والمؤمن والجبار والعزيز والمصور والرحمن والرحيم هو الله ليس غير .

والمنشأ الثالث للشرك كثرة أفعال الله وتنوع شئونه . وحين رأوا أن الله تصدر عنه ضروب من الاعمال حسبوا أنها تصدر عن مصادر متعددة وأن لها فاعلين كثيرين ، فحملهم فساد رأيهم على أن جعلوا لكل عمل عاملا مستقلا فاعتقدوا أن الذي يحيي غير الذي يميت ، ومن يحب العباد غير الذي يبغضهم ، فاتخذوا إلها للعلم ، وإلها للثروة والرزق ، فتعدد الواحد بذلك وصارت الآلهة بعدد الافعال . أما الاسلام فقد أخبر بأن الافعال وان كانت كثيرة فان الفعّال هو الله الواحد العزيز المتعال .

إن جميع ما في الدنيا من الاعمال ينقسم الى قسمين : الخير ، والشر . وقد عجب الذين زاغت بصائرهم كيف أن الواحد يفعل فعلين متضادين ، فذهبوا الى أن من يصدر عنه الخير لا يأتي منه ضده ، فعبد أتباع زردشت إليهين اثنين أحدهما للخير والآخر للشر ، وسموا مبدي الخير (يزدان) ومصدر الشر (أهرمن) وتصوروا أن هذا العالم ساحة حرب يعترك فيها هذان القرنان المتصارعان . وما حملهم على هذا الفساد في العقيدة الا خطأهم في فهم الخير والشر .

والحق أنه ليس في الدنيا شيء يصح أن يطلق عليه اسم الشر . فالنار لا شك أنها تحرق ، ولكن الاحراق في نفسه لا يعد خيرا ولا يسمى شرا ، فان أوقدتها لتنضج عليها غذاءك أو لتقتبس منها قبسا تصطلي به من البرد فان عملك هذا هو الذي يعد احسانا ويطلق عليه اسم الخير . وإذا اضرمت النار لتحرق مأوى يأوي اليه فقير بائس لم يرتكب ذنبا فان

عملك.هذا هو الذي يعد سيئة وشرا ، بينما النار نفسها ليست بنفسها خيرا محضاً لا شرفيه او شراً محضاً لا خير فيه ، وأنت الذي جعلتها بعملك خيراً أو شرا . والسيف القاطع لا يعد خيرا ولا شرا ، بل أنت الذي تتخذ منه ذريعة للخير أو الشر . والظلام لا يعد شرا لكنك ان تسترت به في جوف الليل لترتكب فيه السوء فالشر هو عملك لا الظلام . وان تواريت فيه لتعمل صالحا أو أويت فيه الى الراحة والدعة فهو خير .

وقد خلق الله الارض والسماء وجعل بينهما أشياء : الريح والسحاب والماء والنار والطين ، وخلق منهن أشياء وخص كل شيء بخصيصة ، وبث فيه قوة تناسبه ، ثم خلق الانسان ووهبه الحكمة البالغة والبصيرة النافذة والآراء السديدة ، فنظر هذا المخلوق في الكون وتأمل حسن تقويمه وعجيب تنسيقه وبديع نظامه ، فملكه الاعجاب به وملأ نفسه الاستغراب منه ، فلم يتمالك أن انطلق لسانه قائلا (فتبارك الله أَحْسَنُ الخالقين) ثم نادى في خشوع وخضوع لرب العالمين (إنّي وجّهت وجهي للّذي فَطَرَ السماواتِ والأرْض حنيفاً وما أنا من المشركين) كما فعل ابراهيم خليل الله . وبجانب هذه الطائفة من البشر طوائف أخرى لم يكن لهم من بليغ الحكمة وسداد الرأي وثاقب الفكر ما ينقذهم من جحود الله والكفر به ، فالتبست عليهم حقائق العالم ، واشتبهت لهم خواص الاشياء والقوى المودعة فيها ، فجعلوا المادة علة العالم وسبب خلقه وقالوا (ما هي إلاّ حَياتنا الدّنيا نموتُ ونَحيا وَمَا يهْلِكنا إلا الدهر) .

إن العالم لا يضل ولا يغوي ، ولا يرشد ولا يهدي ولكن الانسان هو الذي يهتدي بسليم فطرته وسديد رأيه وسلامة قلبه ، أو يضل بسوء تفكيره وخطل رأيه وقبح تأمله. وان شئت قلت : ان العالم يهدي من يهتدي به ويضل من يضل به . وما أنزل الله من كتبه ـ التوراة والانجيل

والقرآن - يهدي الذين يحسنون تدبره وتلاوته فتطمئن قلوبهم الى ما فيه من حق ويؤمنون به ، وآخرون يتلون ما أنزل الله من حق فيزدادون ريبا به ولا تسكن نفوسهم اليه فيجحدون ويكفرون ، مع أن الكلام واحد ، الا أن تأثيره في القلوب مختلف : فيخرج هذا منه مؤمنا به ، ويخرج ذاك منه كافرا به ، وكلاهما من خلق الله الواحد . والذي يستنتج من كثرة الأفعال وتعددها واختلافها كثرة الفاعلين فقد أخطأ ، وان بيد الله تعالى الخير والشر والهداية والضلال ، وكل ما ترى في الكون وفي الناس من ضروب العجائب وأنواع الغرائب فهي من بديع السماوات والارض وجميل صنعته وعظيم قدرته ، فهو الذي لا إله إلا هو وحده لا شريك له (يُضِلّ به كثيراً ويهدي به كثيراً وما يضل به إلا الفاسقين . الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقِه ويقطَعون ما أمر الله به أنْ يُوصل ويفسِدُون في الأرْض أولئك هم الخاسرون) (البقرة ٢٦ - ٢٧) . (والله لا يَهْدي القومَ الكافرين) .

فهذه الآيات تدل على أن الضلال والهدى يرجعان اليه عز وجل ، لكن الانسان هو الذي يختار باديء ذي بدء ما يفضي به الى الضلال أو الهدى ، فمن فسق عن أمر ربه أو قطع الرحم وافسد في الارض وكفر ، جاءه من الله الضلال ، والضلال لا يتقدم الفسق والقطيعة والافساد في الأرض بل هو يعقب هذه الخلال ويتلوها .

إن الله عز وجل خلق بني آدم ودلّهم على الخير والشر وبصّرهم بالحسن والسيء ، ثم أمرهم بالخير ونهاهم عن الشر وهداهم الطريق المستقيم ، وحذرهم سوء العقبى اذا عصوه (إنا هَدَيناه السّبيل إما شاكرا وإما كَفُورا) وهو الذي قد خلق كل شيء خيره وشره (ذلكمُ الله ربكم خالِقُ كلّ شيء لا إله إلا هو) (سورة غافر) . (والله خلقَكُمْ وما

تَعْمَلون) (الصافات) ثم بينّ لهم الخير من الشر والحسن من السيء (أعطى كُل شيء خَلْقَه ثم هَدَى) (طه ٥٠) .

ومما تقدم تعلمون أنه لا يوجد في الدنيا خير لذاته ولا شر لذاته ، وانما يكون الامر خيرا او شرا باختيار الانسان وبعمله ، فاذا سلك الصراط المستقيم كان بذلك راشدا واهتدى ، واذا سدر في الفساد والغي وآثرت بنيات الطريق على الطريق المستقيم ضل وغوى . واذا صح اختياره لما ينفع ويسعد أصاب الخير وأتى بالحسن ، واذا ارتكب الشطط في اختيار ما يضر أصاب الشر وكان من المخطئين. والذي يظن أن للكون إلهين اثنين لان في الكون خيرا وفيه شرا فقد زاغت بصيرته وأخطأ الحقيقة (إنما إلهُكُم إله واحد) والله وحده خالق كل شيء (هَلْ مِنْ خالِق غير الله يرزُقكم من السماءِ والأرْضِ لا إله إلا هُو فأنّى تؤفكون) (فاطر ٣) . والله قد بلغ رسالاته وأحكامه بألسنة انبيائه ومرسليه ، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر (ثم أورثْنَا الكِتاب الذين أصْطفينا مِنْ عِبَادِنا فمنهُم ظالِم لنفسه ومنهُم مُقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله) (فاطر ٣٢) ، (وما أصابكُم من مصيبة فَبِما كَسَبَتْ أيديكُم ويَعْفو عن كَثير) (الشورى ٣٠) ، (فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفْلَح مَنْ زكّاها وقد خاب مَنْ دسّاها) (الشمس) .

ما من دين خلا من العبادة لله ، لكن الاديان القديمة حسب أتباعها أن الدين يطالبهم بإيذاء أجسامهم وتعذيبها ، وأن الغرض من العبادة إدخال الالم على الجوارح ، وأن الجسم اذا ازدادت آلامه كان في ذلك طهارة للروح ونزاهة للنفس .

وعن هذه العقيدة نشأ التبتل عند الهنادك والرهبانية عند النصارى ،

وابتدعوا من رياضات الجسم أنواعا عجيبة أشدها على الجسم أفضلها عندهم وأقربها الى الله في زعمهم : فمنهم من آلى على نفسه ألا يغتسل طول حياته ، ومنهم من لا يلبس الا المسوح والثياب الخشنة ، وبعضهم آلى على نفسه أن يعيش عريان الا من خرقة يستتر بها ماضيا على ذلك مهما أثرت فيه حمارّة القيظ أو زمهرير الشتاء ، ومنهم من لزم كهفا فلا يبرحه ابدا ، وبعضهم اختار لنفسه أن يبقى واقفا في حر الشمس طول حياته . ومنهم من يحلف ألا يقتات إلا بورق الشجر ، ومنهم من بقي صرورة حصورا لا يتزوج ، ومنهم من يعد العبادة والقربة الى الله منع التناسل ، وفيهم من يرفع احدى يديه في الهواء ويبقى كذلك طول عمره حتى تيبس يده وتجف ، وكان بعضهم يحبس نفسه ما استطاع وهو يحسب أن ذلك من العبادة ، ولا يزال في الهند من يتعلق بشجرة منكسا رأسه الى تحت . وهذا كله وأمثاله مما كان عليه اتباع الاديان قبل مبعث محمد ﷺ ظانّين أن أعمالهم هذه من أقرب الوسائل الى الله ومن أفضل ما تزكى به النفوس وتطهر به الارواح ، فأنقذ الله عز وجل الانسانية من هذا العذاب الاليم والاذى الشديد بالرسالة المحمدية الكاملة ، وأرشدهم الى أن ما يحسبونه عبادة من هذا السخف والشر انما هو من الملاهي التي يتعلل بها من زاغ بصره والتوى عليه الرأي فظن في الله غير الحق ، وقد أعلنت الرسالة المحمدية للناس هذه الحقيقة : « إن الله لا يَنظُرُ الى صُورِكم ، بَلْ يَنظُر الى القلوب التي في الصدور » وما يفعل الله بتعذيبكم لاجسادكم وجوارحكم (لا يُكلّف الله نفساً إلا وسعهَا) وجعل الرهبانية بدعة من عند الناس لا من عند الله (وَرَهْبَانيّة ابْتَدَعُوها ما كتبنَاها عليهم) (الحديد ٢٧) .وفي الحديث النبوي « لا صرورة في الاسلام » وأنكر على الذين حرّموا على انفسهم طيبات الدنيا فقال عز وجل (قُل مَنْ حَرّمَ زينة الله التي أخْرَجَ لعباده والطّيبات مِنَ الرزْقِ) (الاعراف ٣٢) ، وقد

أنكر الله على رسوله حين حرم على نفسه العسل فقال (يا أيها النبيّ لِمَ تُحَرِّم ما أحلّ الله لَكَ) (التحريم) ، والرسالة المحمدية علمت الناس لاول مرة أن حكمة العبادة اقرار العبد لربه بأنه عبده ومطيع لأوامره (إنّ الذين يَسْتَكْبِرُون عن عبادتي سَيَدخلون جهنّم داخِرين) (غافر ٦٠) فالدين الاسلامي يعلّم المسلمين خاصة وغيرهم عامة أن الله يريد منهم أن يؤ منوا به ولا يشركوا به شيئا ، وأن يطيعوا أوامره ولا يستكبروا عليه ، فلا جرم أن تظهر طاعتهم له في صور وأساليب متعددة من العبادة . وغاية العبادة في الاسلام اعتياد التقوى والتمرن عليها (يا أيّها الناسُ اعبُدُوا ربّكم الذي خَلَقَكُم والذين مِنْ قَبْلِكُم لَعَلّكُم تتّقون) . وثمرة الصلاة في الاسلام الكف عن الفحشاء والمنكر (إن الصلاة تَنهى عن الفحشاء والمنكرِ) . أما الصوم فمن الوسائل الى نيل التقوى (يا أيّها الذينَ آمنُوا كُتِبَ عليكم الصيام كما كُتِبَ على الذينَ مِنْ قبلِكُم لَعَلّكُم تتّقون) (البقرة ١٨٣) . وأما الحج فمن حكمته أنه (لِيشهدوا منافِع لهُم ويَذْكروا اسم الله في أيّام مَعلومات على ما رزقَهُم مِن بهيمةِ الانعام) .

والزكاة تزكي القلوب وتنزع منها رذيلة البخل وتسد حاجات الفقراء وتقضي ضرورات البائسين لانها تؤ خذ من أغنياء الامة وترد على فقرائها. وقال الله عز وجل (الذي يُؤ تي ماله يَتزَكّى . وما لأحد عِنده مِنْ نعمةٍ تُجزى إلا ابتغاء وجهِ ربّه الأعلى) . ومن الدين عند المسلمين النكاح والزواج وقد قال لهم نبيهم « النكاح من سنتي ومن يرغب عن سنتي فليس مني » وعدّ القرآن الكريم أولاد الانسان وأزواجه قُرّة أعين له ، وأرشدهم الى أن يسألوا الله ذلك (والذين يَقُولون ربّنا هَب لَنَا مِنْ أزواجنا وذُرّياتنا قُرّة أعين) .

وكان قتل المرء نفسه مما يتقرب به الاقدمون الى الآلهة ، فكانوا ينذرون لآلهتهم قرابين بشرية تذبح كالأضاحي استرضاء للآلهة ، فاذا سفكت

دماء البشر لهذا الغرض نثرت دماؤ هم على الاوثان ، وربما أحرقت لحوم الاضاحي وجمرت بها الاصنام وبخرت بدخانها ، ولأجل ذلك كان اليهود يحرقون لحوم الاضاحي . أما الاسلام فقد بينّ رسوله الكريم الغرض من الاضاحي وحرم ذبح الانسان وتقديمه قربانا وأحل تضحية البهائم الا أنه نهى أن يرش دم الاضاحي أو تحرق لحومها . وقد ذكر الله عز وجل ما في التضحية من منافع للعباد بقوله (والبُدْنَ جَعَلْنَاها لَكُم مِنْ شَعَائر الله ، لَكُم فيها خير فاذكروا اسم الله عليها صوافَّ، فاذا وَجَبَت جنوبهُا فكُلوا منها واطعمُوا القانعَ والمعْتَر، كذلكَ سخّرناها لكُمْ، لَعَلّكُم تشكرُون، لَنْ يَنَالَ الله لُحُومها ولا دِماؤ ها وَلَكِن ينالُه التقْوى منكُم كذَلِك سَخّرها لَكُم لِتُكَبروا الله على ما هداكمْ وبَشّر المحْسنين) (الحج ٣٧) أما العقيدة الفاسدة في التضحية فقد حملت الناس على أن يحسبوا أنهم يملكون حياتهم في التضحية فقد حملت أولادهم على حياتهم، وزعموا أنهم يملكون أزواجهم، حياتهن وموتهن. وهذه العقيدة الفاسدة قد جرّت شرا عظيما وفسادا كبيرا في الحياة الاجتماعية. فأباحوا لانفسهم الانتحار وقتل الاولاد ووأد البنات وذبح الابناء على النصب والاوثان ، وانتحار الحلائل أو احراقهن أنفسهن بعد موت ازواجهن ، وغير ذلك من المفاسد التي محاها الاسلام واجتثها من أصولها منذ أذن في الناس أن النفوس لله هو الذي يملكها ولا يملكها أحد غيره ، ولا تقتل نفس الا بحق الله . لذلك لا يحل في الاسلام أكل لحم ذبيحة لم يذكر اسم الله عند ذبحها . والذي ينتحر فان الجنة محرمة عليه . أما في أوربا المتحضرة وأمريكا المتمدنة فان الانتحار لا يزال أفضل وسائل النجاة من مضائق الحياة وآلامها ، والدول تحاول عبثا أن تأخذ على أيدي المنتحرين فتذهب مساعي الحكام والولاة أدراج الرياح ، لأن الناس

يزعمون أنهم يملكون أنفسهم فلهم أن يتصرفوا فيها كما يشاءون ، والانتحار عندهم أفضل وسائل النجاة من آلام الدنيا ، ولا يرون أن بعد هذه الحياة حياة يؤ اخذون فيها على الانتحار . وحتى لو أيقنوا أنهم يبعثون بعد مماتهم وينشرون تارة أخرى ، فانهم يستبعدون أن يحاسبوا على انتحارهم وقتلهم أنفسهم . أما الاسلام فقد شدد في أمر الانتحار وعدّه جريمة عظيمة وحذر عاقبته وعلّمهم أن هذه الوسيلة الذميمة لا يركن اليها في الخلاص من آلام الحياة وشدائدها ، وأن من انتحر فقد أقدم على ما ليس له به من حق ، لان الحياة والموت من أمر الله ، ومن تجاوز أمر الله استحق سخطه وغضبه وسيحل به عذاب الله في الحياة الاخرى وهو أشد وأبقى من آلام الدنيا التي أراد المنتحر أن يخلص منها (ولا تَقْتُلوا النّفس التي حرّم الله إلا بالحقّ) ، (ولاَ تَقْتلوا أنفسكم ، إن الله كانَ بِكُم رَحيماً ، وَمن يفعَل ذلك عُدواناً وظلماً فسوف نُصْليه ناراً) .

كان قتل البنات ووأدهن فاشيا بين العرب ، وبين الراجبوت من أهل الهند ، وفي كثير من الممالك . فلما ظهر الاسلام أنكر ذلك ومحاه (وإذا الموءودة سُئلتْ : بأيّ ذَنب قتلت) . وقتل الاولاد لم يكن جريمة عند العرب ، ولا يزال هذا المنكر باقيا في الامم المتمدنة : يدفعهم الى ذلك خشية الاملاق وضيق النفقة ، وربما يبرّرون ذلك بأن غلال البلاد وحاصلاتها لا تسد حاجات العمران البشري فيقتلون أولادهم دفعا للازمات الاقتصادية عن البلاد . والعرب وغيرهم لم يكونوا يرون تبعة على من أجهضت حملها وقتلت ولدها . وكان الأغريق يتتبعون كل مولود يولد في بلادهم فيقتلون منهم الضعفاء ، والمخدجين وناقصي الخلق . وقد يقذفونهم من قلل الجبال ، ويستحيون منهم الاقوياء وتامي الخلق . وتحديد النسل Birth Control بجميع طرقه المعروفة في هذه الايام ليس

إلا ضربا من ضروب قتل الاولاد ووأد البنات ، وقد نادى الاسلام في الناس أنه ما من أحد يرزق أحدا وإنما الرزاق هو الله المتكفل بحاجات خلقه ، قال تعالى (وما مِنْ دَابّةٍ في الأرْضِ إلا على الله رِزْقها) وقال : (ولا تَقْتلوا أولادكم خَشْيةَ إملاقٍ نَحْنُ نرزُقُهُم وإياكُم ، إن قَتْلهم كانَ خطئاً كبيراً) .

ومن اكبر الجرائم التي اقترفتها الأمم ولا تزال باقية في بلاد لم تبلغها دعوة الاسلام ولم تشرق أنواره في أرضها ، أنهم جعلوا ثراء المال ونقاء الدم وشرف النسب وكرم المحتد ولون البشرة أساس الكرامة ورأس ما يتفاضلون به ويتفاخرون . وقد جعلوا لثراء المال ونقاء الدم وبياض اللون أصولا يرجعون إليها في هذا التفاضل بين أفراد الامة وبين الطوائف من الامم ،وسنوا لذلك من القوانين والآداب في المعاشرة والمجتمع ما يلائم أهواءهم ومذاهبهم في النسب . أما الهند فقد عدّ الهنادك من أهلها كل من خرج عنهم من الأمم والناس أنجاسا مناكيد ، فان لمسهم لامس من غيرهم او صافحهم أومس أجسامهم رأوا أنهم قد تنجسوا ووجب عليهم أن يغتسلوا لان من سواهم رجس يجب أن يتطهروا منه . وقسّم الهنادك أنفسهم أقساما ووزعوا بين هذه الاقسام حظوظا متفاوتة من الشرف فرفعوا بعضهم على بعض درجات لا في الفضائل والاخلاق بل في أمور المعيشة وشئون الحياة وأحكام الحكومة . فالشودر (وهم الطبقة السفلى منهم) يعدون أنجاسا وعبيدا وخداما ، وهم أصحاب المهن الحقيرة ، ويرون أنهم لا حظ لهم من الدين أيضا . وكذلك قدماء الفرس تفرقوا الى أربع طوائف . وهكذا فعل أهل أوربا فخصوا انفسهم بأمر الحكومة والسلطان على الامم ولم يتركوا لمن سواهم إلا أن يستعبدوا ويخضعوا لحكمهم . وبنو إسرائيل عدوا أنفسهم أبناء الله (تعالى الله عما يقولون)

ومن سواهم من الامم أذلة صاغرين . ثم فرقوا بين بني إسرائيل أنفسهم فأنزلوا طوائفهم منازل مختلفة وجعلوا بعضهم فوق بعض . وهذه أوربا الراقية التي تدعي دعاوى عريضة في الاخاء والمساواة والمدنية ، ألسنا نرى أن الرجل الابيض قد أثقل كاهله بأعباء الحكم في العالم ويرى أن غير الأوربي لا يستأهل السيادة والحكم ، فالابيض المثقف هو الذي اختص بالحضارة والاستعلاء ، أما السود (وكل من عداهم يعدونه من السود) فانهم لا يعدلونهم ولا يساوونهم ، بل إن بعض البيض يربأون بانفسهم ان يركبوا في اسفارهم مع الأسيوي في عربة واحدة من القطار ، وترفعوا عن مجالسته ومساكنته ، وقد عزلوا الجنس الاسود Negro في افريقية الجنوبية وامريكا المتحضرة فبنوا لهم احياء منعزلة عن البيض لانهم لا حق لهم بأن يجاوروا البيض . فالامريكيون الذين يدعون العدالة التامة والاخاء العظيم يعاملون السود من سكان امريكا نفسها اسوأ معاملة ويضيقون عليهم حياتهم كأنهم ليسوا من البشر او من خلق الله . وفي جنوبي افريقية وشرقيها ليس للسود ولا للهنود ولا للأسيويين عامة من الحقوق المدنية والانسانية مثل ما للانسان في بلاد اخرى . ولم يقصروا جورهم هذا على الامور الدنيوية ، بل إنهم عدوا طورهم وجاوزوا الحق الى الامور الدينية فبنوا الكنائس للبيض خاصة وجعلوها بمعزل عن السود فلا يأذنون للسود بدخول تلك الكنائس . وإن الابيض يشمخ بأنفه ويربأ بنفسه ان يدخل كنيسة يغشاها السود أو الاسيويون والافريقيون ، فليس للأسود أن يركع لله مع الغربي الابيض ابداً .

أما الإسلام فقد محا هذه الفوارق والعصبيات الذميمة كلها ، وأنكر ان يكون التفاضل باللون والدم والنسب[1] وسوّى بين بني

---

(١) نذكر القارىء بأن الاستاذ المؤلف سيد شريف من الذرية المحمدية (الناشر)

آدم كلهم ، وهدم كل ما كان يحول بين المرء وأخيه من ثراء المال ونقاء الدم ولون البشرة والجاه العريض والنسب الاصيل والمجد الأثيل . وكانت قريش تعتز بآبائها وتباهي بأنسابها ، فخاطبهم النبيﷺ يوم وقف فيهم خطيبا في فناء المسجد الحرام يوم فتح مكة فقال لهم : « يا معشر قريش ، إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء . الناس من آدم وآدم من تراب » (ابن هشام) . ثم أعلن الرسولﷺ في جمع عظيم وحفل حافل يوم حجة الوداع ان لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي إلا بالتقوى . كلكم أبناء آدم وآدم من تراب . فملاك الشرف والمجد والتقوى ، والعمل هو الذي يرفع صاحبه او يضعه . وإن الله قد أذهب عصبية الجاهلية وفخرها بالآباء، فالمرء إما مؤمن تقي او فاجر شقي (خطبة الوداع في جامع الترمذي وسنن ابي داود) وقد خاطب الرسول فيها عامة الناس بلسان الوحي : (يا أيهَا النّاسُ إنّا خلَقْناكم من ذَكَر وأنثى وجَعَلْنَاكم شعوباً وقبائل لِتعارفوا ، إن إكرَمكمْ عِنْدَ الله اتقاكُم) وقال سبحانه (وما أموالُكم ولا أولادكم بالتي تقَرّبكم عندنا زُلْفى ، إلا مَنْ آمن وَعَمِل صالحا فأولئِك لهم جزاءُ الضعف بما عملوا) ثم آخى بين المسلمين وجعلهم إخوة فقال عز من قائل (إنما المؤ منون إخوة) وقد نادى الرسول يوم حجة الوداع في جمع من المسلمين عظيم يبلغ عددهم مائة الف او يزيدون : « المسلم أخو المسلم » . فهذه المساواة والمؤ اخاة قد محتا الفوارق بين الهندي والافغاني والصيني والتركي والايراني والاندنوسي والعربي ، وبين الشرقي والغربي ، بل ذهبتا بكل ما يفرق بين الاسود والابيض من فوارق الجنسية واللون والدم ، واعلن الله إحسانه اليهم بقوله (فأصبحتم بنعمته إخوانا) .

إن ابواب بيوت الله مفتوحة في الاسلام لكل مسلم بلا تفريق بينهم في

المهن والاجناس والمراتب الاجتماعية ، لأنهم لا يتفاضلون بالثراء ولا يتفاوتون في الآباء واختلاف المحتد . وليس في الاسلام نظام طبقات كما بين البراهمة والشودر (المنبوذين) . فلكل مسلم أن يتلو كتاب الله ، وأن يؤم الناس في الصلاة ، من أي بيت كان ومن أي قوم كان . والتزاوج مطلق بين طوائف المسلمين وأجناسهم ، وباب العلم مفتوح لكل داخل ، بل هو نهب مقسم بين الجميع ، والناس سواء في الحقوق ، وفي احكام القصاص : الدم بالدم ، والنفس بالنفس .

إخواني الاعزاء . كان بودي أن أذكر عن رسالة محمد ﷺ كل ما احسنت به الى الانسانية ، وأن أعدّد أفضالها ونعمها على جميع طبقات البشر ، ولكن وقتنا لم يسمح بذلك ، ومثل هذا الموضوع العظيم يحتاج الى وقت أطول وأوسع من الوقت الذي تحدثت إليكم فيه . ومما كنت احب أن أبسطه لكم فضل الرسالة المحمدية على الرقيق والمستعبدين في الأرض من بني البشر ، والحقوق الممنوحة لهم في الاسلام ، والمستوى الذي رفعهم الاسلام اليه لاول مرة .

وكنت أحب أن ألم بما للرسالة المحمدية من جميل نحو النساء ، وما حفظت من حقوقهن وما رعت من كرامتهن .

كان بودّي أن أفصل لكم جميع هذا وكثيرا غيره تفصيلا تتبيّنوا منه أن أوربَا التي تدعي التقدم الفكري لا تزال وراء الاسلام بمسافات طويلة ، ولن تضارعه فيما قدم للانسانية من رعاية وما أسدى اليها من حقوق .

إن من أعظم الجرائم التي عم بها الضلال وطم ، الدعوة الى التفريق بين الدين والدنيا ، حتى صار يقال : هذا من حكم السلطان ، وهذا من حكم الرحمن . وحتى صاروا يميزون بين ما يكسبون به الدنيا ، وما

يكسبون به الدين . وقد أفردوا لكل واحد منهما طريقا غير طريق الآخر . والرسالة المحمدية هي التي كشفت الستار عن وجه الحقيقة في ذلك فأعلنت في أعمال الدنيا التي يراد بها وجه الله والفوز في الآجلة إنما أرجاء الدنيا ما بين أمور الدين وأمور الدنيا من التلازم ، وان هي من صميم الدين ، ومن الدين أن يقوم الناس بأمور الدنيا - من تجارة، وزراعة ، وصناعة ، وحرفة، وخدمة - بالطريقة السليمة التي هدى اليها الدين وأرشدت اليها تعاليمه . ومن أعظم الخطأ أن يحسب الناس أن الدين منحصر في العبادة من صلاة وصوم . وفي الفرار من الناس واعتزالهم في مغارة أو جبل للعبادة ، بزعم أن اشتغال المرء بأمور نفسه وشئون أولاده وعياله والمشاركة في مصالح أمته وبلاده وأحبابه وخلانه هو من أمور الدنيا لا من أمور الدين . كلا، بل إن هذه العقيدة قد أعلن رسول الاسلام ﷺ فسادها وابدى عوارها بدعوته وبلاغه من جهة ، وبحياته المثل من جهة أخرى . وقد بين بقوله وعمله أن امور الدنيا التي تؤدي بالطريق الذي هدى اليه الدين تعد من الدين ويثيب الله عليها كما يثيب على العبادات وغيرها مما هو من صميم الدين .

الا إن ملاك النجاة للانسان في الاسلام الايمان والعمل الصالح . أما الايمان فهو الايقان بالله وحده ، والايقان بأن رسله إنما بعثوا لهداية البشر ودلالتهم على طريق الله ، والايقان بالملائكة الذين هم رسل الله بينه وبين من أرسل اليهم من البشر ، وبالكتب التي أنزلت على الرسل وفيها أحكام الله من الاوامر والنواهي ، والإيقان بأن الله يحاسب الانسان على أعماله ويجزيه خيراً عما يعمله من خير أو شراً عما يصدر عنه من شر . فهذه الخمسة هي أساس الايمان وملاكه ، والايمان أساس العمل ، ومن لا إيمان له لا ينتظر منه الاخلاص فيما يصدر عنه من عمل .

والمراد بالعمل أن تكون تصرفات الانسان صالحة . وللاعمال ثلاثة ضروب كما ذكرت في المحاضرة السابقة من هذا الكتاب[1] : الضرب الاول (العبادات) ، وهي عبارة عن تعظيم الانسان لإلهه الذي خلقه ، وعن خشوعه له وخضوعه لاوامره وإظهار افتقاره له . الضرب الثاني (المعاملات) وهي ما يتعاطاه الناس فيما بينهم لتبادل مصالحهم واستعمال مرافقهم ، ومنها أحكام الدولة وقوانينها التي يراعيها الانسان ويتقيد بها ليسود الامن ويعم السلام في البلاد . فلا يقع فيها الفساد والفوضى التي تنتهي الى الهرج والمرج والهلاك والدمار . والضرب الثالث (الأخلاق) وهي القيود التي توجب الآداب التقيد بها وإن لم تفرض على الناس بالتشريع وأحكامه القانونية ، وباتباعها تطهر القلوب وتزكو النفوس ويرتفع مستوى المجتمع البشري ويتقدم في إنسانيته: وهذه الأربعة ـ الايمان ، والعبادات ،والمعاملات ،والاخلاق ـ هي التي تهيء للمجتمع أسباب النجاة .

سادتي واخواني ، سامحوني اذا قلت لكم أن التبتل في الدنيا والعزلة عن المجتمع وحب الخلوة عن الناس ولو لذكر الله ليست مما يحتمه الاسلام ويدعو اليه . والاسلام نشاط دائم وجهاد طويل ، لذلك تراه يحث المسلمين على أن يكونوا دائما في عمل وسعي ونشاط ، وذلك ينافي السكون الدائم والانصراف عن الحركة والعمل (وَأَنْ لَيْس للإنسانِ إلا ما سعى) ، (كُلّ نَفْس بما كَسَبَتْ رهينة) فالعزلة عن الناس ليست من الاسلام ، بل من الاسلام الاقدام في معترك الحياة واقتحام حلبة الحركة والزحام لنشر دعوة الحق والخير واصلاح البشر . وبين أيديكم التأسي برسول الله ﷺ وما كان عليه أصحابه ، فإذا عملتم كما عملوا وجاهدتم

(١) ص ١٦٩

كما جاهدوا وثابرتم على اقامة الحق كما ثابروا كنتم مسلمين حقا كما كانوا وكتب الله لكم مثل الذي كتب لهم من الفلاح في الدنيا والنجاة في الآخرة .

إن محمداًﷺ لم يدع الى مثل ما دعا اليه (بوذا) من هجر الدنيا ومعارضة الفطرة بقمع الشهوات ومحاولة انتزاعها من النفوس ، بل دعا الى تعديلها وتسكين ثورتها والحد من شططها والاسراف فيها .

ولم يدع الى مثل ما يقال عن دعوة المسيح من احتقار الثروة والقوة ، بل دعا الى تحرّي الطرق الصالحة في الحصول عليهما وفي حسن استعمالهما .

إنما الاسلام إيمان بالحق وعمل به ، ولذلك تفاصيل وفروع ومساع متنوعة وجهاد عظيم وكفاح متواصل . فترك العمل عكس ما جاء به الاسلام ، والدين الذي يأمر بالفرائض لا يعقل أن يرضى بالإعراض عنها . وإن شئتم تفصيل ذلك فاقرأوا سيرة الرسول وادرسوا تراجم أصحابه . أليس الله عز وجل قد وصف نبيهﷺ بقوله : (مُحَمَّدٌ رَسُولُ الله والَّذين مَعَهُ أشداءُ على الكفّار رُحماءُ بينهم تراهُم ركّعاً سجّداً يَبْغُونَ فضلاً من الله ورضواناً) .

كان في جهاد عظيم وكفاح مستمر ، وما برح طول حياته الشريفة مختلطا بالناس متحدثا الى اصحابه يجالسهم ويساكنهم ويواكلهم ويشاربهم ويلقاهم بوجه طلق وقلب نقي سليم متعلق بالله وبما يرضى به الله ، وقد تراه راكعا ساجدا لله ، كما قد تراه ساعيا يبتغي الفضل من الله ويكسب رزقه بعمله مع تعلق قلبه بربه لا يلهيه عن ذلك شيء (رِجَالٌ لا تُلْهيهِمْ تجارةٌ ولا بَيعٌ عَنْ ذِكر الله) فهو اذا ذكر الله لا يحمله ذلك على ترك

الدنيا والعمل فيها وهجر أهله وعياله ، واذا قام بعمل الدنيا لا ينقطع مع ذلك عن ذكر الله بقلبه وتحرّي مرضاته في كل ما يعمله .

ألم يأتكم نبأ المسلمين وهم يقاتلون الروم في بلاد الشام ؟ إن العدو ارسل عيونا يتجسسون له أحوال المسلمين في معسكرهم ولما عادوا الى قائدهم قالوا : لقد رأينا عجبا ، إنهم بالليل رهبان ، وفي النهار فرسان .

إخواني . اليوم آخر عهدي بكم في هذه المحاضرات . وكنت أحسبني قادرا على ان اصف لكم رسول الاسلام ورسالته وصفا كاملا ، وإني سأوفيهما حقهما مبينا سيرة الرسول الطاهرة ومناحيها المختلفة في هذه المحاضرات الثمان . وها هي ذي المحاضرة الثامنة قد انتهت وفرغت الآن من القائها ، ولكن الرسالة المحمدية قد بقيت منها نواح لم اوفها حقها من البيان .

اللهم صلّ على محمد وآله وصحبه وسلم
وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

فهرس تحليلي

الموضوع | **الصفحة**